

الحياة



شهيد
التصوف
إسلامي



طه عبد الباقي رُرد

نور

٧٧/٤

رَاطِبَةُ نَهْضَةِ رُفْدٍ
الْفَجَالَةِ . الْقَامَةِ

الْفَن . ٥٠

طه عبد الباقي سيّد

الحسين بن منصور

الحِكَايَة

شَهِيدُ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ

الطبعة الثانية

دار تحف مصر للطبع والنشر
الجيزة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

كان الحلاج ، نبأ عظيماً ، في أفق التصوف الإسلامي ، ولا يزال الناس يتسائلون عن النبأ العظيم ، الذين هم فيه مختلفون .

هبط به خصومه إلى هاوية السحر والشطح الآثم ، المتطلع إلى فناء وخلود ، عن طريق الاتحاد والخلول !!

وارتفع به محبوه ، إلى أفق البهاء المقدس ، وإلى معارج البطولة الخارقة للناموس !!

فالحلاج عند شعراء ما وراء النهر ، بطل ملحمة الخلود الكبرى ، ورائد الحب الإلهي ، الذي صعد على معارج الشوق والوجد ، إلى سدرة النور السني ، حيث يغشى هناك القلب ما يغشى من أذواق وهبات ، ومعرفة وتجليات .

والحلاج في أقلام رجال الاستشراق ، يربطه خط نفسي مضى بالمسيح عليه السلام ، إنه الشهيد الولي الرباني ، الذي تطلع إلى ميلاد كلمات الله المباركة في قلبه .

أما رواة التاريخ الصوفي ، فقد دندنوا طويلاً حول كراماته وآياته ، وتحدثوا فأطالوا الحديث ، عن عجائب مصرعه ، وما اقترن به من خوارق ، ثم ذهب ببعضهم الخيال ، ففسجوا قصة روحه فاتنة ، تدور حول جثته التي أحرقت بعد صلبها ، ثم ألقى في دجلة برماها ، فأصبحت كل جرعة ، من ماء هذا الرماد المبارك ، تنجب شيخاً من شيوخ الصوفية في بغداد ، وتصوغ قطباً من أقطاب المعرفة في العراق ؟ ! !

لقد أسرف خصوم الخلافة في نغضه وتجريحه ، وأسرفت الخلافة العباسية في اضطهاده وتعذيبه ؛ وأسرفت إسرائفاً جنونياً وحشياً فيما أعدت من عذاب غليظ عنيف ليوم مصرعه ، وفيما أقامت من ستار حديدى لحجب سيرته عن الحياة ، وفيما اصطنعت لتشويه تراثه في التاريخ !!

فأسرف أنصاره أيضاً في حبه وتقديسه ، وفي الحديث عن أسراره ونفحاته وعلومه وعجائبه ؟ !

ومن ثم انطلق الخيال الأسطورى التاريخى ، يوشى هذه الصورة العجيبة المتناقضة ، ويريق عليها مزيداً من الجمال ، ومزيداً من الغموض !! ثم أخذ ينسج حولها مشاهد ملونة متنافرة ، تتعاقب وتتواكب ، حافلة بأروع ما فى الدنيا من عظمة الروح والإيمان حيناً وبأقسى ما فى قاموس الضلال ، من إلحاد ومروق أحياناً .

وبعد مرور قرابة ألف عام على المأساة الخلاجية ، لا يزال النبأ العظيم يتساءل فيه الناس وهم مختلفون ؟ !

ولقد فتنت بسيرة الخلاج كما فتن بها غيرى ، وصاحبته طويلاً في تقلباته ومعارجه ، وناجيته وذهبت معه في انطلاقاته ، وتحسست ما فى عواطفه وقلبه ، وحاولت أن أدنو من شوقه ووجدته ، وثورته وتفكيره ، وأن أجد الخط الروحى الخفى ، الذى يربط ما بين المتناقضات التى تزخر بها حياة رجل يذيه ويحرقه الوجه الملح العنيف ، فينطلق فى الفلوات والمقابر والآفاق ، مذهولاً مأخوذاً ، حتى يتذوق نشوة رياضاته مقاماً من مقامات القرب ، ويرى نوراً من أنوار الأنس والقدس ، ويفرق فى بهاء القرب ، وأنوار الأنس ، ويسبح ويسبح فى معارج حبه ، حتى يذهل عن نفسه ، وعن وجوده ، وعن كل ما يحيط به ، فلا يرى فى الكون الفسيح ، إلا وجه الله القريب الحبيب ، الذى يذوب أمام سبحات كل شيء ، فلا يبقى إلا هو ، ذو الجلال والإكرام ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

وهو مع هذا الوجد المحرق ، وبعد هذا الفناء المذهل ، يطيل التأمل والتفكر ، في واقع الأمة الإسلامية، فيرى انحرافها عن رسالتها، وابتعادها عن عبادتها ، فيطلق صيحة الثورة على الخلافة المنحرفة ، وينشر الدعوة ، ويعد العدة ، لإقامة حكومة الأقطاب الروحانيين ، التي يسوس أمرها الأولياء والأبدال ، والتي تحيل الكون إلى محاريب للصلاة والتأمل ، وذكر الله .

ولقد عانيت من قبل تجربة الدراسات الصوفية ، وأعلم ماأحتاجه من جهد ، وما يصاحبها من إرهاق ، فهي لا تزال بكرأ لم تتمد سبلها ، ولم تعبد طرقها .

وأشهد أنى لم أجد رهقاً ونصباً ، في دراسة صوفية ، كما وجدت في دراسة الحلاج ، فقد تمزق تاريخه ، وتبعثرت آثاره ؟
وأشهد أيضاً ، أنى لم أجد متاعاً للقلب ، وأنساً للنفس ، وزاداً للتفكير ، كما وجدت في هذه الدراسة .

وللحلاج سحر في كلماته ، وسحر في حياته ، إنه من الشخصيات التي تملك قوة الإيحاء ، وقدرة الاستهواء ، ولهذا فسواء كنت معه ، أو كنت عليه ، فلا تملك نفسك ، من أن تحبه وتهواه .

ولقد حاولت جاهداً ، أن لا تتأثر هذه الدراسة بهذا السحر ، وأن تنطلق إلى هدفها ، مجردة من كل عاطفة ، إلا عاطفة البحث عن الحقيقة ، الحقيقة المجردة لذاتها .

وبعد : فهذا هو الكتاب الأول الذي يصدر عن الحلاج في لغة الضاد ، نقدم فيه للعالم الإسلامى ، صورة حية ، من صور الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، ونصور فيه حياة رجل من أئمة هذه الحياة الروحية ، بل لعله نسيج وحده فى هذه الحياة الغنية برجالها وأقطابها .

فإن أوفى الكتاب بعلمه ، نقدم الوجه الصحيح ، للرجل الذى تساءل

الناس عن تبأه واختلفوا في أمره ، فنسجد لله شكراً ؛ على ما هدى وألهم .
وإن عجز الكتاب عن الوفاء بعهده ، فحسبه أنه محاولة أخلصت
وجهها لله ؟

طه عبد الباقي سرور

القاهرة }
١٣٨٠ هـ
١٩٦١ م

شعاع على التاريخ

« .. بأية حماسة وحمية وجدانية قاصر
هذا العاشق الجسور برأسه كيا يظفر
بجوهره الجمال الإلهي » .

فريد الدين العطار

منذ أكثر من ألف عام ، تركز سمع الدنيا وبصرها ، على الخاتمة
الفاجعة ، لا عجب صراع شهده تاريخ الفسك ، وتاريخ الحياة الروحية
في الإسلام .

وتساءل الناس عن النبأ العظيم ، وهم في غمرة ذاهلة من هول ما يترامى
إليهم من همسات وأحداث ، لقد غامرت الخلافة العباسية وقامت
بوجودها ومكانتها فألقت من أعلى مآذن بغداد برماد جثة رجل ... عذب ،
وصلب ، وحرق ، في مشاهد مسرحية وحشية ، لا تمت إلى الإنسانية ،
أو الآدمية ، بسبب أو نسب .

وحملت أجنحة الهواء ذات الرماد الشهيد إلى الآفاق ، ومن ثم بدأ
تاريخ عجيب رائع ، ونبتت حياة سامقة شاحخة ، فقد تحولت كل ذرة من
ذرات هذا الرماد ، إلى مثذثة ومنبر ، يتلى عليهما في مسمع الدنيا ووجدانها
وضميرها قصة هذا الشهيد ، وحياة هذا المصلوب ١١٩

ويا لها من قصة ، وبها من حياة ، أراق عليها الخلود فتنته وبريقه ،
وأكسبها الاستشهاد بحجره ونوره ، وأضفى عليها الحب الإلهي جلاله
وعطره ، ومنحها مقام الفناء ، بقاء يعجز كل فناء ...

ومنذ أكثر من ألف عام ، وقصة هذا الشهيد ، تعيش متلاثلة مشرقة
متجددة في قلوب الناس وعواطفهم ، وتحيا مقنعة مبهمة ملهمة ، في عقول
المفكرين وأقلامهم ! ؟ أشبه ما تكون باللحن الذي اهتزت أنغامه
وتشابكت أوتاره ، ولكنه مع هذا ، نغم فاتن شجي ، غنى ثرى بالإلهام
والخيال والأحلام .

وتحولت القضية والمأساة إلى أسطورة مجنحة ، ترتاد الأفاق المتناقضة ،
وتمشي مع الخيال الأسطوري إلى القمم العالية السامقة ، المجللة بالضباب
والسحاب ، فتزداد إلهاماً وغوضاً ، كما تزداد سحراً وبريقاً .

يقول المؤرخ الفرنسي - موزو - : « إن التاريخ هو ذاكرة
البشرية ، ولكنها ذاكرة قد تضعف حيناً ، وقد تصطنع الضعف أحياناً .
ولقد كانت تلك الذاكرة ، أضعف ما تكون ، أو فرض عليها أن
تكون أضعف ما تكون ، وهي تقدم للناس عبر القرون ، تاريخ الحلاج
ورسالة الحلاج ..

لقد زيفت ذاكرة التاريخ عن عمد خبيث ، وعن تدبير هادف ،
واصطنعت صوراً خادعة مضللة زائفة ، لأعظم حقبة في تاريخ المعرفة
الصوفية ، ولأخطر رجل في تاريخ الحياة الروحية .

ولقد عرفت جميع اللغات ، حياة الحلاج ومأساته ، وامتلأت حقائب
التاريخ العالمي . بألوان من الأساطير ، حول فلسفته الروحية ، وتعددت
في التراث الإنساني ، صور حيه ومجاهداته القلبية ، وسبحاته الوجدية ،
ولكنها صور وشاها الخيال ، واعتنى فيها المصورون بالتلوين والظلال ،
عناية طمست الحقائق ، وغيرت وجهها ، وشوهت لونها ، وانحرفت بها ،
عن جوهرها ورسالتها .

ولقد تحاشى مؤرخو الحياة الروحية في الإسلام هذه المأساة وسرها
وما يدور حولها ، تحاشاها القدامى تحت ظلال صيحات الرعب والهول ،

أتى أطلقها العباسيون ، مدممة حول الحلاج وتاريخه ، وحول من يؤذبه ،
أو يترغم بلحونه وأهدافه ، حتى أن السراج الطوسي ، وهو معاصر للحلاج
أو يكاد ، وهو أكبر المؤرخين للحياة الروحية ، وسير أعلامها ورجالها ،
أهمها وتجاهلها ، مع جلالها ومكانتها .

وحتى أنه ليستشهد في كتابه العظيم «اللمع» في أكثر من خمسين موضعاً
بكلمات الحلاج في المعرفة والتصوف ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصطنع
تعبيراً عجيباً ، فيقول : قال بعضهم ؟ أو قال القائل ؟ !

وكذلك صنع المؤرخ الصوفي ، العلامة السكلاخاني في كتابه «التعرف»
فهو يروى كلمات الحلاج التي ترسم آفاق التصوف ، وتحدد مناهجه ، دون أن
يذكر اسمه ، بل يصوغ تعبيراً بديعاً هادفاً بقوله « قال أحد الكبراء » .
وجاءت كتب الطبقات الصوفية ، فتحدثت في إسهاب ، وفي إسراف
عن كل ما يتعلق بالتصوف ورجالها ، وقادته وأعلامه ، ثم مرت سريعة
خفيفة ، بسيرة الحلاج ، أو حومت حولها ، في حذر مصطنع ، وتجاهل
متعمد .

ثم جاء المحدثون من أصحاب الأقلام ، فوقفوا حيارى ذاهلين أمام
المأساة الحلاجية ، أو العقدة الحلاجية ، فقد زيفت تلك المأساة تزييفاً فنياً
رائعاً ، فتقنعت أحداثها بالغموض ، واشتبكت صورها بالآهواء ، وتضاربت
فيها الأقوال ، وامتلات آفاقها بالأساطير والخيال .

فقد اشترك الجهاز العباسي العالمي بكل قواه ، وبكل عملائه ، من
علماء وفقهاء وشعراء وكتاب ، في هذا التزييف الذي لم يعرف له
التاريخ مثيلاً .

وجاء رجال التاريخ الإسلامي ، وجلبهم من الحنابلة المتزمتين فآلقوا
بكل ما في صدورهم ، من مودة ، ومن حقد على التصوف الإسلامي ، على
رأس الحلاج وتاريخه ورسالته .

ومجرت كل هذه الخصومات ، وكل هذه الأباطيل والأساطير ، عن أن تطغى شعاع هذا الروح الكبير ، وظل شعاعه الروحي يومض في أفق الحياة ومضات تترك آثارها ولساتها في القلوب والعقول ، وفي الضمير الإنسانى ، والوجدان البشرى .

والتاريخ كما يقول العلامة - سبىسر - : لا يموت ، فان حقائقه وإن توارت في زحام الأغراض ، وصيحات الأقسام ، تستعصى أبداً على الفناء .

ومن هذه الحقائق المتناثرة ، التى أثقلت كواهلها أكداس هائلة من التزييف والتلفيق ، نحاول أن نقيم حياة ، وأن نعرض هذه الحياة ، بكل ما أبدعت وابتكرت على الناس ، وأن نجعلها على جبين الشمس واضحة سافرة .

والحلاج شخصية غنية خصبة ملهمة ، شخصية تفتح أبواباً للتفكير ، ومسرحاً للخيال ، ومجالاً للعاطفة ، شخصية تعددت جوانبها ، واتسعت آفاقها ، واحتشدت فيها الانفعالات النفسية والوجدانية ، والإلهامات الروحية والقلبية ، والرياضيات العقلية والجسدية .

كما تمثلت في وقائعها كافة العناصر التى تصنع بطولات التاريخ ومعجزاته ، بكل ما فى البطولة من عزة وسموق وعظمة واستشهاد ونضال وفداء وقوة .

وفى إطار هذه الشخصية الشائخة ، نعاصر حقبة حاسمة فى التاريخ الإسلامى ، الفكرى والحضارى ، فترى الصراع المشوب الأوار ، بين المعتزلة والحنابلة ، والشيعية والقرامطة ، والفقهاء والصوفية .

ونشهد حياة القصور العالية ، وما فيها من إسراف وترف ، وشهوات

وغوايات ومؤامرات ، وكيف تتشابك العواطف بالأحداث ، لتجعل من خلفاء العباسيين الذين دانت لهم الأرض ، العوبة في أيدي العبيد والنساء ، وأشياء العبيد والنساء .

وزى العالم الإسلامى ، وهو يتمزق بعد وحدة ، وتلتابه انتفاضات فكرية وثورية ، واقتصادية وثقافية .

ونظالم الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، وأنبى صورها ، عصر النجوم المتألثة ، عصر المدارس الصوفية الكبرى ، التى دفعت بمنهجها فى المعرفة والسلوك ، إلى ساعات الفكر الإسلامى . واطلقت فى جو عاصفة الجدل والحوار ، والخصومات المذهبية الجاحمة ، أطلقت كلمات جذابة حلوة ، لها إغراء ورثين ويريق ، كلمات الحب ، والوجد ، والشوق ، والآنس فى الحضرة الربانية ، والساحة القدسية .

وما تلهم هذه الكلمات النورانية ، من أدب النفس ، وسمو الحس ، وطهارة القلب ، ونبل الخلق ، وتصعيد الأعمال كافة إلى الله سبحانه ، وإفاضة المعنى الروحى على كل شىء فى الوجود ، وما يترقق حول هذه المعانى ، من أشواق ورياضات ، وأذواق والمهامات .

وفى قلب هذا الخضم ، بانفعالاته المتوترة الحية ، وبأفكاره المتدفقة المحلقة ، وبأحداثه الثائرة المضطربة ، وبترفه وشهواته الجاحمة .

برزت شخصية الحلاج لتحدث فى الدنيا دوياء ، وتحدث فى الجماهير سحراً ، وتلقى على كل شىء مسته حياة وحرارة وانفعالا .

كان الحلاج عبقرية من تلك العبقریات الاستهوائية ، التى يعرفها التاريخ فى لحظاته الحاسمة .

وبلغ من عظمة هذه الشخصية ، أنها غدت النبأ العظيم فى آفاق التصوف والمعرفة ، كما كانت النبأ العظيم فى آفاق الإصلاح والثورة .

كان الحلاج يملك قوة روحية عالية ، من تلك القوى التي يفيضها الله على من يشاء من عباده ، وكانت تلك القوى الروحية تمنحه فيما تمنح ، القدرة الموحية المؤثرة الصانعة في عواطف الناس وقلوبهم وأحاسيسهم ، وتضفي عليه طاقة تلهم الآمال الكبار ، لكل من يلوذه ، أو يدنو منه ، بل لقد شهد أمناء أتقياء ، بأنه كان يؤثر بروحانيته العجيبة ، في الجماد والنبات والحوان .

ومن هنا توهم أعداؤه فيه السحر والشعوذة ، وتوهم أحبابه فيه القدرة الخارقة على صنع المعجزات ، حتى لقد نسبوا إليه ، إحياء الموتى ، وبعث من في القبور !!

ويحدثنا شيخ الصوفية الأكبر محي الدين بن عربي . في الباب الثالث والستين وأربعمائة . من كتابه - الفتوحات المكية - « إن الحلاج كان يدخل بيتا عنده يسميه بيت العظمة ، فكان إذا دخله ملاء كله بذاته بأعين الناظرين ، حتى أن بعض الناس ممن لا يعرف تطورات أحوال هذا المقام ، نسبه إلى علم السيميا ، لجهله بأحوال الفقراء في تطوراتهم .

ولما دخلوا عليه ليأخذوه للصلب ، كان في ذلك البيت فما قدر أحد أن يخرج من ذلك البيت ، لأن الباب يضيق عنه ، فجاء الجنيد وقال له : سلم لله تعالى ، وأخرج لما اقتضاه وقدره ، فرجع إلى حالته المعهودة . فخرج فصلبوه .

ويقول صاحب الفهرست^(١) : « حرك الحلاج يده يوماً فانتثر على قوم مسك . وحرك مرة أخرى يده ، فنثر دراهم .

ويقول العلامة البغدادي^(٢) : « ووقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من في وقته .

(١) ص ٢٦٩

(٢) ماضي الاسلام وحاضره ص ١٧٢

ويهدف خلاصه وتلاميذه يوم صلبه : « لم يمت الحلاج بل ارتفع إلى السماء .. وسيعود !! » .

لقد عجز الموت في أبشع صورته ، وأقسى ألوانه ، أن ينتزع الحالة الكبرى ، التي تحيط بتلك الشخصية الشخمة الرائعة .

ويمشي سحر الحلاج وجلاله ، وتأثيره القوي الغلاب ، إلى رجال الاستشراق ، فيتحدثون عنه كبطل أسطوري ، من رجال الغنوص الشرقي^(١) وكشخصية مكررة من شخصية المسيح عليه السلام جاء ليحيد مأساة جبل الجلجلة^(٢) وليكرر فكرة الفداء . فداء البشرية من الخطيئة الأولى .

ولكن هل حشدت الخلافة العباسية ، كل قواها لقتال الحلاج . وأعدت كل ماتمك من وسائل الجبروت الوحشي ، والعنف البربري في عذابه ومحاكمته وصلبه ، من أجل مواجهته وألحائه في الحب الإلهي ، ومن أجل إلهاماته وفتوحاته ، في مقامات الغناء الصوفي ، وعجائبه وقدرته على الإيحاء والإلهام ، وصنع الكرامات والمعجزات ؟

يقول المؤرخ الكبير صاحب الفهرست : « لقد كان الحلاج جسوراً على السلاطين ، يروم انقلاب الدول^(٣) » .

ويروى لنا إمام الحرمين - الجويني - : « إن الحلاج كان يريد قلب الدولة ، والتعرض لإفساد المملكة » .

(١) الغنوص : كلمة يونانية الأصل . ومعناها : العلم أو المعرفة ، ثم أصبحت اصطلاحاً على المذاهب التي تتوصل إلى المعرفة بطريق الكشف ، ثم اتسم مبلو لها حتى أصبحت علماً على المذاهب الشرقية ، الفارسية والهندية التي تضم إلى جانب مذهبها في المعرفة الأسرار والسحر .

(٢) الجبل الذي قالوا عنه : إن عيسى عليه السلام صلب عليه .

(٣) ص ٢٧٠

ويقول المستشرق نيكلسون في كتابه — الصوفية في الإسلام : « إن قتل الحلاج أملت دوافع سياسية لا تعرف الرحمة » .

ويقول العلامة — جولد زهر — في كتابه — محاضرات عن الإسلام : « لقد أثرت صحيحة الحلاج الصوفية : معرفة الله تأثيراً عميقاً الأثر ، في الحياة العلمية الإسلامية » .

ثم يقول : « لقد أخذ الحلاج يتدخل في حياة المجتمع الإسلامي تدخلاً شديداً الوطأة » .

ويقول العلامة المستشرق — ماسنيون^(١) — : « كان الحلاج يحرك الجماهير ، وينادي بالإصلاح ، ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التي تقيم الشريعة على نعمات المحبة والعبادة الخالصة لله » .

وإذن فصحة الحلاج الصوفية الإصلاحية ، ودعوته إلى إقامة حكومة ربانية ، هي سر المأساة الكبرى ، أو إحدى أسرار تلك المأساة الكبرى .

ومأساة الحلاج ، كونها عناصر تاريخية ونفسية وخلقية ، وفي طليعة تلك العناصر ، الرهبة التي استشعرها العباسيون من القوى الصوفية النامية ، التي أخذت تهيمن على العراق في القرن الثالث الهجري .

يقول العلامة ابن الأثير بعد أن شرح الموقف في الإمبراطورية العباسية والصراع الناشب بين الفرق والطوائف^(٢) : « ولكن فرقة واحدة بقيت بعيدة عن التعصب ، ألا وهي فرقة الصوفية ، فقد كانوا يمتازون بسلامة الفكر والعفة والأخلاق الحميدة كما كان أفق تفكيرهم أوسع بكثير من غسيريهم فأكسبهم هذا حب كثير من الناس ، وأخذ نفوذهم يزداد ويقوى ، وهرع

(١) شخصيات قلقة .

(٢) نظام الكنجوى ص ٦٥ .

كثير من الناس إلى حظيرتهم بعد أن رأوا جور الزمان وقسوته ، وكثرت
مجالس الصوفية وأقبل الناس عليها ، .

تلك هي مكانة التصوف في العراق خلال تلك الحقبة من التاريخ ،
لقد غدا أتباعه ، القوة الحية النامية في المحيط الممزق المضطرب .

وكان في بغداد ، عمالقة من الأئمة الروحانيين ، وزعماء من القادة
الصوفيين . . . كان هناك أبو القاسم الجنيد ، والشبلي ، وسهل التستري ،
وعمر المكي ، والسري السقطي وغيرهم من الأقطاب الكبار .

ولكن الحلّاج ، كان أقواهم شخصية ، وأوسعهم نفوذاً ، وألصقهم
بالجماهير ، وأكثرهم قدرة على حل راية الكفاح والنضال .

كان الحلّاج يحمل روح نائر ، وقلب قطب ، وعقل زعيم ، وروح
محب عابد ، وكان يؤمن بالتصوف القرآني الإيجابي ، الذي يسهم في الأحداث
ويوجهها ، ويترك طابعه عليها .

وكان يبشر عن عقيدة ثابتة لا تتزلزل ، بحكومة الأقطاب الروحانيين ،
كما كان يؤمن بأثر الصلاة والعبادة ومحبة الله ، في إصلاح المجتمع ، والارتفاع
بالجماهير إلى أرقى أنبل وأعلى .

ومن هنا كان الحلّاج في نظر الخلافة العباسية ، هو الزعيم الصوفي
الذي يهدد سلطتها ونفوذها . ويؤلب الجماهير ضد مظاهر الترف والإسراف
والشهوات العالية الصوت في محافلها وقصورها .

يقول الاصطخرى : « إن كثيراً من عليّة القوم في بغداد رأوا في
الحلّاج . أنه هو الرئيس القطب المنقذ .

وفي طليعة من آمن به من الوزراء : علي بن عيسى . وحمد القناني ،
والدولابي ، وفتحان ، ومحمد بن عبد الحميد .

ومن الأمراء : الحسين بن حمدان ، ونصر القشورى ، ومن ولاية
الأمصار أبو بكر الماذرائى ، ونجح الطولونى ، ومن دهاقين فارس وأشرف
الهاشميين ، أبو بكر الربعى ، وأحمد بن عباس الزينى .

ثم يقول : وكانت له معهم مراسلات مما هيا لهم الهداية ، وهيا له الخوض
فى السياسة ، وواجبات الوزراء . .

وتلك الصورة التى رسمها لنا الاصطخرى ، تدل دلالة كبرى على مدى
الأثر الكبير ، والنفوذ الواسع ، الذى ظفر به الحلّاج ، فى الدوائر العليا
للخلافة العباسية .

يقول - ماسنيون - : « لقد طالب الحلّاج بإصلاح الإدارة الحكومية
فى جراحة غير مسبوقة . ونادى بإقامة حكومة إسلامية حقا ، ووزارة كما
يقول : تحكم بالحق والعدل بين الناس ، وهاجم عمال الخراج ، وطالب
كما يقول : بخلافة تشعر بمسئوليتها أمام الله جل جلاله ، بما يجعل الله يرضى
عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صلاة وحج وصيام » .

تلك بعض الومضات التى تومئ إلى بعض جوانب الرسالة التى نهض بها
الحلّاج ، والتى سنعرض لها بالتفصيل والبيان .

ولن يضير الحلّاج ، أن النجاح لم يكتب لرسالته ، وأنه قدم حياته
فداء لتلك الرسالة ، فقد يكون الاستشهاد فى سبيل الفكرة والعقيدة ،
أسمى ألوان النجاح ، وأعلى ضروب النصر .

أو كما يقول ابن أبو الخير فى ملحمته الحلّاجية : « إن الموت على مصلب
الحلّاج ، ميزة الأبطال » .

ويقول حافظ الشيرازى ، شاعر التصوف الإسلامى ، فى إحدى قصائده

« أن تصلبني الليلة ، فإن دمي يخط على الأرض — أنا الحق . مثل منصور الحلاج » .

ولما أراد جلال الدين الرومي ، عبقرى الشعر الفارسي الصوفي . أن يصعد بفريد الدين العطار . في معارج الحب الإلهي . وفي مجالات البطولة الخالدة قال : إن روح الحلاج تجلت في العطار .

ثم عقب بقوله : « لقد بلغ الحلاج قمة الكمال والبطولة . كالنسر في طرفة عين » .

لقد كانت تضحية الحلاج هي سر خلوده . فقد صعد الحلاج بتلك البطولة الفدائية إلى قمة الكمال كالنسر الجبار الجناح . وغدا في قلوب المتصوفة وعقولهم . حجة ومنازة ترشد إلى المثل الأعلى في إشرافاته وإلهاماته .

وأصبح الحلاج بهذا الاستشهاد الأسطوري الملهم الأكبر لمواجيد الشعراء وألحانهم وأغانيهم في الأفق الصوفي .

فهو في الشعر التركي . الولي الأكبر . وهو لدى الهنود : شهيد الحق وهو الملهم الأول لعباقرة الشعراء الفارسيين العالميين . حافظ الشيرازي . وجلال الدين الرومي . وفريد الدين العطار .

وامتد لإلهامه عبر القرون ، فنشأت الفرق الصوفية الكبرى . على وقع نغماته ودعواته . وهدى تفكيره وآدابه . حتى أن البكتاشية التي هيمنت على تركيا وألبانيا . قروناً عديدة . ترجع في أصولها إلى الحلاجية .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام^(١) — فكان عند الصوفية ولاسيما صوفية العجم والهند . كالمسيح عند النصارى . واتخذوا كلماته شعاراً ودثاراً . وأشادوا بذكره . وجعلوه مثلاً للصوفي الفاني في الله ، .

ويقولة المستشرق ماسنيون^(٢) « إن أقوال الحلاج ترسم له حياة بعد

(١) كتاب فريد الدين العطار والتصوف . ص ٣٠

(٢) شخصيات قلقة ص ٨٥ .

موته . ذات طابع حضارى عميق . وأكثر صدقاً من الناحية الاجتماعية .
من الشهرة الأدبية التى نالتها نماذج . مثل الإسكندر . أو قيصر لدينا
فى الغرب .

ثم يقول: « كان الحلّاج نموذج الولى الذى مجده الشعب التركى المجاهد
الذى اقبل على الإسلام فى أعقاب مصرع الحلّاج » .

ويتحدث فريد الدين العطار عن مدن العشق السبع ثم يقول : « الحلّاج
ذلك الشهيد العالمى . الذى قدم للدنيا صورة الولاية الكبرى ، وقد بلغت
أوجها فى تضحية حربية ، مليئة بالرجولة . مليئة بالإلهام » .

ويستعرض ماسنيون الامتداد الروحى للحلّاج . فيقول : إن دم
الحلّاج يعتبر بذرة روحية تضمن استمرار الإلهام لمحبيه . ثم يقول :
« الحلّاج يدعى فى الدعوات الشخصية ، خصوصاً فى بلاد الترك لوقف
بكاء الأطفال الصغار . ولا يزال قبره التذكارى الخالى من رفاته الذى أقيم
له فى بغداد . كعبة الزائرين .

والمزمار الرئيسى فى الحفلات الموسيقية الروحية عند المولوية يدعى
باسمه — ناي منصور » .

لقد كان الحلّاج دائماً يقول فى دعواته : « يا معين الفناء على » أعنى
على الفناء » .

وسواء كان يقصد فناء الحب . أو فناء الامتداد الروحى . فقد استجاب
الله الدعاء ، فاستعصى الحلّاج على الفناء . وحلق خالداً فى آفاق الشهادة .
وستبقى قطرات دمه بذرة روحية . تضيف فى كل يوم إلى التصوف
الإسلامى قوة وماء .

وذلك خلود من ظفر بجوهرة الحب الإلهى . واستشهد فى سبيلها .

عصره وحياته

الفرس والتصوف :

يقول عبقرى الفكر الإسلامى العلامة الفيلسوف البيرونى : « العلم شجرة أصلها بمكة ، وثمرها بفارس ، وهى كلة من الكلمات التى تلقى بالآضواء على التاريخ . »

لقد كان فجر البعث القرآنى بأم القرى ، وعلى قيثارة الوحي ، تفتحت مشاعر العرب للهدى ، لحملوا كلمات الله إلى آفاق الدنيا ، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، ويهدون الإنسانية صراطاً مستقيماً .

وتسلم الفرس من العرب تراث الوحي غصاً مشرقاً ، بكل ما فيه من نور وقوة ، وإلهام وحياة .

وتفجرت فارس عيوناً ، وتفتحت آفاقاً ، وربت فيها الثقافة الإسلامية وتلايلات ، وأبنت ثمرها ، وأنت أكلها ، وتبعثت قواها ، مبدعة وصانعة ، لا كبر نهضة ثقافية عرفها التاريخ ، حتى رأينا عجايب ، وشهدنا إعجازاً ، ففي كل قرية ، عبقرة مكرمان ، وفي كل ألق ، نجوم وأقمار ، وفي كل مكان أئمة صالحة ، يدعون ويتكبرون وينشئون ، ومن هنا جاء الخبر المأثور : « لو كان العلم بالثريا ، لناله رجل من فارس » .

وأبناء فارس كما يقول ابن النديم : « مشبوبو القلب والعاطفة والخيال ، فهم استجابة قطرية ، للغارف الروحية ، والأذواق الوجدانية ، ومن ثم

وجد التصوف الإسلامى ، فى أرض فارس أفقه ومجالاته ، والينابيع التى تمده بالزكا والفاء ، والقلوب التى تنفتح له وتفتت به .. وكما يقول المستشرق ماسنيون^(١) : « أصبحت فارس الملهممة ، المركز الأكبر للتصوف الإسلامى ، الذى يوافق فطرتها وملكانها » .

ويحدثنا الدكتور عبد الوهاب عزام عن أثر شعراء فارس فى تشكيل الحياة الروحية وتعميقها فى الإسلام فيقول^(٢) : « وبلغ شعراء فارس فى هذه السبيل غاية لم يدركها شعراء أمة أخرى ، فأخرجوا المعانى الظاهرة والخفية ، والجليلة والدقيقة ، فى صور شتى معجبة مطربة ، وقد فتح عليهم فى هذا فتحاً عظيماً ، فكان شعرهم فيضاً تضيق به الآيات والقوافى والصحف والكتب ، حتى ليقف القارىء حائراً . كيف تجلت لهم هذه المعانى ، وكيف استطاعوا أن يشعروا المعنى الواحد إلى معانى شتى ، ثم يخرجوا كل واحد منها فى صور شتى عجيبة ، كأنها أزهار المرج ونباته تزدهم فى العين ألوانها وأشكالها ، وماؤها واحد ، ورتابها واحد :

ثم يقول : « . . . لقد تحول الشعر الفارسى كله ، إلى شعر صوفى ، فلا يخلو شاعر فارسى من نزعة صوفية تظهر فى شعره ، لشد ما سيطر شعراء الصوفية على الشعر الفارسى » .

وبقيام الدولة العباسية ، انتقل النفوذ السياسى ، والنقل المادى ، وترف الحضارة ونعيمها وجلالها إلى فارس ، فعدت محورا للحياة الإسلامية السياسية والعلمية ، بل غدت فارس أفقاً عالمياً تتشابه فيه وتتصارع التيارات الفكرية والقلبية ، وتلتقى فيه وجها لوجه ثقافات الأمم شرقية وغربية .

ويصف لنا المؤرخ الكبير ياقوت : المكتبات العلمية العامة بمدينة « مرو » إحدى مدن فارس التى لا تبلغ مرتبة العواصم فيقول^(٣) : « يوجد

(٢) التصوف وفريد الدين العطار ص ٤٢ .

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

(٣) معجم البلدان ص ٣٥

بها عشرة خزائن للكتب لم أر في الدنيا مثلها ، منها خزانان في الجامع .
إحداهما يقال لها « العززية » وفيها اثني عشر ألف مجلد . للناس كافة ، وكانت
سهلة التناول لمن يريد . . ولا يفارق منزلي مائتا مجلد ، وأكثرها بدون
رهن . . ثم يقول : وأنساني حبها كل بلد ، وألهاني عن الصحب والولد ،
وأكثر فوائد كتبي من تلك الخزائن .

ويصف الإمام « الجويني » أرض فارس فيقول : « مطلع السعادة
والمبرات ، وموضع المراد والخيرات ، ومنيع العلماء ، ومجتمع الفضلاء ،
ومرتع العظماء » .

أما ابن خلكان . فيحدثنا في كتابه « وفيات الأعيان » عن فارس
حديثاً يخلق على أجنحة حبها وتقديرها ، حتى يصفها بأنها الجنة التي وعد بها
المتقون ، فيها متاع الأعين والعقول ، أو كما يقول : إنها نموذج الجنة يلاقين
فيها ما تشتهى الأنفس ، وتلد الأعين . وتزكوه القلوب والعقول .

وفي جو تلك الحضارة العلية الشاخنة ، وفي عنفوان هذا الترف الثقافي
والحضاري ، كان قلب فارس ، يخفق بالتصوف سلوكاً ومعرفة ، وكان أبناء
فارس ينظرون إلى التصوف نظرة الإجلال والإكبار والتقديس ،
ويجدون في مناهجه القلبية والروحية ، صدى لما يضطرب في أعماقهم من
أشواق وأذواق ، وما يتلأل في معارفهم من إشراقات وإلهامات . بل يرون
في التصوف وجه القرآن وعلومه وأنواره ، وأسرار هذه العلوم والأنوار ،
ويرون فيه فوق هذا وذاك ، مجالا ومسرحا للقلوب المتعلقة بعرش ربها ،
القلوب التي تقف بذكره وحبه ، وتتلقى من إلهامه وفيضه .

فجر التصوف وضحاها

ومع مكانة التصوف الكبرى في الفكر الإسلامي ، وما قدمه للحياة الإسلامية في شتى مراحلها ، من مناهج في المعرفة والأخلاق ، والسلوك الاجتماعي ، وما أفاض على الثقافة الإسلامية من معان مشرقة عالية ، في كل ما يتصل بالروح والقلب ، وصلة الإنسان بخالقه ، وسيره إلى محبته ورضوانه ، وما أبدع في هذا السير من أحوال ومقامات وأذواق ومشاهدات وإلهامات ، سهمت في تعميق المعاني القرآنية وإنساعها وشمولها كما سهمت في تكوين تلك الحياة الروحية التي أصبحت من أكبر العناوين الثلاثة في جبين الدعوة الإسلامية ، وفي أفق رسالتها العالمية .

مع هذه المكانة الضخمة ، لا تزال الأقلام قلقة مضطربة ، تتناول نشأة التصوف وتدرجه وأثره في التاريخ الإسلامي .

وسر هذا الاضطراب ، إن كتب الطبقات الصوفية ، لم تضع منهجاً علمياً لتاريخ الحياة الروحية في الإسلام ، فقد اعتبرت أئمة الصحابة جميعاً من رجال الطبقات الصوفية ، ومن ثم ، اعتبرت بداية الإسلام ، هي بداية التصوف ؟

وجاء رجال التاريخ الإسلامي ، وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف في المعرفة والسلوك ، فلم تتجه أقلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة ، بل ألقوا عليها ستاراً ، ولم يرجوها وقاراً !!
ثم جاء رجال الاستشراق في عصرنا ، فبدلوا جهوداً ضخمة في دراسة التصوف الإسلامي ، وزجاله وتراثه .

ولكن هذه الجهود الضخمة ، شابهها وشوه من جلالها . عقدة نفسية تحملها أقلامهم ، وتستقر في أعماق قلوبهم ، وتدفعهم دفعا إلى تصوير التصوف الإسلامي ، في أثواب مستعارة من الملل والنحل الروحية ، شرعية وغيره ، وتدفعهم دفعا إلى تحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطيق ، وأوسع مما تحتمل ، ليضفوا على التصوف الإسلامي ، صورا غنوصية غامضة . من صور الغنوص الشرق ، الذي يستهوى رجال الاستشراق ، وشعوب رجال الاستشراق .

وتابعهم وجرى في ساحتهم فريق كبير من كتابنا ، بحكم التلمذة لهم حيناً ، وبحكم التشدد بآراء مفكرين أوريين أحيانا ، وبحكم جهلهم بالإسلام والتصوف أولا وقبل كل شيء .

ولسنا هنا بصدد التاريخ لهذه الحياة ، وإنما نحاول أن نرسم خطوطا لها في نموها وتطورها ، تعيننا على تفهم منهج الحلاج الروحي ، وصلة هذا المنهج الحلاجي ، بالإسلام والتصوف ، أو بجانبه لها .

لقد وجد الروح الصوفي مع الإسلام منذ يومه الأول ، وليس معنى هذا ، أن الآذواق والمواجيد القلبية والروحية ، والمناهج الصوفية سلوكا ومعرفة ، كانت واضحة جلية ، في أيام الإسلام الأولى ، وفي حياة أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ، في هذا الزعم إسراف ومجانبة للحقائق .

ولكننا لو تأملنا في آيات القرآن المحكمة ، وفي حياة الرسول الطاهرة ، وسير صحابته المشرقة ، نجد البنور الأولى ، للسلوك الصوفي ، وللمعرفة الروحية ، مدينة متلاثة .

وليس التصوف بلغا في هذا فكل منهج من مناهج المعرفة في الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن ، وجوهر رسالته ، وبدأ كما بدأ

التصوف مع الإسلام ، ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة ،
وسنة الله .

فإننا مثلاً نستطيع أن نقول مع الفقهاء ، إن الفقه نشأ مع الإسلام
وليس معنى هذا القول أن التفريعات الفقهية ، والاستنباطات والمصطلحات
الفنية ، كانت صدر الإسلام . . . وفي الكتاب والسنة ؟ وإنما كانت
هناك البذور الأولى ، والمادة الأولى ، التي نمت وتطورت ومشت
مع الحياة .

كان التصوف موجوداً في صدر الإسلام بروحه وهديه ، وآدابه
وخلقه ، وترفعه وزهده ، وعباداته وطاعاته ، وذكره ومناجاته ، كان
موجوداً بجوهره لا بمصطلحاته ، وقائماً بكياناته لا بجزئياته .

كان التصوف في صدر الإسلام . هو هذا الروح الديني المهيمن المسيطر
على حياة المسلمين كافة ، الموجه لحركاتهم وسكناتهم ، الصاعد بأعمالهم
ونواياهم ، إلى خالقهم ومولاهم .

كان هذه الرقابة الحية اليقظة التي أقامها كل مسلم في أعماقه ، ليراقب
ماتوسوس به نفسه ، وما يصطرع في قلبه ، وما يتوالت في نفسه ، وما يخفي
صدره ، وما تطرف به عينه .

كان هذا الترفع الشاخص عن شهوات الدنيا وزخرفها ، والإعراض عن
بريقها وفتنتها ، والزهد في ترفها ومظاهرها ، والتسامي بكل ما فيها إلى وجه
الله ، حتى يظفر بحبه ورضاه ، وقربه وهداه ، لأن الدنيا لا تزن عنده
جناح بعوضة ، ولأن الآخرة خير وأبقى .

ثم مشت الحياة بالمسلمين ، وفتحت عليهم الدنيا ، وابتعدت مسامعهم
عن نغمات الوحي ، وتفرقت قلوبهم عن الميثاق والعهد ، وانحلت العزائم ،

وقترت الهمم ، وتسارع الناس إلى المال والجاه ، وهو الحياة ، ونشأت الفتن ، واختصموا على الملك ، وتصارعوا وتباغضوا ، وتشعبت بهم السبل .

ونشأت تبعاً لذلك ، حركات مضادة ، ورسالات مجاهدة ، صمدت في وجه العاصفة . . ويحدثنا تاريخ النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ، عن وعاظ ومرشدين ، وقفوا على أسوار القرآن ، ومعالم السنة ، يندرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم ، تميزهم شجاعة نفسية عالية ، أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذي بدأت طلائعه في أفق الحياة الإسلامية .

وبجوارهم رأينا طائفة من الزهاد ، الذين وقفوا في وجه فتنه الترف والإسراف ، وأخذوا يديرون لحونهم وأحاديثهم ، حول فضائل النفس ، وآداب الحس ، وتركية الجوارح ، والزهد في الدنيا ، وهوان أمرها ، وزوال نعيمها ، وضلال شهواتها .

ثم رأينا العباد المتبتلين ، الذين انقطعوا إلى طاعة الله ، وعبادته وذكره ، وأحالوا الكون إلى محاريب للصلاة والمناجاة ، ومنابر للتحدث عن نعم الله ، وعن عظمته وجلاله ، والأنوار التي يفيضها على الساجدين المتطهرين .

ومن هؤلاء وهؤلاء ، تكون الرعيل الأول ، من الصفوة الربانيين ، الذين عرفوا في التاريخ باسم الصوفية ، أو كما يقول ابن خلدون : « اختص المقبولون بأنفسهم على الله باسم الصوفية » .

ثم ابتدأت تتكون لهذه الطائفة ثقافة إيمانية ، لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية .

ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ، ومجاهدة النفس ، وما ينبثق من هذه المجاهدة ، من آداب السلوك ، ومقامات السير ، ويتوج كل هذا الصلة بالله سبحانه ، وما يترقق حول هذه الصلة ، من أذواق ولحون ،

ومواجيد وأشواق ، ثم ثمرة هذا كله ، وهو المعرفة الباطنية ، وما تفيض
هذه المعرفة من علوم وأنوار .

ومن ثم بدأت الحياة الروحية ، تنفصل عن الحياة العامة ، وتستقل
بمناهجها ومعارفها ، وأبتدا الصوفية يصطنعون كلمات تحدد أذواقهم ، وتعبر
عن شعورهم . . وأخذ أفق هذه الكلمات يتسع لمعان متعددة ، وكانت
كل كلمة تضاف إلى التصوف ، تفتح أفقاً جديداً ، وتكون نبعاً متدفقاً ،
وتتناولها السنة الصوفية ، فتفتقها وتبتدع لها صوراً وألواناً وأذواقاً .

ثم أخذوا يكونون لهم فلسفة في الأخلاق ، وفي السلوك ، وفي العبادة
وأخذوا يجردون الأسباب من قوتها ، ويرجعون كل شيء إلى الله سبحانه ،
فأكسبهم ذلك عزة خلقية ، وسعادة روحية ، قوامها الرضا بقضاء الله
وقدره ، واليقين بأن لاسلطان لقوة من قوى الأرض على مصائرهم
وحياتهم : أو كما يقول إبراهيم بن أدهم : « نحن في لذة لو عرفها الملوك
لقاتلونا عليها بالسيف » .

كما أفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه ، شجاعة نفسية ، وقوة
إيمانية ، لا تسامقها قوة ولا شجاعة ، يقول إسحق بن إبراهيم السرخسي :
« سمعت ذا النون المصري ، وفي يده الغل ، وفي رجله القيد ، وهو
يساق إلى المطبق ، والناس في بغداد يبكون حوله ، وهو يقول : هذا
من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياها ، وكل فعله عذب حسن طيب » .

تلك الشجاعة الصوفية الشاذة التي ستبلغ ذروتها في البطل الشهيد
الحلاج ، حينما صمد للأساسة صموداً لا يطاقوله في التاريخ صمود .

هذه خلاصة سريعة للمعارف الصوفية ، في القرن الثاني للهجرة ،
ثم جاء القرن الثالث ، فبدأ معه العصر الذهبي للتصوف ، أو عصر النضوج
العلمي للحياة الروحية .

تطور المعارف الصوفية

في القرن الثالث الهجري

وفي مطلع هذا العصر ، أخذت معاني الحب الإلهي ، الذي سمعنا جرسه لأول مرة في ألحان رابعة العدوية ومواجيدها ، أخذت معاني هذا الحب تتسع ، وتتلون بها المقامات والأحوال ، وأخذت كلمات الأناشيد والبسطة والرجاء والخوف ، واليقين والمشاهدة ، تشيع وتؤتي ثمارها ، وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء ، وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثراً في تاريخه .

والفناء هو غاية الصوفية فيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيه بمتع ولذات روحية تنسيهم دنياهم وأخرامهم ووجودهم ، وكل شيء سوى المحبوب .

والحب أساس الأحوال الصوفية ، وقد اعتبر كما يقول « السهروردي » ، أساساً للأحوال ، كالآلية بالنسبة إلى المقامات ، فمن صحت تويته على الكمال ، تحقق بشائر المقامات ، من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء والبقاء والصحو والمحو^(١) .

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ، ولذة المعرفة والمشاهدة ، وفي الحب يتمتع المحب بالجمال المقدس ، وياله من جلال وجمال ؛ ونشوة الحب الكبرى تسمى سكرًا ، والسكر علامة الصديق في الحب ، وهو نشوة روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة ، كما يقول الإمام الغزالي ، ولذلك قالوا من ذاق عرف^(٢) :

(١) عوارف المعارف ص ٣٥٠

(٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٩٦

وهذا السكر الروحي ، حذقة يرى بها الصوفي ، حقيقة الكون ، وسر الخلق ، يقول معروف الكرخي : « إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره . فلا يرى إلا الله ، . »

ونهاية السكر هو الفناء ، وفيه يغنى المحب عن الموجودات ، ويتجه بكليته لمطالعة وجه المحبوب .

والفاني كما يقول الصوفية : لا يحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذي لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون ، في نشوة الفناء ، ووقدة الحب : « ليس في الوجود إلا الله ، . »

إنها تجربة عليا ، تجربة ذاتية في عالم الروح والسر ، تجربة كان أقوى وأجراً من تحدث عنها « الحلاج » حينما بلغ الذروة العليا لمقام الفناء ، أو مقام الاتحاد ، وحينما ابتدع الحلاج من هذا المقام معارف صوفية ، تتحدث عن وحدة الأديان ، والنور المحمدي ، ووحدة المحب والمحبوب .

ويأتي بعد مقام الفناء ، مقام البقاء ، ويأتي بعد الوحدة ، مقام الجمع ، وبعد الجمع ، مقام التفرقة .

ومقام الجمع ، هو رؤية الحق بلا خلق ، وهي حالة وجدانية ، أو حالة دهشة وغيبة ، مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس .

والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر ، وكأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعي وكأنه بمثابة السمع والوعي ، لا السامع والواعي ويتكلم وكأنه بمثابة الكلام لا المتكلم .

إنه مقام إشارة ، إلى حق بلا خلق . . . وحالة الجمع هذه هي الحالة التي قال فيها الصوفية ، الكلمات الجرئية التي عرفت ، باسم « الشطح » ، والتي

هو جم التصوف والصوفية من أجلها ، وتضرب الأمثال بكلمة أبي يزيد البسطامي « سبحاني ، ويقول الحلاج : « أنا الحق » .

وقد قيل لشيخ الطائفة الجنيد : « إن أبا يزيد يسرف في الكلام فقال : وما بلغنكم من إسرافه في كلامه ؟ قالوا : سمعناه يقول : سبحاني .. سبحاني ر . أنا ربّي الأعلى .. »

فقال الجنيد : إن الرجل مستهلك في شهود الإجلال ، فنطق بما استهلكه ليذهوله عن رؤيته إياه ، فلم يشهد إلا الحق تعالى ، فنعته فنطق به (١) .

ويعتبر كبار الصوفية ، مرحلة الجمع هذه ، أدنى مما يجب أن يكون عليه الكمل من الخبئين الذين يجب أن يتحققوا بما يسمونه : جمع الجمع : أو « صحو الجمع » أو « الفرق الثاني » ؟ ،

وهي مرحلة تعقب الجمع السابقة ، ويجمع الصوفي فيها بين الجمع والفرق معا ، لأنه لا بد للعبد منهما ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له .

وحالة جمع الجمع هذه ، حالة وعي وصحو وإدراك ، مع بقاء المعرفة الصوفية ، التي كانت في حالة السكر فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة ، إذا نظر إلى الكثرة ، أو إدراك الكثرة إذا نظر إلى الوحدة .

وهذه حالة فيها جمع من وجه ، وتفرقة من وجه ، فالجمع باعتبار الشعور بالوحدة ، والفرق لإدراك الخلق ، وصور الكون كما هي .

ومن المتحقق بهذا المقام أبو القاسم الجنيد . ويقول في هذا المعنى .

وتحققك في السرم فساجاك لسانى

فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

(١) شطحات الصوفية ص ٦٨

إن يكن غيبك الته ظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد م من الأحشاء داني
فالجنيد يجمع لمعان ، ويفرق لمعان ، وهذا هو جمع الجمع ، وحال العارفين
الكمل ، المحلقين على أجنحة الوجد .

* * *

ومقامات التصوف ومعارفه ومناهجه ، أفق يتلأأ جلالا وكلا ، أفق
صاغه الإلهام ، وفتق جوانبه الإيمان ، وشيد سماواته الحب الإلهي ، وما يفيض
هذا الحب من مشاهدة يقينة ، وعلوم فيضية ، ومنح ربانية .

أفق مترامى الأبعاد ، تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياده ،
واكتشاف أسرارها ، والاهتداء إلى أنوارها .

إنه أفق لأصحاب العقول والأذواق ، الذين صفت أرواحهم بالطاعة ،
ورقت بالمجاهدة ، وشقت بالمحبة ، وسمت بالاصطفاء ، حتى شهدت بالاجتباء
مالا عين رأت ، مالا أذن سمعت ، ونعمت بما لم تنعم به القلوب التي لم
تبرح نطاق الماء والطين .

والقرن الثالث للهجرة ، يعتبره الصوفية أكبر وأخطر مرحلة في تاريخ
الحياة الروحية .

إنه العصر الذي بلغ فيه التصوف ضحاه ، واكتمل نموه ، وشيد صرحه
وتدعمت مدارسه .

العصر الذي شهد الأعلام الأئمة الكبار الذين يدين لهم التصوف
بخطوطه العريضة المضيئة .. العصر الذي عاش فيه ، الحارث المحاسبي
(ت سنة ٢٤٣ هـ) سيد المتحدثين عن دقائق ورقائق المحاسبة والمراقبة ،
وذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات
والأحوال ، وأبو يزيد البسطامي (ت ٢٦٤ هـ) بتجليقاته وإلهاماته في

مقامى الحب والفناء ، وأبو سعيد الخراز (ت سنة ٢٧٧هـ) أستاذ مدرسة السلوك القلبي ، والخلق المثالي ، وسهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ) مربى العافين القاتنين ، وشيخ الطائفة وإمامها ، أبو القاسم الجنيد (ت سنة ٢٩٧هـ) الحجة الذائق ، الواصل فى مقام التمكن .

وأخيراً الشهيد ، الحسين بن منصور الحلاج ، الذى بلغ به التصوف كما يقول «ماسنيون» أقصى درجاته الفنية ، وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفي المحب القانى .

والحياة الصوفية فيه فى القرن الثالث الهجرى ، بكل ما فيها من عظمة وإشراق ، وأسرار فى المقامات والأحوال ، وبكل ما اشتملت عليه ، من محبة وفناء ومشاهدة ، وفرق وجمع وفتح ، وجهاد فى سبيل الكمال واستشراق للبلل الأعلى .

كل هذا نشاهده مبيناً واضحاً مصوراً فى حياة الحلاج ، ونضاله ، وصراعه واستشهاده .

بل إن الحلاج ، ليعرض علينا ، آفاقاً قلبية ، ومعارجاً روحية ، وألواناً من الحب الإلهى وإلهاماته ، وما فيه من شوق ووجد ، وعذاب وحرقة ، وتقلب فى ملكوت المشاهد والأنوار ، لانزاهة عند غيره . لقد انبثق الحب الأعلى ، الحب الأعظم فى قلبه ووجدانه ، وحسه ، ودمه وكيانه ، فأذهله وحيره ، وأفناه عن سواه ، حتى لنراه ، فى أسواق بغداد بقماته الفارعة ، ولونه الأسمر الجميل ، وسمته المريب ، ومنطقه الساحر ، وهو يهيم على وجهه ، وقد صرعه حبه ، وهو يصيح :

« يا أهل الإسلام . أعينوني ؟ فليس — أى الله — يتركنى لنفسى فاتننى بها ؟ وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها ، وهذا دلال أطيعه^(١) .

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٣٠ .

مولده

في بقعة من بقاع فارس الجميلة العريقة ، الغنية بخيرات أرضها ، وبماز
عقول أبنائها ، وفي ضحى العصر الذهبي للتصوف ، في مطلع عام — ٥٢٤٤
٨٥٨ م — ولد الحسين بن منصور الحلاج . في بلدة « تور » في الشمال
الشرقي من مدينة البيضاء^(١) .

وتقدم لنا دائرة المعارف الإسلامية ، روايتين متناقضتين عن نسبه ،
فالرواية الأولى تصعد به إلى أبي أيوب الأنصارى الصحابي الجليل ، وبذلك
تجعله عربياً خالصاً . وتقول الرواية الثانية : إنه حفيد مجوسى من
أبناء فارس^(٢) .

والرواية التى تنسبه إلى الأنصار لم تثبت تاريخياً ، ولم يقل بها مؤرخ
عربى ، فإجماع رجال التاريخ ، على أنه فارسى الأصل ، كما هو
فارسى المولد .

يقول ابن كثير^(٣) : « هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث ،
ويقال أبو عبد الله ، كان جده مجوسياً ، اسمه « محمى » من أهل فارس من
بلدة يقال لها البيضاء . ونشأ بواسط ، ويقال بتستر » .

ويقول المستشرق « ماسديون » : إن البقعة التى ولد فيها كانت من اعظم
مناطق النسيج فى الإمبراطورية الإسلامية . وإن والده كان من عمال

(١) البيضاء مدينة مشهورة بفارس . وهى أكبر مدينة فى كورة « اصطخر » وسميت
البيضاء لأن لها كسا يقول فى معجمه ، قلعة تبين من بعيد وبرى باضها . وكانت
ممسكراً للجنود الاسلامى ، ومن أبنائها التاريخيين العلامة النحوى سيدييه .

(٢) الجزء الأول من المجلد الثامن ص ١٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٢ .

النسيج ، ولهذا سمي حلاجاً ، وهو استنتاج فكري من « ماسنيون » لم يقيم عليه من التاريخ شاهداً أو دليلاً .

أما الرواية التاريخية التي أوردها ابن خلكان في وفيات الأعيان فتروى عن ضميره بن حنظلة السهاك قال : « دخل الحلاج واسط^(١) وكان له شغل ، فأول حانوت استقبله كان لقطان ، فكلفه الحلاج السعي في إصلاح شغله ، وكان للرجل بيت مملوء قطناً ، فقال له الحسين : اذهب في إصلاح شغلي ، فأني أعينك على عمالك ، فذهب الرجل ، فلما رجع رأى كل قطنة مخلوجاً وكان أربعة وعشرين ألف رطل ، فسمى من ذلك اليوم حلاجاً ولازمته هذه الكنية طول حياته . »

وقد أورد ابن كثير^(٢) أيضاً هذه الرواية ، وأضاف إليها رواية أخرى تقول : إن أهل الأهواز اطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان يكشفهم بما في قلوبهم فسموه . « حلاج الأسرار » .

وبعد مولد الحلاج بقليل ، اضطربت أحوال والده المالية ، فرحل من بلدة « تور » إلى مدينة « واسط » ينشد العمل في ميادينها الاقتصادية الكبيرة . وكانت واسط ، مركز من مراكز الإشعاع الفكري والروحي في فارس أسس بها الأشاعرة مدرستهم الكبرى ، وأوجد فيها العلامة أبو علي الجبائي ، نشاطاً ثقافياً ، وتياراً علمياً حراً ، يخضع كل شيء لمنطقه وطرأفه . كما أقام بها الحنابلة مدرسة للقراء ، ومعهداً للحديث ، واتخذوا من مساجدها مقاعد للبحث والدرس ، والجدل والحوار .

وفي هذا الجو العلمي الحر الحيّ ، نشأ الحلاج ، وفت إليه الأنظار منذ طفولته ، بذكائه المتوَّاب اللبّاح ، وشفافية روحه ، وتفتح قلبه ، وجهه

(١) واسط مدينة بناها الحجاج الثقفي تقع بين البصرة والكوفة — معجم البلدان ج ٤

ص ٨٨١

(٢) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٣

وإقباله على يتابع العلم والمعرفة ، حتى ليحدثنا تاريخه ، إنه قرأ القرآن الكريم على أعلام القراء في عصره ، وحفظه وجوده ، وهو في العاشرة من عمره ، وتعمق في فهم معانيه ، تعمقا ليس من طبيعة الطفولة الغضة .

كما اشتهر بالإرادة القوية الموجهة ، والرياضات والمجاهدات الروحية الشاقة ، والزهد فيما يقبل عليه لذاته من شئون الحياة ، ولهو الطفولة ، والاستغراق الكامل في الصلاة والتأمل والتعلق بالدراسات التي تتناول المعرفة الروحية ، وما تحتوى عليه هذه المعرفة من أنوار وأسرار .

وأقبل العلاج بكل ما في قلبه من أشواق ، وما في روحه من إشراق على علوم عصره من فقه وتوحيد وتفسير وحديث وحكمة وتصوف . ولكنه كما يقول ماسنيون : « سرعان ما راح يبحث عن المعنى الرمزي الذي يرفع دعاء الروح إلى الله :

كان العلاج يحس في أعماقه دائماً تلهفاً واشتياقاً إلى معرفة أرق وأدق مما يقرأه في صفحات الكتب ، وبما يستمع إليه في دروس العلم والعلماء .

معرفة تدنيه وتقربه من الله ، وتمنحه المعراج الذي تصعد عليه روحه إلى هداه .

كان يحس أن لروحه عند الصفاء والنقاء ، سيحات ملهات ، تترقرق فيها معان مشرقات .

وأن قلبه عندما يأخذه الوجد الإلهي ، والحب الرباني ، تفتح فيه منافذ يطل منها على ملكوت رائع الجلال والبهاء ، تلتصق في آفاقه حقائق أعلى وأسنى مما يتجادل فيه الناس ويتخاصمون .

وإذن فليعمل العلاج على أن ترتفع روحه بالحب ارتفاعاً يجعلها أهلاً لهذه الحقائق التي يهبها الله لمن ارتضى من عباده ، واصطفى من خلقه .

وانقطع الحلاج عن دروسه ، وأقبل على ملكوت السماء والأرض
يقلب وجهه في آفاقهما ، ويتأمل أسرارهما ، ويقرأ بين سطورهما الخفية
أسراراً وأسراراً .

وعكف على روحه وقلبه ، بالتصفية والمجاهدة ، حتى أعطيا كنوزهما ،
وتفجرا معرفة ونوراً .

ونذر نفسه لربه سبحانه ، وأقبل عليه بكل ذاته ، وقد اشتملت
أحاسيسه بالوجد ، والتهبت عواطفه بالحب ، إنه يستهدف ارتباط قلبه
بالله ، وقرب روحه منه ، قرباً يفنى فيه عن كل شيء ، ليبقى له بعد ذلك
كل شيء .

إنه فناء الخالدين بربهم ، وهو فناء وخلود ، لا يعرفه إلا الآفاق
الصوفية .

وأخذ الحلاج نفسه بهذا المنهج أخذاً عنيفاً قاسياً ، وألزم نفسه به طوال
حياته ، حتى غدا طابعه الذي تشكل به وجوده المادى والروحي .

ولقد سئل عن المريد الصادق . فقال : « هو الراى بقصده إلى الله
عز وجل ، فلا يرج حتى يصل » .

وهي كلمة تصور لنا منهج الحلاج وهدفه الذى عاش له وبه ، لقد
رمى بقصده إلى الله سبحانه ، وسخر كل ملكاته العقلية والروحية لتحقيق
هذا الهدف ، بل اتجه بكل أدواقه ومعارفه إلى آفاق هذا المعنى .

فكلمة التوحيد ، وهى السطر الأول فى كتاب الإسلام ، لا تكون
صدقا وحقا كما يقول الحلاج ، إلا إذا عشنا وتذوقناها ، وفنينا
فى معناها ، حتى كأننا حين نطقها نسمعها من الله جل جلاله ، وحينئذ
تنبثق فى شغاف القلب ، وعين الوجدان ، ويموج كل شيء بالجلال
والنور والمعرفة

والقرآن الكريم كلام الله فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقاً روحياً ، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلاً عملياً إيجابياً .

ألم تقل السيدة عائشة رضوان الله عليها ، وهي تصف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « كان خلقه القرآن » .

ويمشي الحلاج بهذا الفهم خطوات حتى يقول : « إن المؤمن الصادق يصل به الأمر حتى تكون . « بسم الله » منه بمنزلة « كن » من الله سبحانه .

أى أن « بسم الله » إن نطق بها من تحقق بحقائق القرآن ؟ وتذوقها وعاش بها تكون « بسم الله » منه ، لها من القوة والأثر ما لكلمة « كن » من الله سبحانه .

ومن كلمات شبابه التي تصور لنا منهجه قوله : « حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه » .

إنها البذرة التي ستخرج منها فلسفة الحلاج في مقام الفناء !! ويقول الحلاج : « من لاحظ الأعمال حجب من المعمول له — الله — ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال .

وهذه الصورة المثالية السامية التي تصورها لنا تلك الكلمة ، سنجدها بصور أكمل وأسمى في جهاد الحلاج وتضحياته .

تلك بعض خواطر الحلاج القلبية والروحية ، وهو في مطلع شبابه قبل أن يسلك المنهج الصوفي على شيوخه ، وقبل أن ينظم في المدرسة الروحية العالمية ، مدرسة التصوف ، التي كانت تهيم على العراق وفارس خلال القرن الثالث الهجري .

شيوخه في الطريق

ولما بلغ الحلاج الثامنة عشر من عمره ، اتصل بالإمام الصوفي سهل ابن عبد الله التستري ، وتلقى على يديه آداب الطريق ومنهجه .

وأعجب الحلاج بشخصية سهل ، وبادله شيخه الإعجاب والتقدير . وتلازما ليل نهار ، حتى بلغ الحلاج العشرين من عمره ، فاعتزم أن يخرج مع مدينة واسط الصغيرة إلى العالم الفسيح ، فرحل إلى البصرة بعد أن ودع شيخه ، وترك كما يقول جانباً من قلبه معه .

وفي البصرة تتلمذ على شيخ من شيوخ التصوف هو عمر المكي الذي سيكون له أبعد الأثر في حياته . وفي نكته . ومن يده تلقى الحلاج خرفة الصوفية وعاش حياتهم .

ثم زوج الحلاج في البصرة ، بأم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع من زعماء البصرة وأهل الصدارة فيها .

وانسم هذا الزواج بالحب والإخلاص وصاحبه التوفيق حتى النهاية . فقد وفّت له زوجته في مجده وفي محنته وثبتت إلى جواره . ورزق منها بثلاثة أبناء .

وكان شيخه المكي خصومة ملتبة مع صهره ، امتدت آثارها إلى الحلاج . فانقطع ما بينهما من مودة ، وقامت مكانها خصومة حادة ، حتى ضاق صدر الحلاج بالبصرة فارتحل إلى مدينة بغداد .

الحلاج في بغداد

يقول صاحب العبر : « تصوف الحلاج ، وصحب سهل بن عبد الله ، ثم قدم بغداد فصحب الجنيد ، والثوري ، وتعبد وبالغ في العبادة » .

وفي بغداد تتلمذ على أبي القاسم الجنيد سيد الطائفة ، وشيخها الكبير . وتوثقت صلتها . واشتكى إليه من شيخه المكي فأمره الجنيد بالصبر ومراعاة حق شيخه . . . ثم أخذ ما بين الجنيد والحلاج يفتر . فلكل منها شخصيته ومنهجه ، وباعدت بينهما أحداث سنعرض لها في الفصول القادمة إن شاء الله .

ويرى عن الجنيد قوله : « إنني أرى كثيراً من فضول الكلام فيما يقوله الحسين بن منصور » .

ثم اتصل الحلاج برجال مدرسة رسالة القشيري ، والتقى بصديق عمره « الشبلي » كما اتصل بمدارس التصوف وأعلامه اتصالاً لم يطل أجله . . . فقد أخذ الحلاج يكون لنفسه منهجاً ومدرسة وزعامة . ذات أهداف دينية ودينية معا . . . وكانت بغداد عاصمة الدنيا حضارة وثقافة ، وكانت تقدم للحلاج الكثير من المعرفة ، ومن الروحية ، ومن دوافع الحركة والنشاط والجهاد . . . وفي بغداد تلاقت الثقافات العالمية ، كما تلاقت المذاهب والملل والنحل المختلفة . وتصارعت كل هذه الألوان الفكرية وتلاحقت وصيغت الحياة الإسلامية بصبغتها وطابعها . . . ورأى الحلاج في بغداد الصراع الفكري المشبوب . ورأى في بغداد العصبيات

القلبية بين الفرس والترك والعرب ، وبين القبائل العربية المختلفة ومثيلاتها .
كما رأى ترفاً ماجناً هلوكا ، ونظماً فاسداً ظالماً ، وخلافة متكبرة متألهة .

وآمن الحلّاج بأن التصوف هو الذى يستطيع أن يبيّن على هذه
المذاهب الفكرية المتعارضة . ويوحدها فى منهجه الإيماني ، كما يملك القدرة
على محو هذه العصبية الجامحة بروحانيته العالية ، وما تشع من أخوة .
وما تلهم من محبة ١١ وفوق هذا وذاك : فإن التصوف يستطيع بطبيعته
النقية المترفعة أن يحارب الترف والفساد والتأله الذى فرضته الخلافة
العباسية على المجتمع الإسلامى .

الحلاج والأخوة الروحية

ومن ثم أخذ الحلاج يفكر في إيجاد كتلة شعبية تدعو إلى أخوة روحية في الله ، وتستهدف وحدة العالم الإسلامي ، والنهوض به خلقياً وتعبدياً حتى يعود إلى منهج الصدر الأول وقوته ، وروحانيته وإيمانه .

أخوة روحية تفبثق منها الوحدة الكاملة في الشعور والمثل ، والمناهج والغايات .

فالمسلمون قرآنهم واحد ورسولهم واحد ، وعباداتهم قامت على النظام والوحدة ، فالصلاة موقوتة بوقت محدد ، وكألا في جماعة منتظمة في صفوف متراسة ، تتجه إلى قبلة واحدة ، وتغني أحاسيسهم في استغراق تعبدي مشترك .

والصيام يبدأ بأذان الفجر ، وينتهي بأذان الغروب ، كأنه تغير عام يحشد الجنود ، جنود الروحانية الإسلامية ، ليبرزهم على النظام والقوة ، والوحدة الكاملة .

والحج مؤتمر المسلمين الأكبر ، تضمهم بقاع مقدمة محددة ، وشعائر مفروضة مشتركة ، ويرمون عن يد واحدة جمرات موجهة إلى رمز عدوهم المشترك .

ومع هذا فقد اختلفوا وتمزقوا ، وأعرضوا عن رسالتهم الخلقية ، وعباداتهم الربانية .

وأخذت هذه الخواطر تراود الحلاج ، فتثورق جفونه ، وتوقظ
أحاسيسه ، وتحرك قواه فأخذ يلقي بنفسه في تيار الحياة، ويتصل بالجمهير،
ويوثق صلاته بطوائف من الجند والقادة والأمراء والزعماء ، اتصالاً ،
لم يرض عنه المتزمتون من شيوخ التصوف ، ولم ترض عنه الخلافة ، ولم
ترض عنه القوى المختلفة التي تحرك بغداد ، وتحكم العراق ، وتهيمن بالتالي
على العالم الإسلامي .

مجاهداته الروحية

ولكن هذه الصورة التي تمثل لنا الحلاج في إهاب رجل الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ، لم تكن كل حياة الحلاج ، ولا كل جهاده ، ولا يمكن لهذه الصورة أن تمثله تمثيلاً كاملاً .

فالحلاج كان ينقلب في حياتين ، ويعمل في حقليْن ، وكان يملك القدرة على المزج بينهما ، كما يملك الطاقة على النهوض بهما معاً .

كان الحلاجُ خلال معركته الإصلاحية ، ودعوته الشعبية ، يسلك طريقه الصوفي ، ويسلكه في عنف وقوة .

لقد انفصم ما بينه وبين شيوخه في الطريق الصوفي ، فلم يتم تدريسه ، ولم يكتمل إعداده ، ولم تهمله الأيدي المدربة المبصرة . أيدي المريين الروحانيين طريق السكال الروحي .

والطريق الصوفي كما يقول المتصوفة ، طريق وعر شائك ، تمتزج فيه البروق الخادعة ، بالأنوار الهادية ، والخواطر المضللة بالهامات المشرقة وفيه الاستدراج الخفي ، والامتحان الرباني ، وفيه العوائق النفسية ، والته القلبي ، والخداع الذوقي ، ولهذا اشترط الصوفية جميعاً وانفقوا على أن الشيخ ضرورة في الطريق لا غنى عنه للسالك المريد . . إنه كالطبيب للبريض ، يعرف المزاج والمرض والدواء ، وكالمهندس للبناء ، إنه النور الذي يرشد ، والمربي الذي يوجه ، والدليل المبصر الذي يفرق ويميز بين الخواطر والإلهامات ، ويملك القدرة على اختصار الطريق ، كما يملك

التجربة الواعية التي ترسم لكل سالك ومريد ما يلائمه ، وما يتفق مع ذوقه واستعداده وطبيعته .

والشرط الأول في الطريق أن يستسلم المريد لشيخه استسلاماً كاملاً بلا اعتراض أو توقف ، وهي دكتاتورية لا تتفق مع طبيعة العلاج الثائرة فتمرد عليها واختصم بشأنها مع شيخه عمر المكي ، وتجادل فيها مع شيخه الجنيد ، ولم يرض الشيوخ عن هذه الروح الثائرة ١٩

واستقل العلاج بنفسه ، وأخذ يسلك الطريق وحده ، وأخذ يجاهد نفسه ويدربها ويكلفها أشق ما في التصوف من تكاليف ، ويفرض عليها أقصى ما في المنهج الروحي من وسائل التجرد والزهد والعبادة والرياضة .

وابتدع لنفسه طريقاً علاجياً استهدف به الكمال القلبي والخلقي ، واتصال روحه بربه اتصال حب وشوق وفناء ، اتصالاً سيعرف في التاريخ باسم « معراج العلاج » وهو معراج ينفرد في تاريخ الحياة الروحية . بخصائص وسمات لم تعرف لسواه .

وكان العلاج في جهاده الروحي ، وفي فضاله الشعبي ، سريع القلب والحركة ، إن في روحه ثورة ، وفي قلبه أهواء متعددة ، وفي وجدانه وأحلامه استشراف وتطلع لأفاق يحسها ويدركها ببصيرته واضحة حيناً ، غامضة أحياناً ٢١

إن روحه لم تظفر بعد بأفقها المستقر المبين ، وإن قلبه لم يصل بعد إلى مقام الثبات والتسكين . ومن هنا جاء التلون في السلوك الذي اتسمت به حياة العلاج في دورها الأول .

يقول إن كثير^(١) . . . وقد كان العلاج يتلون في ملابسه ، فتارة

(١) البداية والنهاية ص ١٣٤ ج ١١ .

يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد في ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس
الاجناد ، ويعاشر أبناء الاغنياء والملوك والقواد ، وقد رآه بعض أصحابه
في ثياب رثة ، ويده ركوة وعكاز وهو سائح ، فقال له : ما هذه الحالة
ياحلاج ؟ فأنشد يقول :

لأن أمسيت في ثوبي عديم لقد بلبا على حر كريم
فلا يغرك أن أبصرك حالا مغيرة عن الحال القديم
فلي نفس ستلتف أو سترمي لعمرك بي إلى أمر جسيم
كان الحلاج يتلبس طريقه إلى أمر عظيم جسيم . طريقه بشقيه الصوفي
والإصلاحي ، وقد اعتزم في إصرار حاسم ، أن يبلغه أو يملك دونه .

الحلاج يستعرض المنهج والرسالة

آمن الحلاج - وهو يشق طريقه إلى الله على أجنحة من رياضاته العنيفة الشاقة ، وأشواقه القلبية المتقدمة - أن هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحي الذي ينشده ، والإصلاح الإيماني الذي يستهدفه .

إنه ليحس بأن في أعماقه قوى ضخمة ، تفور وتتصارع ، وتتهب للحركة والثوب . . . ويشعر بأن هناك في أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تنفجر ينابيع ، وتندفع تيارات وثورات ، يرى بعين خياله وبصيرة أحلامه أنها ستغير وجه الحياة - حياته ، وحياة الناس كافة - !!

لقد آن للعالم الإسلامي أن يبعث من جديد ، على نور من كتاب الله وجهه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه ، وما أروع وأجل أن تتحقق أحلام الحلاج ! ! فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء ، يحبون الله ويحبهم ، ويملاؤون الكون بمواجيدهم وضراعاتهم ، وأنوار إلهاماتهم ، ويحملون الناس على الجادة والطريق الذي اصطفاها الله وارتضاه ؛ فلا تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العيادة ؛ فتتحول الدنيا من غاية للشهوات والصراع وهو الشياطين إلى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

إنها أحلام الحلاج ، التي تملأ عليه آفاقه ، والتي تعيش في أعماقه ، ونبعث الحركة والاضطراب في حياته ، ونرى هل هو أهل لها بعد ؟ وهل يستطيع النهوض بها ، فتتحول الأحلام والأمانى إلى حقائق حية ، تسعى وتعيش وتخلد ؟

وهل تستطيع الصوفية ، وهل يستطيع المنهج الصوفي أن يقدم له القاعدة الصلبة التي يركز عليها ، حتى يثبت من فوقها ؟ لقد جاهد الصوفية أنفسهم في سبيل التصفية والتحلية والتطهر جهاداً خالداً لم تعرف صحف الجهاد النفسى مثيلاً له من قبل ، وفرضوا على أنفسهم مناهج في السلوك ، وآداباً في الطريق ، وواجبات في العبادات ، وأخلاقاً في الحياة ، هي أسمى تصورات الكمال التي عرفها هذا الوجود . . . وامتلات أيديهم بثروة ضخمة من التجارب العملية الكاملة التي قاموا بها وحدهم وهم يصعدون معارج الوصول إلى أفق الحب الإلهي ، وسموات الإلهام والنجوى . . . وتركوا للإنسانية زاداً صالحاً من معارفهم وإلهاماتهم وعطراً زكياً من أورادهم وعباداتهم ، وسيراً وصحفاً لهم تشع هدى ، وترسل نوراً ، وتهدى طريقاً .

ثم عاش الصوفية بعد ذلك حياتهم داخل أنفسهم ، أو داخل حلقات دروسهم ، وساحات مرديهم ، ولم يمدوا أعينهم إلى ساحة الحياة الكبرى . وإلى ميادين جهادها الأخرى .

ولقد آمن الحلاج بأن المنهج الصوفي بكالاته في الأخلاق والعبادات والجهاد الروحي ، وبمواجيده وأذواقه ، ومعارفه في الحب الإلهي ، إنما يمثل وجهاً واحداً من الدعوة الإسلامية ، ووجهاً واحداً من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ إنه يمثل مرحلة الإعداد فحسب !! ثم تأتي في أعقابها مرحلة الكمال ، مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة . وحمل الناس عليها . والدفاع عنها . فلو اكتفى الأنبياء والأولياء والصالحون المصلحون والزعماء بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلوه وآمنوا به إلى الناس ، ولم يجاهدوا في سبيله حتى تملؤا كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته لفسدت الأرض . وامتطأها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف الأرض غروراً . . .

ولقد فسد عصر الحلاج فساداً كبيراً ، وتناذب الناس واختلفوا ،
وتفرقت بهم السبل ، وأغرقتهم في الشهوات والملذات والترف الملوكة . . .
وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ، فقد غدت مسرحاً لعبت
الجوارى والإماء ، ومرتعاً للبرثسين والمقامرين والملاحدين !!

ومع هذا — فها هي بغداد — عاصمة الخلافة — تملأ بالنجوم الكبار
من أعلام التصوف وأئمة : الجنيد — التستري — المكي — الشبلي —
الثوري . . . وها هو العراق — في كل سهل وجبل وقرية — فيه صوفية
عباد أتقياء أصفاء ، لهم مكاتهم وأقدارهم ١١٠٠٠

إن سهل بن عبد الله التستري ليقول : إنه دخل البصرة فوجد بها
أربعة آلاف من العارفين !! البصرة وحدها يعيش بها هذا العدد الضخم
من العارفين الواصلين ، فكيف منهم في بغداد ؟ وفي كل مدينة من مدن العراق ؟
ومع هذا — في بغداد والعراق قد أصبحتا علماً عالمياً على التدهور الخلق ،
والانحلال الديني ، والفساد الاجتماعي . . ماذا فعل الصوفية حيال كل
هذا ؟ ! ! ولهم المكانة ولهم الجاه ، ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ،
والسلطان الشاخ على العامة .

لقد فكر الحلاج في كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن
إليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لبيب ويرق . . . إن الله سبحانه —
كما يقول الحلاج — لن يقبل من الناس عباداتهم إذا اختلت سياستهم ،
وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغي والفساد !! وإن الله سبحانه —
كما يقول الحلاج — لن يقبل من أصحاب الأردية والأكسية دندناتهم
وكلماتهم ما لم ينهضوا للحق ويحجروا به ، ويقدموا دماءهم في ساحة
الاستشهاد والفداء

وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وإن

الحلاج ليهب نفسه ويرصدها لهذه الغاية الكبرى . وإن كان يمسك نفسه حيناً ، ويقلب وجوه الرأي أحياناً ، فليس عن تردد أو ضعف ، إنه يريد أن يستوثق من نفسه ، وأن يطمئن إلى عدته ، هل كملت رياضاته ؟ وهل فضجت مجاهداته ؟ وهل خلص له قلبه ؟ إن قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وإن وجدانه ليصاول تفكيره فيما يجب . . . لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه المنهج الصوفي ، ورصد كل قواه منذ صباه لحب الله وعبادته ، والجهاد في مرضاته ؛ حتى يصل إلى فناء كامل ، تغنى فيه إرادته في إرادة الله ، ونوازع بشرية في كمالات عبادته ، وأهواء نفسه في لذة أنسه وجلال قربه .

وإن هذا الجلال ، وهذا الحب . وهذا الفناء ليكاد يسرقه عن نفسه . وعن رسالته حيناً وحيناً يخيل إليه أنهما ارتبطا واتحدا . وأصبحا شيئاً واحداً . إنها عاصفة من التفكير المزلزل . المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمر يقينى اطمأن إليه اطمئناناً لم يجده عند سواه .

إنه في حاجة إلى خلوة كاملة . يعيشها متحنناً متطهراً ذا كراً قانتاً . خلوة تؤهله أو تدنيه من السكال . وتزوده وتعدده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به في وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل إلى بيت الله المقدس ؛ لينخلو بنفسه في أرض الوحي والإلهام ؛ ليزداد قرباً من ربه وكالاً في نفسه وهما عدته ومعرجه إلى هدفه .

الحلاج في بيت الله

وفارق الحلاج بغداد فجأة إلى مكة المكرمة ، وبعد أن طاف بالبيت العتيق ، وأمتلأت عيناه بالمشاهد التي شهدت خطو الملائكة وجهاد خاتم النبيين ، نذر البقاء عاما للعمرة في حرم البيت المبارك للتطهر والنسك ، والتصفية القلبية والإعداد الروحي .

عاش الحلاج في مكة عاماً كاملاً في صمت مطلق ، وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عاش في — الحجر — لا يستظل تحت سقف ، شتاء ولا صيفاً . عن أبي يعقوب التهرجوري^(١) قال : « دخل الحلاج مكة أول دخلة وجلس في صحن المسجد سنة لم يبرح من موضعه إلا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ، وكان يحمل إليه في كل عشية كوز ماء ، وقرص من أقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعة فيحمل من عنده » .

عاش الحلاج حياته العجبية القاسية الشاقة عاماً كاملاً ، ما هي خواطره ؟ وما هي تأملاته ؟ وما هي القوة التي تزود بها في خلوته ؟ لقد لُزمت كتب التاريخ الصمت حيال هذه الفترة من حياته ، إلا أن المستشرق « ماسنيون » يحاول كماداته أن يلقي الظلال والشبهات ، وأن يفسر حياة الحلاج التفسير الذي يصل به إلى الفكرة التي استقرت عنده وهي أن الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجاً مسيحياً في نفسه ودعوته ، وأنه كان يتشبه بـ « بريم البتول حينا ، وبالسيد المسيح أحيانا ... » يقول ماسنيون : « إن الحلاج في مكة كان يتشبه بـ « بريم ابنة عمران . وأنه كان يهيم نفسه لميلاد كلمة الله فيه » .

(١) ص ٢٦ و ٢٧ أخبار الحلاج ، لعلي بن أنجب الساعى .

إن تأملات الحلاج وأحلامه ، وخواطره ورياضته بمكة ، تصورها لنا أولى كلماته التي نطق بها بعد عام كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من عزلته فتلقيه أتباعه يسألونه عن شأنه ؟ فترجم عن أمره ، بتلك الجملة القصيرة ، المعبرة المصورة لحالته حيث قال :

« لو ألقى بما في قلبي ذرة على الجبال لذابت ، إنه نائر أو عابد من لون جديد ، تلاقى في أثوابه خرقة الصوفية بكسوة الجنديّة ، وامتزجت في قلبه أشواق الحب الإلهي بثورة الإصلاح السياسي ، واجتمعت في روحه طهارة العابدين ورقمهم ببطولات المصلحين وصلاتهم ، وكانت هذه الأمشاج من الصفات المتناقضة تعلوها صفة ثابتة تعطي الحلاج طابعه الدائم .

ذلك هو الوجد الصوفي — الذي كان يأخذه أخذاً عنيفاً ملحاً ، يفنى فيه عن نفسه حيناً ، وعن رسالته أحياناً . ويدفع به زمناً إلى الخلوة القاسية والحرب من الناس ، أو يزعج به قسراً في تيار الحياة ومعاركها . . . ذلك الوجد الصوفي الذي سيبلغ قمته في سنواته الأخيرة ، بل ذلك الوجد الذي سيرك بصماته على تاريخ الحلاج فيملؤه غموضاً واضطراباً ، ويضفي عليه فتنة وخيالاً ساحراً .

تنقلات الحلاج في العالم الإسلامي

غادر الحلاج مكة إلى الأهواز ، ومعركته الباطنية لا تزال مشتعلة ، رغم السلام الظاهري الذي اكتسبه من رياضاته وخلوته .

لقد رسم في عزلته خطوطاً ، وتزود بقوى ، واعتزم أن يدفع بنفسه إلى ساحة الكفاح ... خرج داعياً إلى الله ، مبشراً برسائله ، واتجه بدعوته إلى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال ، وإلى الجنود والقواد ، وجماهير الصوفية ... وقسم الحلاج منهجه إلى خطوط رئيسية : ناحية دينية صوفية ، جوهرها عبادة الله وجهه ، حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يجد الإنسان ربه في أعماق نفسه ؛ وبذلك يصل إلى السكال الروحي والخلق ، وإصلاح الأداة الحكومية الغارقة في الترف والشهوات والانحراف ؛ حتى يستقيم الميزان الموجه لحياة الناس ، ووحدة الأمة الإسلامية التي مزقتها الفلسفات والعصبيات ، حتى تستطيع أن تهض برسالتها ، وتتجمع لديها القوة اللازمة لحمايتها .

وكان الحلاج في دعوته يتجنب التسميات المميزة بين الفرق الدينية ، حتى لا يظن به الجنوح إلى فرقة بذاتها — وهي العقبة الكبرى في وجه كل دعاة الإصلاح — وكانت صيحة الحلاج المدوية هي : أن يعود الناس إلى الأساس الأول ، إلى الإسلام كما جاء ، بحجة بيضاء ، وكما طبق في عهد الرسول توحيداً صافياً وعملاً خالصاً ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التي حجبته عن الجوهر ؛ فالمذاهب — كما يقول — إن هي إلا وسائل يجب اجتيازها إلى روح الإسلام ... يقول العلامة ابن كثير في البداية والنهاية : « كان الحلاج في عبارته حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك » .

وغضب المتزمتون من رجال التصوف ؛ لاندفاع الحلاج في التيار السياسي ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف ، ريثما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول :

وعظم أمر الحلاج في الأهواز ، وفتنت به الجماهير ، ونسبت إليه العجائب ، وتلونت هذه العجائب بخيال العامة ، حتى غدت ضرباً خارقاً لقدرة الإنسان !!

وكان الحلاج - كما يقول الاصطخري - باهر الشخصية ، ساحر الكلمة ، رائع السميت ، محبباً إلى القلوب . أو كما يقول العلم الحديث : فيه استهواء وروحى للجماهير ، .. ثم وسع الحلاج نطاق دعوته ، فارتحل إلى خراسان ، وفي صحبته العشرات من الحواريين ، واستمر - كما يقول ماسنيون^(١) - يدعو ويعظ الجاليات العربية في شرق إيران ، ويثك دعوته في المدن ، ويقيم على الحدود ، ويرابط مع المرابطين في الثغور ، وقضى في ذلك خمس سنوات . ثم يعود إلى الأهواز ، بعد أن ترك دويماً يتردد صده في آفاق خراسان .

ثم يدعو تلميذه العظيم ، الواسع النفوذ - حمد القنأى - إلى الإقامة ببغداد ، فيرحل إليها مع أهله وطائفة كبيرة من المريدين وأتباعه ... ويدخل الحلاج بغداد بعد أن سبقته شهرته وعجائبه ؛ فيحدث في بغداد هزة ، يتردد صدها في البيئات الصوفية والعلمية ترددها في قصور بغداد العالمة وأكواخها الساذجة .

ثم يذهب الحلاج إلى مكة للمرة الثانية مع أربعائة من تلاميذه ، ويعاود الاختلاء والرياضة ، حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر

(١) شخصيات قلقة في الإسلام .

وتحضير الجن ؛ لاعتصامه بقمة جبل « أبي قيس » ، واتقطاعه عن الناس .
ومن مكة يخرج الحلاج إلى رحلته الكبرى في سبيل الدعوة ، يخرج إلى
التركستان والهند حيث يعتنق الإسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقاً ، وصعد في السند من « ملتان » إلى كشمير ، ويمضي
في طريقه صاعداً ناحية الشمال الشرقي حتى « طرقان » مع القوافل الأهوازية
لقد كان الحلاج — كما يقول « ماسنيون » : يفكر في هداية الإنسانية كلها
عبر الأمة الإسلامية .

وعظم أمر الحلاج في بلاد ما وراء النهر والهند والصين ، فكانوا
يكاتبونه (١) من الهند بلقب « المفيت » ، ومن بلاد الترك « بالمقيت » ، ومن
خراسان « بأبي عبد الله الزاهد » ، ومن حورستان « بالشيخ حلاج الأسرار »
وسماه أشياعه ببغداد « بالمصطلم » وسموه في البصرة « المحير » ، وذهبت الدنيا
تردد أحاديثه وقواه السحرية الخارقة ، أوكراماته الباهرة .

يقول صاحب شذورات الذهب (٢) : وبلغ من شأنه أن كان يخرج
الاطعمة في غير وقتها ، والدرهم من الهواء ، ويسمى دراهم القدرة ،
وكان يعرف الكيمياء والطب . . . ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن
السياسة ، وواجبات الوزراء ، مطالباً بإقامة حكومة إسلامية حقاً .
ووزارة تحكم بالعدل بين الناس ، وخلافة كما يقول : شاعرة
بمستويات وظيفتها أمام الله ؛ مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض
دينهم (٣) .

ومن وراء النهر عاد الحلاج إلى مكة ، يدفعه وجد صوفي ، وحنين

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) شخصيات قلقة في الإسلام .

غلاب إلى الخلوه ، وإلى رياضاته العنيفة القاسية ، في أرض النبوة والإلهام ،
وليتزود في عزلته الروحية بقوة إيمانية ، قوة تؤهله لمواجهة الحياة في معركة
بطولية حاسمة .

هناك في بغداد عاصمة الخلافة العباسية حيث الصراع الفكري والديني
مشتعل الأوار في البيئات العلمية ، وحيث الترف والشهوات والفساد يخنق
المجتمع الإسلامي . هنالك كانت معركة الحلاج الكبرى التي سوف يقدم
روحه قرباناً لها . . . وإلى بغداد يعود الحلاج ! ! ليشعل فيها كل شيء ،
وليحترق في أتونها .

الحلاج فى عاصمة الخلافة

وخفق قلب بغداد للنبا العظيم !! لقد جاء الحلاج إليها تسبقه عواصف
مرعدة مذهلة ، من الدعاوى العريضة المتناقضة ، جاء إليها بعد أن طوف
بالأرض ، فلأ آفاقها دويآ ، وأسمع آذانها عجبآ .

فقد ترك الحلاج فى كل بقعة رن فيها خطوه ما يختلف فيه الناس ،
وما يتخاصمون فى أمره ، فما رأى الناس من قبل رجلاه سمته وشخصيته
وقواه وروحانيته !!

رجلا يتصدى لهداية الإنسانية كافة ؛ فيطرق أبواب العالم شرقاً وغرباً ،
مبشراً وداعياً إلى الله سبحانه ، دعوة أساسها وروحها حب الله ، حباً تذب
فيه شهوات الدنيا ، وينطقى لهيها ، وتتضاءل فيه أهواؤها وسحرها ؛ فإذا
بكل ما فيها قبض الريح ، وإذا تاجها ونعيمها وفوزها الأكبر فى الاتصال
بواجب الوجود ومبدعه ، اتصالاً ينير الروح ، ويشعل القلب ، ويوقظ
الحس ؛ فإذا بالإنسان فى تجل عظيم مشرق !! قوة ربانية تملك أسرار
الكون ؛ كما تملك معارج الصعود ، إلى حياة النور والخلود ، وتملك فوق
هذا وذاك القدرة على تحقيق رسالة الإنسان الكامل ، خليفة الله الذى
اصطفى منه كلمه ، وخليفه ، وحبيب .

وفى خلال هذه الدعوة الروحية الربانية لا يفنى الحلاج عن دنياه كما
فنى غيره من الصوفية ، ولم تذهله الإشراقات والمعارج والمحبة الربانية عن
حقيقة الحياة الأرضية ، بل هو يقرع سمع الدنيا بدعوته الإصلاحية ضد
المفسدين فى الأرض من الملوك والأمراء ، ومن يمشى فى مواكبهم من
محترفى الدين والدنيا ، فيطالب بخلافة مؤمنة ، مهتدية تحمل الناس على
الصراط المستقيم .

وحكومة قرآنية ، تشعر بواجبها حيال الله ، شعورها بواجبها حيال الإنسان . وضد المفسدين في الروح والفكر والقلب من علماء الكلام والمنطق والتوحيد ، ومحترفي الجدل الديني ، والحوار اللفظي ، الذين مزقوا دينهم شيعاً ، وأحالوه عوجاً ، بعد أن كان شرعة محكمة ، لا تعرف جدلاً ولا حواراً ، وإنما تعرف عملاً وإيماناً .

وتمتزج شخصية الحلاج بجوهر رسالته ، فيؤثر كلاهما في الآخر ، تأثيراً هوساً ما يضطرب فيه الناس من أمره ، وما يتجادلون حيال سيرته وحقيقة دعوته .

كان الحلاج متوهج النفس ، مشتعل الحس ، جياش القلب ، ثار الوجدان ، رهيف العاطفة ، يملك قوى خارقة ، من المغناطيسية الروحية التي تؤثر في كل شيء يتصل به ، أو يدنو منه .

وكان فوق هذا واسع الخيال ، ساحر البيان ، رائع التصوير ، صادق الشعور ، أخلاه الزهد ، وحلاه النسك وجلاه الحب ، اكتسبته طاعاته ومجاهداته روحاً مشرقاً مشعاً متودداً عطوفاً تندفق منه تيارات ساحرة محببة ، تدنيه من كل قلب ، وتمزجه بكل عاطفة .

يقول المستشرق « نيكلسون » : امتاز الحلاج بأنه عاش في صوفيته تماماً ، عاش في كل لفظ قاله ، وفي كل خاطر مر به ، حتى لقب بمسيح الإسلام ... ويقول العلامة الفرنسي « ماسنيون » إنه حي ما قال ، وقال ما حي ، وعندما قارن بين محي الدين والحلاج قال : « أنا أعتقد أن ابن عربي معرفته أكبر من روحه ، وأن روح الحلاج أكبر من معرفته » .

كان الحلاج روحاً عظيماً ، بل لعله كان أكبر روح في عالم التصوف . يقول علي بن أنجب الساعى : « لقد بلغ من صفاء روحه أنه كان يستشف الغيب من ستر رقيق ، ولقد عزيت إليه نبوءات صادقة ، استرعت أنظار الدنيا » .

وتلك الصفات التي أتم بها الحلاج وطبعت تاريخه وصاغت دعوته ، صفات فيها إغراء ، وفيها استهواء ، حتى لقد فتن بسحر الحلاج الروحي قوم ملأوا الدنيا حوله بالأساطير الملونة المبدعة ، ودقوا طبول الدعوة العالية لخوارقه المذهلة ، حتى جعلوه عليمًا بالغيب ، قادرًا على إحياء الموتى ، مسخرًا لعناصر الطبيعة وجواهرها . . . وهي صفات أيضاً تترك حولها حقدًا غليظاً ، وحسداً مسموماً ، وجحيماً مشتعلاً بالبغيضاء ، فتصدى للحلاج قوم جمعوا كل ما في الدنيا من فجور وفسوق وإلحاد ومروق ، وقذفوا به وجهه ، وسودوا تاريخه ؛ إرضاء لشهوات صدورهم ، وبغضاء نفوسهم .

وبتلك الحالة ، وعلى قرع تلك الطبول دخل الحلاج بغداد ، وكانت بغداد في عصره هي الدنيا كما يقول رجال التاريخ ! ! كان يحمل إليها خراج الأرض ، فتنبض جنباتها بالترف ، وما يدفع إليه الترف من شهوات وفجور ! ! وكان يلتقي فيها تراث الفكر العالمي بموارث الحضارة الإسلامية ، فتتوج آفاقها بكل لون من ألوان الفكر والمعرفة .

كان فيها الماديون على اختلاف مناهجهم ، ومثلهم ، من الفلاسفة العقليين ، إلى المتمردين الملحدين ، وكان فيها الروحانيون على اختلاف أذواقهم من العباد المتصوفين ، إلى المنجمين والمتألهين ، والمتصلين بالأرواح والشياطين .

وتحولت مساجد بغداد ومدارسها وندواتها إلى ساحات للحرب الفكرية ، بين فرق وألوان ومذاهب لا حصر لها . . . وإلى ساحة بغداد ، بل إلى ساحات الصراع المشبوب الأوار دلف الحلاج ، تحيط به حاشيته ، وتسبقه دعوته ! ! . واهتزت عمامة العلماء في أروقته الفكرية ، وتطلعت حلقات الصوفية وأرهفت سمعها ، وترددت همسات في قصر الخلافة ، وتخطفت الجماهير الأحاديث الملونة عن الرجل المبارك ، صانع المعجزة والكرامة ! ! .

ومن ثم رأينا التاريخ يحدثنا عن شيوخ كبار من الـبيـثـات الصوفية والفقهية ، وعن أئمة من أساندة الكلام والتوحيد والفلسفة ، وهم يسعون إلى الخلاص وينتمسون لقاءه والتحدث إليه !! وفي شهوراتهم جدل عنيف . وفي عقولهم تعد غليظ ، وفي قلوبهم تلهف حار ، يحاول أن يتعمق فهم رسالة الداعية الذي تحيط به الرعود والبروق .

وتعددت الاجتماعات ، وتوالى الندوات ، وطال الجدل والحوار ، والتهبت الكلمات ، واختصمت العقول وتفرقت القلوب ، وأصبحت الخصومة سافرة ؛ فقد جاء الخلاص إلى بغداد يحمل منهاجاً ورسالة ، ويندفع في عنف إلى هدف وغاية .

ولم تكن البيئات العلوية في بغداد على استعداد عقلي لأن تسلم للخلاص بمنهجه الصوفي ، بنفسكه ومواجهيده وأذواقه ، ولم تكن المجتمعات الصوفية في بغداد على استعداد نفسي يؤهلها لأن تسهم مع الخلاص في دعوته الإصلاحية ، وأهدافه الثورية .

المنهج الحلاجي

ومن ثم حفظ لنا تاريخ الحلاج - رغم غموضه وتمزقه - مناظرات وجدليات خاض الحلاج غمارها ضد مفكرى عصره وعلماؤه ومتصوفيه ، كما حفظ لنا تراثا حلاجيا يشكل منهجا فكريا متكاملا متناسقا ، له طابعه العلمى وخصائصه الروحية ١١

وهذا المنهج الحلاجي الثقافى : يتسم فى كل جزئية من جزئياته بذلك الوجد الصوفى ، والحب الإلهى ، الذى استأثر بعقل الحلاج وقلبه وروحه .
استثنائاً ملحاً عنيفا .

الحلاج . . . وعلماء الكلام

وعلى ضوء هذا المنهج نستطيع أن نفهم محاولات الحلاج مع علماء الكلام ، في الأمر والإرادة والمشيئة الإلهية ، وفي أفعال العباد وتعلقها بالقضاء والقدر .

فالحلاج يعتمد على التجربة الصوفية المباشرة ، لحل مسألة الصلة بين اللطف الإلهي والقضاء والقدر . . . تلك المشكلة التي ترجع إلى النزاع بين الخير الذي يأمر به الله — الأمر — وبين الشر الذي يتنبأ بوقوعه — الإرادة — ويرضى الحلاج بهذا النزاع بدلا من أن يخيفه ؛ فهو يعلم الأهمية للعلم في الوصول إلى الماهية الإلهية ، بل إن الحب هو الطريق إليها ؛ إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهي هي التي تقربنا من الله ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهي في كل لحظة ؛ لأن الأمر غير مخلوق ، بينما الإرادة مخلوقة . .

وهكذا يضع الحلاج حداً لنقاش متكلمي عصره حول هاتين الكلمتين — الأمر عين الجمع ، والإرادة عين العلم — فكل قلب إذا يشغله السعي وراء الجزاء عن حرمة الأمر ، إن هو إلا مرتزق ، وليس بخادم حق الله .

وقد تبنت « السالمية » هذه التفرقة ونمتها ، مستشهدة على ذلك بموضوع طاسين الأزل — للحلاج ، فلقد كان أمر الله في دعوته إبليس لأن يسجد لأدم أمراً شكيباً ، ولم تكن تلك إرادته ، وإلا لسجد إبليس !! لأن كل ما يريد الله واقع لا محالة . . . ذلك هو موضوع البلاء الذي لا مفر منه للإنسان كي يكون قديساً^(١) .

(١) مقدمة الطواسين — لالسيون

ولهذا يوصى الحلاج المريد بأن يكون مع الحق بحكم ما أوجب ،
ويقول : « من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصي إلى الله فقد
فجر » ..

وأسماء الله سبحانه عند الحلاج من حيث الإدراك أسماء ، ومن حيث
الحق حقيقة . وكان يقول : « لا يجوز لمن يريد غير الله ، أو يذكر غير الله
أن يقول عرف الله . ومن عبد الله لنفسه فإنما يعبد نفسه ، ومن استصحب
كل نساك في الدنيا والآخرة وهو جاهل لا يقرب من الله ابداً .

والصلاة عند الحلاج هي المعراج الذي يصل النفس مباشرة بالله .
وقراءة القرآن عنده إنما تكون بإحساس ومشاهدة ، فكان الله سبحانه
يتلو على لسان القارىء ، أو كأن القارىء يستمع إلى الله سبحانه .

ومن هنا نشأت حالات الوجد العظمى ، التي عرف بها الحلاج عند
السماع . . . والكون عند الحلاج مادي وروحي كالإنسان . والعبادة تخلق
وعيا كونيا .

والإيمان عنده : قول وتصديق وعمل . والولى : هو الدليل الحى على
الله . . . وبذلك وضع الحلاج أول مذهب كلامي فلسفي للصوفية ،
بما سنعرض له عرضاً شاملاً في الفصول القادمة إن شاء الله . وعن الحلاج
تلقت المدرسة — السالمية — فلسفتها الكلامية التي تراها عالية الصوت في
تفسير السلبى .

الحلاج وتفسير القرآن

والمنهج الحلاجي الذي ذكرناه يتجلى بصورة متلاثلة في تفسيره للقرآن وتفهمه لآية... والحلاج تفسيرات تناولت آيات الذكر الحكيم جملة وتفصيلا؛ وهي تفسيرات أصابها ما أصاب تاريخ الحلاج كله، من تمزيق وتبديد.

وبقيت من هذه التفسيرات لمع ترشد إلى المنهج، وتوىء الفكرة. وأبو عبد الرحمن السلمي يدور في تفسيره الصوفي حول نظرات الحلاج في التفسير. كما حفظ لنا العلامة «روربهان البقلي» في تفسيره، عرائس البيان، شذرات من تفسير الحلاج، تقتبس منها نماذج لهذا اللون من التفسير والتفكير.

يقول الحلاج في تفسيره لقوله تعالى: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»: العبد مبتلى بالأمر والنهي، والله في قلبه أسرار تخطر دأماً، فكلما خطر خاطر عرضه على الكتاب فهو طاعة الله، فإن وجد له شفاء وإلا عرضه على السنة، وهي طاعة الرسول، فإن وجد له شفاء وإلا عرضه على سيرة السلف الصالحين، وهو طاعة أولى الأمر.

ويقول في تفسير قوله تعالى: «ألسنت بربكم؟ قالوا بلى»، حينما سأل الأرواح في عالم النرد... لا يعلم أحد من الملائكة المقربين لماذا أظهر الحق الخلق؟ وكيف الابتداء وال انتهاء؟ إذ الألسن ما نطقت، والأعين ما أبصرت، والأذن ما سمعت. كيف أجاب من هو عن الحقائق

غائب ، وإليه آيب . في قوله : « أأست بربكم » .. ؟ فهو المخاطب والمجيب ..
قالوا : بلى ؟ القائل عنكم سواكم ، والمجيب عنكم غيركم فسقطتم أتم ، أو بقی
من لا یزل ، كما لم یزل .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم »
نفوس المؤمنين غالية ، لا تباع ولا تشتري ، ولا تذلل ؛ فلا يملكها سواه .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « فذلکم الله ربکم الحق » - الحق :
هو المقصود بالعبادات ، المصعود إليه بالطاعات ، لا يشهد بنفيه ،
ولا يدرك بسواه . . قال أبو عبد الرحمن السلي : « سئل الحسين بن
منصور : من هو الحق الذي تشيرون إليه ؟ قال : معل الأنام ؛
ولا يعتل . »

وفي تفسير قوله تعالى : « وجعلنا بعضکم لبعض فتنة » ، المحنة لخواص
أوليائه ، والفتنة لعامة الناس . ثم يقول : أبدى الله الأكوان كلها
بقوله : (كن) إهانة لها وتصغيراً ، ليعرف الخلق إهانتها ، فلا يركنوا
إليها ، ويرجعون إلى مبدئها ومنشأها ، فاشتغل الخلق برينة الكون فتركهم
معه ، واختار من خواصه خصوصاً اعتقهم من رق الكون ، فأحياهم به
فلم يجعل للعلل عليهم سيلاً ، ولا للآثار فيهم طريقاً .

ويقول في تفسير قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » ، ما فارق الأكوان
الحق ولا قارنها ، كيف يفارقها وهو موجودها وحافظها ؟ وكيف يقارن
الحدث بالقدم ؟ قوام الكل ، وهو بائن عن الكل . .

وفي تفسير قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » ،
ولا خمسة إلا هو سادسهم » قال : هو معهم علماً وحكماً ، لأنفساً وذاتاً .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » . . احسن الصور : صورة أعتقت من ذل « كن » . . وتولى الحق تصويرها بيده ، ونفخ فيها من روحه ، وألبسها شواهد البعث ، وجلاها بالتعليم ، وأسجد لها الملائكة المقربين ، وأسكنها فى مجاورته ، وزين باطنها بالمعرفة ، وظاهرها بفتون الخدمة ، وخلق آدم على صورته — أى صورته التى صورته عليها — فأحسن صورته .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » أى ما أظهر الله تعالى الملائكة والقلم والروح واللوح . « وما لا تبصرون » ما اختزن من خلقه الذى لم يجر القلم به ، ولم يشعر الملائكة بذلك . وما أظهر الله للخلق من صفاته ، وأراهم من صنعته ، وأبدى لهم من عليه فى جنب ما اختزن عنهم ، كذرة فى جميع الدنيا والآخرة ١١ . ولو أظهر الله تعالى من حقائق ما اختزن لذاب الخلق عن آخرهم فضلا عن حلها . . .

والخلاص يرى أن فى القرآن علم كل شىء ، وعلم القرآن فى الأحرف التى فى أوائل السور . ويقول : إن كل هذه العلوم القرآنية قد أحاط بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وهى للعارفين بحكم الميراث المحمدى ، وهى سر الحكمة والجلال الذى يشرق فى أقوال العارفين من الصوفية ...

الحلاج وأدب السلوك الصوفي

كان الحلاج فوق رسالته الإصلاحية والربانية مريباً ، وأستاذاً صوفياً ، في القصة السامقة ، سلوكاً ومعرفة . ولقد التف حول الحلاج في حياته أكبر مجموعة صوفية ، في تاريخ القرن الثالث الهجري - عصر التصوف الذهبي - حتى ليقول العلامة ابن كثير^(١) : « إنه كان يلزمه في سفره الشاق الطويل أكثر من أربعمائة من صفوة المريدين السالكين » .

وفي كل بقعة في الشرق الإسلامي ، من بغداد إلى أطل الهند تكونت مجموعات حلاجية ، ثم تحولت هذه المجموعات إلى جامعة صوفية ، دانت للحلاج بالزعامة والولاية ، واتخذت منهجه معراجاً وصراطاً .

وقلب التصوف الإيماني ، وروحه المثالي ، ورسالته الخالدة تتجلي مبنية مشرقة في مدرسة (الشيخ - والمريد) .

.. تلك المدرسة المثالية ، التي أنجبت المريدين العالمين ، الذين ابتدعوا سبيلاً في التربية ، وأسلوباً في السلوك ، تخشع حياله ، وتلقى باليدين وهي صاغرة كل مدرسة مهما سمت أدباً ، وكل جامعة مهما عظمت منهجاً !! لقد امتدت تلك الأيدي المتوضئة المؤمنة الملهمة إلى القلب الإنساني فدرسته ، وتعمقت خوافيه ، وجاست خلاله ، وكشفت أسرار ، وأحاطت بنوازه وخوالجه ، فمسحت بنور القرآن فجوره ، وأشعلت بأدب الرسول تقواه ، ثم عرجت بملكاته صعوداً حتى أشهدته تسبيحات الملائ الأعلى ، وإشرافات الأفق الأسنى ، فسجد عند ربه يقنات برضوانه ، وينهل من فيضه وينعم بإلهامه .

ثم مشوا بنور ربهم إلى الروح الإنسانية ، فأطعموها نور الذكر ،

وسقروها رحيق الحب، وأشعلوها بالوجد، وبسطوها بالأنس، وصاحبوها
في مقاماتها وأحوالها من النفس الأمانة إلى النفس اللوامة، ومن المطمئنة
إلى الراضية .

وإن لكل مقام منهجاً ، ولكل حال علماً وذوقاً ، فأسكنوها نعيمًا
مقيمًا ، وجنة عالية . في الأولى قبل الآخرة . . . لقد أحوالوا مثاليات
القرآن ، وأدب النبوة إلى منهج سلوكي تربوي ، أخرج للناس نماذج
بشرية مضيئة ، لم تعرف الإنسانية بعد الرسول والأنبياء من هم أهدي منهم
خلقاً ، أو أزكى نفساً وأتقى قلباً .

وقد أوجدت هذه التربية روحاً صوفياً له طابعه وخصائصه ، ولهذا
الروح هو سر التصوف وأفقه ومنهجه . . . فقد أخذوا دينهم بقوة ، وتميزوا
بعزيمات صاعدة ، فهم أرباب العزائم لا الرخص ، وهم الذين أيقظوا قلوبهم
فلم تتم عن ربهم وهدفهم .

وهم الذين عاشوا في كل حرف من القرآن ، ومع كل خلق من الرسول
فكلماتهم حياتهم وعقيدتهم وجودهم . . . قال صوفي لمحدث : « أخرجوا
زكاة الحديث ! ! قال : وما زكاة الحديث ؟ قال : اعملوا بخمس أحاديث
من كل مائة حديث تحفظونها » . . .

والحلاج لم يستكمل تربيته الصوفية على أيدي المشايخ الكبار ، لقد
انقسم ما بينه وبينهم مبكراً ، فخلق منفرداً في القمم العالية ، واصطلى
وحده التجربة الصوفية كاملة ، وألزم نفسه ألواناً من المجاهدة والرياضة ،
تعتمد فيها القسوة والصرامة ! !

ومن هنا جاءت تلك البروق الشاطحة ، وتلك الحرارة الدافقة ، التي
امتزجت بتعبيرات الحلاج ، وطبعت مواجيدته وألحانه ! ! بل من هنا
جاءت تلك الصلة الكبرى بين الحلاج وربه ، تلك الصلة العالية الصوت
في حياته ، الصلة التي تجعلنا ونحن نقرأ للحلاج نحس برجل يعيش انقاسه
مع مولاه ، فهو أنيسه وجليسه ، وحيبيه ومريه . . .

يقول المستشرق « ماسنيون » ، في مقدمة لكتاب الطواسين : « وليس هناك من متصوف في التاريخ أكثر « عشرة مع الله » من الخلاج الذي ينصل في حديثه معه « أنا » و « أنت » و « نحن » ، وليس هناك من شعر صوفي أشد حرارة وأكثر بعداً عن المادة من شعر الخلاج » .

يقول الخلاج — معبراً عن منهجه في السلوك — : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك ، وهو بعد في السلوك غير واصل ، ويقول : « من صدق مع الله في أخواله فهم عنه كل شيء » ، وفهم عن كل شيء . .

ويقول : — مصوراً للصوفي — « الصوفي يكون مع الله تعالى بحكم ما وجب ، ولا يكون على سره أثر من الأكوان ، ويكون وجداني الذات ، لم يشهده الحق غيره ، فهو أعمى عن الكون . ويكون له مع الحق نسب يحمل به الواردات ، ولا يذكر برؤية الكون غير الحق » .

ذلك هو المنهج الخلاجي ، أو ذلك هو الخلاج الصوفي ! لأنه مع الله بحكم ما أوجب ، مع إرادة الله بحكم ما قضت ، وليس بقلبه أثر من الأكوان ، وهو وجداني الذات ، لا يبصر الكون ، بل إن الكون لا يرى فيه غير الحق — غير الله — ثم إن مع الحق لصلة من الحب والوجد والفناء ، تعينه على تحمل الواردات ، وتذوق الإلهامات ، والقيام بالواجبات .

ونستطيع أن نتذوق مهب الخلاج في آداب السلوك الصوفي ، تلك الآداب التي ألزم مردييه بها ، من ذلك الدستور الذي وضعه لهم ... ولقد حفظ لنا أبو عبد الله السلي — المؤرخ الصوفي الكبير — زبدة طيبة من ذلك الدستور . . .

فالسلي : يعرض لنا أدب المريد ، ثم يقيم الشاهد والدليل من كلمات الخلاج ومذهبه . . . والعلامة « السكلابادي » — في التعرف لمذهب أهل التصوف — قد حفظ لنا جملاً من هذا التراث ، أدرجها تحت قوله : « قال

بعض الكبراء ، لقد كانت محنة الحلاج الهائلة ترهب الكتاب ، وترهب رجال التاريخ ، فتصرفهم عن اسمه ، وعن تراثه !!

يقول أبو عبد الله السلي : «من آدابهم ترك التدبير ، والرجوع إلى حال التسليم ؛ قال أبو الحسين بن منصور : من سلم إلى الله أمره صنع به ، وصنع له ، ومن وجد الله لم يجد معه غيره ، ومن طلب رضا حياه الله بالمسكنون من سره — وهو قوله : «ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً» . . .

ومن آدابهم : دوام التوبة عما عملوا وما لم يعملوا مما جرى عليهم من الغفلات ، كذلك حكى عن الحسين بن منصور أنه قال : التوبة مما لا تعلم تبعثك على التوبة مما تعلم . والشكر على ما لا تعلم يبعثك على الشكر على ما تعلم ؛ لأنه حرام على العبد الحركة والسكون إلا بأمر يؤديه إلى أمر الله .

ومن آدابهم : الحضور في وقت الذكر ، ومجاوبته الذكر على الغفلة ؛ لذلك قال ابن منصور . من ذكر الله وهو يشاهد غيره لا يزداد منه إلا بعداً ، ويقسو قلبه ، ويكون مستدرجاً لا يهتدى .

ومن آدابهم : ترك التدبير ، والسعي في طلب الرزق ، والسكون في كل الأصول إلى مسوق القضاء وضمان الحق ؛ كما قال الحسين بن منصور : من أراد أن يتدقق شيئاً من هذه الأحوال فلينزل نفسه إحدى منازل ثلاث : إما أن يكون كما كان في بطن أمه — مديراً غير مدير ، مرزوقاً من حيث لا يعلم — أو كما يكون في قبره ، أو كما يكون في يوم القيامة ، . . . وقال أيضاً : المتوكل رزقه من حيث لا يعلم بغير حساب ، ولا يكون عليه في سؤال . . .

ومن آدابهم : ترك لفظ «أنا» و«نحن» و«لى» وما أشبه ذلك ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استأذن عليه رجل فقال : من ذا ؟ فقال . أنا — أنا — فكره ذلك رسول الله . . . وحكى عن الحسين ابن منصور أنه قال : إذا قال العبد «أنا» قال الله تعالى : بل «أنا» وإذا

قال العبد : لا بل أنت يا مولاي ، قال المولى : بل أنت يا عبدى ؛ فيكون مراده مراد الله فيه . . .

ومن آدابهم : العمل فى الوقوف على ما ىرد عليهم من الأحوال ؛ حكى عن الحسين بن منصور أنه قال : حفظك أنفاسك وأوقاتك وساعاتك وما هو بك ، وما أنت فيه ، فن عرف من أين جاء ، عرف إلى أين يذهب . ومن علم ما ىراد منه علم ما له ، ومن علم ما عليه علم ما معه . ومن لم يعلم من أين أتى وأين هو وكيف هو ولن هو فذاك ممن لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم ، ويظن أنه يعلم . .

ومن آدابهم : فى معرفة الدواعى ؛ قال الحسين بن منصور : داعى الإيمان يدعو إلى الرشد . وداعى الإسلام يدعو إلى الإطلاق ، وداعى الإحسان يدعو إلى المشاهدة ، وداعى الفهم يدعو إلى الزيادة ، وداعى العقل يدعو إلى المذاق ، وداعى العلم يدعو إلى السماع ، وداعى المعرفة يدعو إلى الروح والراحة ، وداعى التوكل يدعو إلى الثقة ، وداعى الخوف يدعو إلى الارتفاع ، وداعى الرجاء يدعو إلى الطمأنينة ، وداعى المحبة يدعو إلى الشوق ، وداعى الشوق يدعو إلى الوله ، وداعى الوله يدعو إلى الله ، وغاب من لم يكن له داعية من هذه الدواعى !! أولئك من الذين أهملوا فى مفاوز التحير ، ومن لا يبالى الله بهم .

الحلاج والتصوف

كانت حياة الحلاج وما انبثق منها من إشعاعات وإشراقات ، وما ابتدعت من مناهج في التفكير والتأمل والروحانيات ، كانت كما يقول — نيكلسون — : لحظة جوهريّة في تاريخ التصوف الإسلامي :

كانت حياته ، من نقاط التحول والتطور في الأفق الصوفي ، ومن مطالع النماء والخصوبة في التفكير الروحي ، وإلى الحلاج ترجع الأصول الكبرى لذلك التراث الإسلامي العالمي ، الذي شكل في محيط الفكر الصوفي ، أعظم القوى الروحية الإيمانية التي عرفها تاريخ الإنسان .

والتصوف عند الحلاج ، هو انتساب الإنسان إلى الله سبحانه ، لا إلى هذا العالم المادى الحيوانى ، هو ارتفاع الإنسان إلى الله في سفر طويل هائل ، لا تقدر عليه إلا عزيمات الرجال الكبار ، المصطفين الأحرار .

سفر تقنى فيه الصفات البشرية ، في الصفات الإلهية ، فناء طاعة وعبودية ، وحب ووجد ، وذوق وشوق .

ويقسم الحلاج هذا السفر الطويل إلى أربع رحلات ، تبندى أولاهها بالمعرفة وتنتهى بالفناء ، والثانية تبدأ أنوارها وإلهاماتها ، حينما يعقب الفناء البقاء ، وفي الثالثة ، يوجه الإنسان الكامل اهتمامه لمخلوقات الله مرشداً وهادياً .

والرابعة وما أدراك ما الرابعة ١١١ قفة سامقة مشرقة ، يخلق الإنسان في آفاقها وقد غمرته الصفات الربانية ، والأنوار الإلهية ، فيصبح مرآة تنجلي فيها حقائق الكون وأسراره ، وهو موقف لا مجال للحديث عنه ، وحسبنا أن نوحى هنا إلى كلمة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي :

« ليس في مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية ما في هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا في ممارستها . »

ومن أراد فقهاً أكبر ، فليتأمل قول سيد المرسلين في حديث الإسراء :
انعكس بصرى في بصيرتى ، فرأيت من ليس كمثل شىء ، أى رآه بالحاسة
القلبية الروحية .

يقول الحلاج : « أسماء الله التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك ،
وهو بعد في السلوك غير واصل ، (١) . »

ويقول : « من صدق مع الله في أحواله ، فهم عنه كل شىء ، وفهم عن
كل شىء ، (٢) . »

ومن هذا الأفق قول الشبلى للجنيذ : ما رأيك ، فى من الحق نعته ،
حالا ومقاماً ؟ فقال : هيات يا أبابكر ، بينك وبين أكار الطبقة ألف طبقة ،
فى أولها ذهب الإسم ، - أى لا يوجد أنا أبداً -

ولقد حمل الحلاج أمانة المعرفة الصوفية العليا وعاشها بروحه وقلبه
وحسه ، وقدم دمه فداء لها بطولية أسطورية لا يزال شعاعها وإلهامها يومض
عبر التاريخ .

كانت تجربة الحلاج الصوفية من أصدق وأخلص ما عرف تاريخ
التصوف ، وهذا سر ما فيها من عمق ، ومن حرارة ، ومن إلهام .

لقد صعد فى معارجها بجناح جبار من أجنحة الحب والوجد ، ووهبها
كل ذرات روحه وهتافات قلبه ، وأمانى حسه ، وحمل قيثارته ليهب للخلود ،
إلهامات حبه ومعرفته وتجربته .

(١) الطواصين طبع ماستيون صفحة ٩٢

(٢) « د د د د د » ٩٣

يقول الحلاج مصوراً لجنبه ووجده :

الله يعلم ما في النفس جارحة إلا وذكرك فيها نيل ما فيها
ولا تنفست إلا كنت في نفسي تجرى بك الروح مني في مجاريها
إذا كانت العين مذفارتها نظرت إلى سواك تخافتها ما أقسها
أو كانت النفس بعد البعد آلفة خلفاً عداك فلا نالت أمانها

ثم يهتف ، وقد برح به الهوى ، واشتعل قلبه بالوجد ، وهامت روحه
بأنوار القرب ، وسكرت أحاسيسه بإشرافات الأنس ، حتى تفجرت ألحاناً
وأنغاماً بحبه العلوى المقدس (١) .

أباحث دمي إذ باح قلبي بحبها وحل لها في حكمها ما استحلكت
وما كنت ممن يظهر السر إنما عروس هواها في ضميري تجلكت
فألقت على سري أشعة نورها فلاحت لجلاسي خفايا طويتي
فإن كنت في سكري شطحت فإني حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت
ومن عجب أن الذين أحبهم - وقد أعلقوا أيدي الهوى بأعنة -
سقوني وقالوا لا تقنى ولوسقوا جبال حنين ما سقوني لفنت

لقد توغل في معراج السلوك ففنى عن كل ما سوى الله سبحانه ،
وتطهرت روحه وبرئت من كل ما لا ينتسب إليه جل جلاله ، فصارت حال
فناء كامل عن وجود السوى ، وشهود السوى ، وعبادة السوى ، فلم يصبر
على شاهد من جمال وجلال فهتف : (٢) .

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأفئاسي

(١) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون .

(٢) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون .

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم وإلا وأنت حديثى بين جلاسى
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً إلا وأنت بقلبي بين وسواسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك في الكاس
ولو قدرت على الإتيان جئكم سعيأعلى الوجه أومشياً على الراس
مالى والناس كم يلحقونى سفها دينى لنفسى ودين الناس للناس

ما للحلاج والناس ؟ لقد سما فوق التراب والطين ، وتطلع إلى مشارق
الروح ، ورب الأرباب .

ولنستمع إليه في تلك الضراعة المؤمنة المحبة الملهمة وهو يناجى حبيبه
الأكبر وموجودة الأعظم :

« . . . عن ابن الحداد المصرى قال : (١) خرجت في ليلة مقمرة إلى
قبر أحد بن حنبل رحمه الله ، فرأيت هناك من بعيد رجلاً قائماً مستقبلاً
القبلة فدنوت منه من غير أن يعلم ، فإذا هو الحسين بن منصور وهو
يبكى ويقول :

يا من أسكرنى بحبه ، وحيرنى فى ميادين قربه ، أنت المنفرد بالقدم ،
والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق ، قيامك بالعدل لا بالاعتدال ، وبعدك
بالعزل لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم لا بالانتقال ، وغيبتك بالاحتجاب
لا بالارتجال ، فلا شئ فوقك فيظلك ، ولا شئ تحتك فيقلك ، ولا أمامك
شئ فيحدك ، ولا وراءك شئ فيدركك . . أسألك بحرمة هذه
الترب المقبولة ، والمراتب المستولة ، ألا لاتردنى إلى بعد ما اختطفتنى
منى ، ولا تترين نفسى بعد ما حجبتها عنى ، وأكثر أعدائى فى بلادك ،
والقائمين لقتلى من عبادك .

(١) أخبار الملاح من ١٤ و ١٥ .

فلما أحس بي التفت وضحك في وجهي ورجع وقال لي : يا أبا الحسن
هذا الذي أنا فيه أول مقام المريدين ، ثم زعق ثلاث زعقات وسقط وسال
الدم من حلقه ، وأشار إلى بكفه أن أذهب فذهبت وتركته ، فلما أصبحت
رأيت في جامع المنصور فأخذ يدي ومال بي إلى زاوية وقال : « بالله عليك
لا تعلم أحدا بما رأيت البارحة » .

صلة الحلاج بالله

هذا الحلاج المحب الفاني، العابد المثالي، السابح في وجده، المحترق في تجربته ، المشوق في قلبه ، الذي ملأ الدنيا بضجيج ضراعاته ومواجيده ، قد امتلأت صحف التاريخ بالهاويل والأباطيل ، حول حبه وعقيدته ، وحول إيمانه وصلته بربه ٢١١

وصفوه بأنه حلولي ينادى بالحلول ، ويتخذ الحب والفناء معراجاً لغايته ، وتنادوا بأنه اتحادى ، يحاول رياضاته ومجاهداته وشطحاته ، أن يتحد بموجده في تجربة مهمة غامضة ٢١١ وأنه اتخذ من الوجد والنشوة عند السماع والاستغراق سبيلاً إلى هدفه ، حتى أصبح في سكره وسبحاته يقول دعاوى عريضة . . أنا عوضاً عن هو ٢١١ تأليهاً لنفسه وللإنسان المجتبي المختار الكامل ، الذي يجد في ذاته حقيقة . . صورة الله ٢١١

فهل كان الحلاج كما قالوا؟ وهل كان الحلاج كما وصفوا؟ لنمشي معه خطوات في مناجاته لربه ، وخطوات في حديثه عن صلة الإنسان بخالقه . قال أحمد بن فاتك : قال الحلاج :^(١) من ظن أن الألوهية تتمزج بالبشرية ؛ أو البشرية تتمزج بالألوهية فقد كفر ، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء ، وكيف يتصور الشبه بين القديم والحديث ، ومن زعم أن البارئ في مكان ، أو على مكان ، أو متصل بمكان ، أو يتصور على الضمير ، أو يتخايل في الأوهام ، أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك . .

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة س ٢٨ و ٢٩ .

يخرج الخبء فى السموات والأرض — صاح صيحة عظيمة وقال : هذم
صيحة الجاهل به . .

ومن الكلم الذى تخفق له القلوب ، ويشع منه النور ، تلك المناجاة
الحلاجية :

« . . . إلهى وإله الموجودات والمعقولات والمحسوسات ، يا واهب
العقول والنفوس ، ومخترع الأركان والأصول ، يا واجب الوجود ،
ومفيض الجود ، يا جاعل القلوب والأرواح ، يا فاعل الصور والأشباح ،
يانور الأنوار ، ومدبر كل الدوار ، أنت الأول الذى لا أول قبلك ،
وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك ، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك ،
والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك .

اللهم خلصنا من العوائق الدنية الجسمية ، ونجنا من العوائق الردية
الظلمانية ، وأرسل على أرواحنا شوارف آثارك ، وأفض على نفوسنا
بوارق أنوارك .

العقل قطرة من قطرات بحار ملكوتك ، والنفس شعلة من شعلات
جبروتك ، ذاتك ذات فياضة تفيض منها جواهر روحانية ، لا متمكنة
ولا متحيزة ، لا متصلة ولا منفصلة ، مبرأة عن الأحياز والآين ، معرأة
عن الوصل والبين ، فسبحان الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تمتلئه الأفكار ،
لك الحمد والثناء ، ومنك المنع والعطاء ، ولك الجود والبقاء ، فسبحان الذى
فى يده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون . .

: قال ابن سودكين راوياً عن شيخه : رأيت الحلاج فى هذا التجلى فقلت
له يا حلاج : هل تصيح عندك عليه له واشرت ، فتبسم وقال لى : أريد
قول القائل : يا علة الملل ؟ ويا قديم لم يزل ؟ قلت له نعم ، قال : هذه
قولة جاهل ، أعلم أن الله تعالى يخلق الملل وليس بعلة ، كيف يقبل العلية .

من كان ولا شيء معه ، وأوجد من لا شيء ، وهو الآن كما كان ، ولا شيء .
جل وتعالى .

لو كان علة لا ترتبط ، ولو ارتبط لم يصح له السكال ، تعالى الله عما يقول
الظالمون علواً كبيراً !!! قلت له هكذا أعرفه ، قال : هكذا ينبغي أن
يعرف فائت .

قال ابن سودكين : سمعت شيخى يقول فى أثناء شرحه لهذا التجلى :
لما اجتمعت بالحلاج رحمه الله فى هذا التجلى وسألته عن العلية ، هل تصح
عنده أم لا ؟ فقال : هى قولة جاهل ، يعنى أرسطو^(١) .

ويقول الحلاج واصفاً للمتحققين بالله فى وجودهم : « إن الله عباداً
اختارهم من خلقه ، واصطفاهم لنفسه ، وانتخبهم لسهه ، وأطلعهم على
لطيف حكمته ، وخزون علمه ، أفناهم عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ،
ولم يردم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم ، ولم يحوجهم إلى الرسوم
من حكمة الحكماء ، بل كان هو لسانهم الذى به ينطقون ، وبصرهم الذى
به يبصرون ، وأسماعهم التى بها يسمعون ، وأيديهم التى بها يبطشون ،
وقلوبهم التى بها يتفكرون .

بان عن حلول فى ذواتهم ، فأبدى الأشياء فيما بينه وبينهم ، فهر كل
موجود ، وغمر كل محدود ، وأفنى كل معهود ، ظهر لأهل صفوته ، ولم
يجعل للعلم إلى كيفية ذلك سبيلا ، ولا إلى بحث ذلك تمثيلا .

ومن السكلم الطيب الذى يصعد فى معارج النور إلى مقام الإلهام قول
الحلاج :

« من عرفه ما وصفه ، ومن وصفه ما عرفه ، عنت الوجوه لعظمة
كبريائه فى أرضه وسمائه ، وأنست قلوب أوليائه بشهود جلاله وجماله

(١) أخبار الحلاج طبع باريس .

وبهائه ، وكلت المقاول عن شكر آلائه وأفضاله ونعمائه ، وقصرت
المعارف عن ذاته وصفاته وأسمائه ، وحارت العقول في نزوله وارتفاعه
واستوائه !!!

فقوم جحدوا وألحدوا ، وقوم أشركوا وعددوا ، وقوم أنكروا
الصفات فعطلوا وبطلوا ، وقوم أثبتوها ولكن شبهوا وشكوا .

ولم يصب شاكلة الحق إلا من آمن بالذات والصفات ، وكفر
باللات والآلات ، ولازم التوحيد والتنزيه ، وأثبت الصفة ونفى التحليل
والتشبيه .

صلته القوية بالله

وغشى مع الحلاج خطوات في آفاقه الذوقية ، وفي مواجهته وحبه للذات الإلهية ، وفي تلك المجالات الروحية التي ابتدعها حول صلات العبد الولي المختار ، بمفيض الوجود ومبدعه وملهمه .

وصلة الحلاج بالله سبحانه ، تدور على قطبين : الحب الواله القوى الغلاب المدهل ، والفناء في هذا الحب فناء شاملا يذوب فيه كل شيء مادي دنيوي ويحترق ليخلد .

ثم مرحلة السير في هذا الحب ، ومجالات هذا السير الروحية ، بما فيها من إلهامات وتجليات ، ومواجهيد وأشواق وحيرة ودهشة وعذاب . والمحبة هنا في عذاب ملهم ، يعذب في بحثه عن مولاه ، ويعذب في حبه له ، ويعذب في حيرته حيال جبروته وآياته .

والعذاب في الحب الإلهي أكبر خير يفيضه الله سبحانه على عبده ووليه المحبوب .

وإن لله سبحانه لنظرات وإشراقات وزيارات للقلب المحب المعذب المحترق ، زيارات تهب ولها مقدساً ، يعبه هجران يدفع إلى دهشة مخلقة .

ومن كل هذه الانفعالات تنبثق مواجهيد المعرفة العليا ، وتسيجات الولاية العظمى ، وينبثق فوق هذا وذاك في قلب المحب ، فيض إلهي يعبر عن الإرادات الإلهية ، ويقتبس من نورها وهداها .

وروح المحب الولي ، هو وحده الذي يظفر بهذا الفيض الإلهي ، لاعت طريق الحلول التحيزي ، بل بوساطة الفيض النوراني الذي يرفع أرواح الأولياء المحبين إلى المراتب القدسية .

وخلال هذا الفيض أو هذا الإتصال ، تحدث الجذبة الروحية التي تصورها لنا تلك المناجاة المشعة المستمرة بين روح الحب ومحبوبه الأسمى الذي تشعر بوجوده في أعماقها .

وحينئذ تتوالى حضرات الروح وترتفع إلى مولاها بكل آلامها وآمالها وأشواقها في لغة فوق لغة الألسن ، وفي تصوير لا يمت إلى العلائق الدنيوية بصلة أو نسب .

يقول الحلاج :

« أعلم أن العبد إذا وجد ربه فقد أثبت نفسه ، ومن أثبت نفسه فقد أتى بالشرك الخفي ، وإنما الله تعالى هو الذي وحد نفسه على لسان من يشاء من خلقه ، : — وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى —

والذين لا يستطيعون متابعة مثل هذا الروح في عروجه وسلوكه وجهه وعذابه وتجربته ، لا يستطيعون أن ينكروا أنها محاولة في المعرفة الذوقية ، وفي الحب والإيمان اليقيني ، ليست أقل شأنًا في تاريخ العقل الإنساني من مسلك الفلاسفة ، ومنهج المتكلمين .

يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي : « إذا كان وجود الخالق ووجود المخلوق واحداً ، فلا معنى لقيام حوار العشق بينه وبين الله » .

وهذه آية الآيات على نقي الرحلة ، ونقي الحلول في منهج الحب الإلهي الصوفي .

والحلاج من أكبر من تغنوا بالحب الإلهي ، ولعله أكبرهم عاطفة ، وأشدهم وجداً وولها .

يقول الحلاج : « إن المسافة بين النفس وبين الله تتوقف في مقدارها على صفة العشق الإلهي » .

ويقول : « إن شهادة الحمد هي شهادة حب ، وإن القلب الذي يعرف الحب لا يموت أبداً » .

- ۸۲ -

أريدك لا أريدك للشواب ولكني أريدك للعقاب
فكل ما ترى قد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب^(١)
يقول ابن الخطيب ، في تاريخ بغداد : « إن ابن عطاء لما سمع هذا
الشعر قال : هذا مما يتزايد به عذاب الشغف ، وهيام الكلف ، واحترق
الأسف ، وشغف الحب ، فإذا صفا ووفقا ، علا إلى مشرب عذب ، وهطل
من الحق دائم سكب » .

والحب لذة لا يعرفها إلا الصفوة من المحبين .

مكانك من قلبي هو القلب كله فليس لخلق في مكانك موضع
وحطتك وروحي بين جلدي وأعظمي فكيف تراني إن فقدتك أصنع^(٢)
ونحن ندنو رويداً من فلسفة الحلاج العليا في الحب الإلهي .

وأى أرض تغلوا منك حتى تعالوا يطلبونك من السماء
ترام ينظرون إليك جهرأ وهم لا يبصرون من العما^(٣)
إنه كما يقول المستشرق — دى يور — يحاول أن يتذوق بروحه ما يحاول
المتكلمون والفلاسفة أن يصلوا إليه بالنظر العقلي .

ولأنه للحب العالى . الحب الذى تعجز الكلمات عن تصويره أو كما يقول
« سحنون » ، لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه ولا شيء أرق من المحبة
فيما يعبر عنها .

يقول الحلاج :

لى حبيب أزور فى الخلوات حاضر غائب عن اللحظات
ما ترانى أصغى إليه يسمع كى أعى ما يقول من كلمات

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٧

(٢) « د د د د » ٣

(٣) « د د د د » ١

كلمات من غير شكل ولا نطق ولا مثل نعمة الأصوات
فكأنى مخاطب كنت إياها على خاطري بذاتي لذاتي
حاضر غائب قريب بعيد وهو لم تحوه رسوم الصفات
هو أدنى من الضمير إلى الوجود وأخفى من لائح الخطرات^(١)

ومن الكلم المضيء الذى يكشف عن منهج العلاج وإيمانه الذوق ،
تلك الدراسة التحليلية الرائعة التى أدارها العلاج حول كيفية معرفة
الإنسان لربه وخالقه .

قال الطواسين^(٢) وهى أدق وأعمق ما انفرجت عنه الأقلام :

... من قال عرفته بفقدى ، فالمفقود كيف يعرف الموجود ، ومن
قال عرفته بوجودى ، فقد يمان لا يكونان .

ومن قال عرفته حين جهلته فالجهل حجاب ، والمعرفة وراء الحجاب
لا حقيقة لها .

ومن قال عرفته بالإسم ، فالإسم لا يفارق المسمى ، لأنه ليس بمخلوق .
ومن قال عرفته به فقد أشار إلى معروفين ؟ ومن قال عرفته بصفته ،
فقد اكتفى بالصانع دون الصانع ، ومن قال عرفته بالعجز عن معرفته
فالعجز منقطع ، والمنقطع كيف يدرك المعروف .

ومن قال كما عرفنى عرفته ، فقد أشار إلى العلم فرجع إلى المعلوم ، والمعلوم
يفارق الذات ، ومن فارق الذات كيف يدرك الذات .

ومن قال عرفته كما وصف نفسه ، فقد قنع بالخبر دون الأثر .

ومن قال عرفته على حدين ، فالمعروف شيء واحد لا يتجزأ
ولا يتبعض ؟

(١) ديوان العلاج مقطوعة رقم ١١

(٢) الطواسين ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣

ومن قال : المعروف عرف نفسه فقد أقر بأن العارف في البين متكلف به ، لأن المعروف لم يزل كان عارفاً بنفسه ، يا عجباً ممن لا يعرف شعره من بدنه ، كيف تنبت سوداء ، أم بيضاء ، كيف يعرف مكون الأشياء .

من لا يعرف الجمل والمفصل ، ولا يعرف الآخر والأول ، والتصاريف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من لم يزل .

سبحان من حجهم بالإسم والرسم والوسم ، حجهم بالقال والحال والكمال والجلال ، عن الذي لم يزل ولا يزال .

القلب مضغة جوفانية ، فالمعرفة لا تستقر فيها ، لأنها ربانية

من قال عرفته على الحقيقة ، فقد جعل وجوده أعظم من وجود المعروف ، لأن من عرف شيئاً على الحقيقة فقد صار أقوى من معروفة حين عرفه .

ويقول الخلاج عن الخواص العارفين :

« فالخواص عباده الذين محام عن شواهدهم ، وصانهم عن أسباب الفرقة ، باستهلاكهم في شهوده ، واستغراقهم في وجوده ، فأى سبيل للشيطان إليهم ، وأى يد للعدو عليهم ، ومن أشده الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم معترفاً في ثقة التقدير ، لم يكن نهياً للاغيار ، فمضى يكون للغير عليه تسلط » .

الحلاج وأعلام التصوف فى عصره

ومن صلة الحلاج بالله ، تكونت فلسفته الذوقية والإيمانية ، التى عرفت فى التاريخ بالحلاجية ، تلك الفلسفة التى طبعت التصوف فى عصره الذهبى - عصر الحلاج - بطابعها ، والتى غدت كما يقول - نيكلسون - الراية التى تأتمم بها العصور التى تعاقبت من بعده ، والتى جعلت رجال الفكر الأوروبى ، يطلقون على الحلاج لقب « المفتى » فى الأمور الصوفية ، كما يقول العلامة - لينتر -

ومن صلة الحلاج بالله ، انبثقت شخصية الحلاج ، تلك الشخصية التى تلاقى فيها ، العملاقية الجبارة الرهيبة ، بالروحانية المشعة الحبيبة .
تلك الشخصية التى شكلت وخطب فى التصوف الإسلامى أروع آياته ، وأخلد مواقفه .

وشخصية الحلاج عندى من ألباز التاريخ ، ومن مواقف العقول .

فهى شخصية فى ملاحمها العقلية والإيمانية ، عمق يندفع جباراً إلى أغوار ليس السهل على الباحث أن يلاحقها فى اندفاعها ، وأن يتابعها فى مسالكها .

وفى آفاقها الذوقية والخلقية ، انفساح وشمول تقصر أجنحه الدارسين عن الدنو منها ، والإمساك بآثارها .

إن الحلاج يفهمه القلب ، أكثر مما يحيط به العقل ، ويدركه الحس ، ويدنو منه الوجدان ، أكثر مما يحلله الفكر والبيان .

لأنه في حاجة إلى أن ترتفع بأذواقنا ومواجيدنا ، وأن نتلصق بأرواحنا وأشواقنا ، الطريق الذي نطل من نوافذه على أسرار ذلك الروح الكبير الذي حاول في عظمة شاهقة ، أن يكون صورة الولي الكامل ، المعبر عن الله .

والذي حاول في بطولة خارقة ، أن يكون الشهيد الذي يكتب بدمه آية الفداء لحبه وعقيدته .

الشهيد الذي وقف على آلة صلبة ، يتحدى الدنيا فلما قطعت أعضاؤه ، وتدفق دمه ، أخذ يتوضأ بهذا الدم ، فلما سئل ماذا تفعل ، قال : « ركعتان في العشق لا يصح وضوءهما إلا بالدم » .

ولسنا هنا بصدد تحليل تلك الشخصية الخارقة ، فلها مكانه من تلك الدراسة .

ولإننا نقدم لمحات ، ترشد وتؤمى إلى شخصية الحلاج ، وتلقى شعاعاً من الضوء على أسرارها .

وتلك اللمحات التي نقصدها ، هي موقف أعلام التصوف الإسلامي في عصر الحلاج ؟ وموقف الحلاج منهم .

يقول المستشرق - الفردفون كريمر - : « فالكل مجمعون على أنه كان على رأس فرقة كبيرة ، وأنه كان له أتباع كثيرون ، أعجبوا به ، واتخذوه إماماً ومرشداً^(١) .

ويذكر لنا ماسنيون^(٢) : أن كثيراً من الأمراء ، وقواد الجيش ،

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه لينكلسون ص ١٣٠

(٢) شخصيات قلقة في الإسلام .

وعظماء الدولة العباسية ، وأعلام المعتزلة ، وفقهاء الخنابلة ، وصفوة من المفكرين والمصلحين ، ومع كل هؤلاء جمهرة كبيرة من الناس ، كانوا جميعاً من أتباع الحلاج ، ومن تلاميذه ، ومن المؤمنين بقداسته وولايته ، ودعوته الإصلاحية .

ومع هذا كله ، فإن عدداً من أعلام التصوف الإسلامى فى عصره ، قد خاصمه ولم ينصره فى أهدافه وصيحاته ، ولم يسانه فى محنته واستشهاده . لقد جاء الحلاج ليضيف جديداً إلى التصوف الإسلامى ، فى صلته بالله ، وفى صلاته بالحياة .

لقد جاء الحلاج لا ليكون صورة مكررة من الناس أو من العلماء ، أو سطوراً متألثة فى كتب التاريخ بجانب السطور التى خطها المفكرون أو العابدون .

جاء ليكون كتاباً وأمة ، جاء ليقيم منهاجاً ، ويرسم طريقاً ، ويفتح أفقاً ، ويجعل من نفسه بعد هذا ، صورة صادقة معبرة وقائمة بمنهجه وطريقه وأفقه .

جاء ليصنع من تاريخه معالم وصوراً ، تهتدى بها الإنسانية ، فى سيرها المضى . إلى الله ، وفى جهادها العنيف للكمال والتسامى .

كان الحلاج ينشد فى المعرفة ، أن يظفر الصوفى ، بحظ من الفيض الإلهى ، ليعبر دائماً عن الإرادة الإلهية .

فإذا عبر عنها ارتفع إلى أفقها وقداستها ، فأصبح قوله ، صورة إيمان فى دنياه ودينه .

ومن هنا جاءت عظمة العقيدة الحلاجية ، التى أخذت كل شىء بقوة

وعزم وبقداسة ، ولم تقبل أبداً ، تساهلاً ، أو تردداً ، أو تقيّة .

يقول الحلاج : « الواجب على أولياء الله ، أن يتوجهوا إلى الله وحده ، ويتحققوا بمعنى المبودية الكاملة ، ويطيعوا أمره مهما كلفهم ذلك ، من عنث وشقاء » .

والولاية عند الحلاج : تبلغ كمالها عن طريق الابتلاء واحتمال الألم .
وتبلغ جلالها بالجهاد والتضحية .

فالصوفي المحب ، هو الذى وهب نفسه لله . وصبر على ابتلائه في دنياه ، صبره على امتحانه في حبه وإيمانه .

يقول الكلابلاباذي : « ١ - سمعت بعض مشايخنا يقول : سمعت محمد بن سعد يقول : خدمت أبا المغيث - الحلاج - عشرين سنة ، فما رأيت أسف على شيء فاته ، أو طلب شيئاً فقدته » .

ويقول : « ٢ - وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام على جنبه ، وكان يقوم الليل . وإذا غلبته عينه ، قعد ووضع جبينه على ركبته فيغفو غفوة ، ف قيل له : ارفق بنفسك ا فقال : والله ما رفق الرفيق بي رفقاَ فرحت به ، أما سمعت سيد المرسلين يقول : أشد الناس بلاء ، الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

ويقول : « ٣ - سمعت بعض أصحابنا ، يقول : سمعت بعض الكبراء - الحلاج - يقول : ربما أغفو غفوة وأنا دى : أتمام عني ؟ إن نمت عني ، لأضربنك بالسباط » .

والصوفي المحب لله ، هو الذى يقوم بكلمات الله في الأرض ، مجاهداً

مناضلاً مضجياً بكل شيء ، حتى تعلو كلمة الحق . وتمشى الإنسانية ؛ على الصراط المستقيم .

إن المحبة هي التضحية وهي الجهاد ؛ والصوفي المحب لله ، هو من كانت كلماته صورة عمله في الدين والدنيا .

ومن هنا لم يكن زهد البسطامى ، ولا تقية الجنيد ، ولا سلبية المكي ، ولا تردد الشبل ، مما يرضى عنه الحلاج .

لقد ثار الحلاج في عنف . وفي قداسة على ولاية عهده . وفساد عصره . كما ثار في عنف وفي قداسة ، على السلبية الزاهدة التي عاشها كبار المتصوفة من معاصريه ، الذين قنعوا بعبادة الله وحبه ، غير ناظرين إلى واجباتهم حيال خلقه .

لقد عاب الحلاج على أبي يزيد البسطامى زهده العنيف الذى اتخذ طريقاً للوصول وقنع به ، فالوسيلة هنا ليست هى الأداة الكاملة ، وليست هى غاية التصوف أو سبيله .

إن الصوم والصلاة ليست طرقاً موصلة إلى الله ، بذاتها ، كما أن الذكر لا يعتبر وسيلة تفرض النتيجة على الله سبحانه .

إنما هو الحب ، الحب الذى يقربنا إلى الله ، الحب تحترق فيه شهواتنا ونزواتنا وأرضيتنا ، الحب الذى يزورنا الله خلال لبيب وجده ، ويمد يده إلينا ويباركنا ويلهمنا ، الحب مع التضحية الكاملة ، ومع القيام الكامل بحق الله علينا فى عبادته ، ويحقق الله علينا حيال عبادته .

ويروى لنا علي بن أنجب الساعى ، عن أبي محمد الجيسى ، المعاصر للحلاج ، قصة تاريخية ، تعطينا صورة عن خصومات الحلاج مع صوفية عصره ، وكيف بدأت تلك الخصومات .

١ - عن أبي محمد الجيسى قال : رأيت الجنيد ينكر على

الحلاج ، وكذلك عمر ابن عثمان المكي وأبا يعقوب النهروجوري ، وعلى ابن سهل الأصهباني ، ومحمد بن داود الأصهباني .

أما أبو يعقوب فقد رجع عن إنكاره في آخر عمره ، وأما عمرو بن عثمان ، فكان علة إنكاره أن الحلاج دخل مكة ولقي عمرأ ، ولما دخل عليه قال له : الفتي من أين ؟ فقال الحلاج : لو كانت رؤيتك بالله لرأيت كل شيء مكانه « فإن الله تعالى يرى كل شيء ، فنجل عمرو وغضب عليه ، ولم يظهر وحشته حتى مضت مدة ، ثم أشاع عنه أنه قال : يمكنني أن أتكلم بمثل هذا القرآن ! »

وأما علي بن أبي سهل فدخل الحلاج أصفهان وكان علي بن سهل مقبولا عند أهلها ، فأخذ علي بن سهل يتكلم في المعرفة ؛ فقال الحسين بن منصور : يا دسوقي تتكلم في المعرفة وأنا حي ؟ فقال علي بن سهل : هذا زنديق ؟

وأما الجنيد ؛ فكنت عنده ، إذ دخل شاب حسن الوجه والمنظر وعليه قيصان ، وجلس سريعة ، ثم قال للجنيد :

ما الذي يصد الخلق عن رسوم الطبيعة ؟ فقال الجنيد : أرى في كلامك فضولا أ أي خشية تفسدها .

فخرج الشاب حزينا وخرجت على أثره ، وقلت : رجل غريب قد أوحشه الشيخ ، فدخل المقابر ، وقعد في زاوية ، ووضع رأسه على ركبته .

فأتيت الشاب وجلست بين يديه لأطفئه وأداريه ، ثم قلت : الفتي من أين ؟ قال من بيضاء فارس ، إلا أنني ربيت بالبصرة .

فاعتبرت لديه للجنيد ، فقال : ليس له إلا الشيخوخة ، وإنما منزلة الرجال تعطى ، ولا تتعاطى

ثم تغلظ هذه الخصومة ، كلما اندفع الحلاج إلى الثورة على فساد عصره ، وإلى الدعوة إلى حكومة الأولياء والأقطاب كما كان يسميها الحلاج .

وأخذ الحلاج في عنف وفي قداسة يتحدى أعلام المتصوفة في عصره .
إنه رجل عقيدته صورة قوله ، فلا بجاملة عنده فيما يعتقد أنه الحق .
روى السكلاباذي في التعرف : أن الحلاج حفر حفرة وأوقد فيها
النار ووضع هارون حتى صار كالجر ، وقال لمن يجادله من الصوفية ، ومن
كبار العارفين .

من كان صادقاً بالله فليقدم ويقف على الهاوون داخل النار ، فلم يقدر
على ذلك أحد .

ثم أنه تقدم ووقف عليه فذاب تحت أقدامه ، حتى صار كالماء .
وبروى القشيري في رسالته^(١) : قال الحلاج لإبراهيم الخواص :
ماذا صنعت في هذه الأسفار ، وقطع هذه المفاوز ؟ قال بقيت في التوكل ،
أصح نفسي عليه ؟ فقال الحلاج : أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين
الفناء في التوحيد .

إنها السلبية عند غيره ، والإيجابية عنده ، قال الشبلي «كنت أنا
والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكنمت» .

والإيجابية الحلاجية التي تجعل الحلاج يدخل مسجد بغداد وأبو القاسم
الجنيد يتكلم على المنبر ، والجنيد هو الجنيد مكانة وعلماً .

فيهتف به الحلاج على مسمع من الدنيا : يا أبا القاسم إن الله لا يرضى
من العالم بالعلم حتى يجده في العلم فإن كنت في العلم فالزم مكانك ، وإلا فانزل
فزل الجنيد ، ولم يتكلم على الناس شهر^(٢) .

يقول الحلاج في عزة الواقع من نفسه : من تكلم عن غيره معناه ،
فقد تحرر في دعواه ، ثم تلا قوله تعالى : كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

لقد حمل الحلاج أمانة الرسالة الصوفية كاملة ، ولم يستطع ذلك غيره ،
أو كما يقول — ماسنيون — : « لقد عاش في صوفيته تماماً » .

ويكثر تحدى الحلاج للجنيد خاصة ، إن سيد الطائفة . وفي يده

(٢) أخيار الحلاج طبع ماستيون

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٦

القيادة والزعامة ، فيوجه إليه يوماً سؤالاً متعمداً هادفاً عن قيمة الإلهام الباطني ، ويوصف أنه قاعدة من قواعد التقوى والعبادة ؟ .

ويرفض الجنيد الإجابة ، ويكرر الحلاج السؤال ، فيسميه الجنيد :
« برجل المطامع » ، ويضحك الحلاج ساخراً ١١ ؟

وابتدأ الصراع بين الرجلين العظيمين ، وردت محافل بغداد ومساجدها ،
صدى هذا الصراع الضيف ، وابتدأ الجنيد يهاجم الحلاج جهره ، في
غضب ، وفي تطرف ، ويرميه بالسحر والشعوذة !! :

قال أحمد بن يونس^(١) ، : « كنا في ضيافة بغداد فأطال الجنيد اللسان
في الحلاج ، ونسبه إلى السحر والشعوذة والنيرنج !! وكان مجلسنا غاصاً
بالمشايع ، فلم يتكلم أحد احترامه للجنيد ، فقال ابن خفيف : يا شيخ
لا تطول ، ليس إجابة الدعاء . والإخبار عن الأسرار ، من التبرنجات
والشعوذة والسحر ، فاتفق القوم على تصديق ابن خفيف ، فلما خرجنا
أخبرت الحلاج بذلك فضحك وقال :

أما ابن خفيف فقد غضب لله . وسيؤجر على ذلك ، وأما أبو القاسم
الجنيد ، فقد قال إنه كذب ؟ ! ولكن قل له : « سيعلم الذين ظلموا
أي منقلب ينقلبون » .

ويعمى الحلاج في تحديه للجنيد ، وتعقبه في مساجد بغداد ، يطالبه بأن
يخرج من سلبته إلى إيجابية الدعوة الصوفية ، فما يملك الجنيد في لحظة
غضب ، إلا أن يرمي بنبوءته الصادقة . . . ستقتل ؟ .

ويضحك الحلاج ، ويعقب بنبوءة أخرى صادقة أيضاً . . . نعم ،
وستمضى على قتلى ١١ ؟ .

رجلان عظيمان ، لكل منهما عقيدته ومنهجه ، ولكنهما اختلفا ،
ولو اتفقا لتغير وجه التاريخ .

(١) أخبار الحلاج ص ٩٢ .

الزعيم الشائر

وكما اصطدم الحلاج بالجنيد ومدرسه ، اصطداماً أساسته الاختلاف الجذرى فى فهم التصوف عامة ، وصلة التصوف بالحياة خاصة اخذ أيضاً يصطدم ويصارع كافة القوى التى تبين على بغداد ، اصداماً وصراعاً أساسه الاختلاف الجذرى أيضاً فى فهم رسالة الإصلاح السياسى والإجتماعى للعالم الإسلامى .

لقد دخل الحلاج بغداد فى نهاية ٢٩٦ هـ ، بعد أن طوف بمشارك الأرض ومغارها ، ينذر بذور مذهبه ، ويدعو الناس إلى ربه ، ويملاً افق الأرض ، بألحان حبه ، ومواجيد قلبه ، دخلها وهى تمر بأيام حاسمة فى تاريخها ، وفى تاريخ الأمة الإسلامية كافة .

لقد وصلت بغداد فى نهاية القرن الثالث الهجرى إلى المرحلة التى يسميها الفيلسوف « اشبنلجر » البرزخ الفاصل ، بين قمة الحضارة ، وبداية التحلل والانحدار .

فقد حملت إلى بغداد كنوز الأرض وخراجها ، وتدفقت إليها ثروات الدنيا ومتاعها ، وهرع إليها أصحاب العقول والقلوب والمطامع والآهواء من كل لون وجنس وملة ونحلة ؟ ! !

وتدفق إليها سيل لا ينقطع ، من الجوارى والإماء والعبيد والمغامرين ، والمتجمين والمارقين والمبتدعين ، وصناع النزوات والشهوات .
وأخذت الصلابة العربية تنهاوى ، وأخذت الفكرة الإسلامية تلين وتوارى .

وانطلقت بغداد وقد غدت عاصمة الدنيا تتبرج وتترين وتعجب من كل لذة، وتقنّاف بكل شهوة، وتبتدع ألواناً من التفكير، وفنوناً من القول، لا تعرف القيود ولا الحدود ٢١١

وأُسرفت بغداد على نفسها في الترف وفي الشهوات، إسرافاً قتل فيها الحيوية الخلاقة، ونال من الشخصية الإسلامية المؤمنة المتهتدة، التي صنعت التاريخ المضيء لهذا الكوكب.

وأُسرفت بغداد على نفسها في السباح الفلسفي، وفي الابتداع المذهبي، وفي الجدال العقلي، حتى أصبحت أنديتها أروقة للسفسطة والحوار، وغدت مساجدها ساحات للعراك والقتال بين الحنابلة والأشاعرة والمعتزلة، والصوفية والمنجمون والسحرة والفلاسفة، فتمزقت وحدتها الفكرية وانحلت أخوتها القلبية، وتبددت ثروتها الأخلاقية ٢١٢

وأُسرفت بغداد على نفسها في السياسة فنجمت الأحزاب والشيع والفرق، مقنعة وسافرة، عريّة وأعجمية، مؤمنة وملحدة، ثائرة ورجعية ٢١٣.

أحزاب للعسكرية التركية المغامرة، ثير الفتن والقلاقل، وأحزاب للفرس والشيعية، تتربص بالخلافة الدوائر، وأحزاب للرجعية الدينية، تثير الشعب والقتال في الطرقات والمساجد، وأحزاب للرأسمالية الاحتكافية تمتص الحياة والدماء، وأحزاب للقصر تهيمن عليها الجوارى والإماء.

وفي القمة من هذا المجتمع العجيب، الخليفة المقتدر، صبي ملئ عرييد، يقول عنه المؤرخ الكبير الطبري وهو معاصر له: «وأما المقتدر فريقيك، لاه بما هو فيه من اللعب والسرف والتبذير؛ أحب جارية رومية حسناء، أسلمها الدولة وأهدى لها فصاً من الياقوت بثلاثمائة ألف دينار».

ويقول المؤرخ ابن الأثير: «كان المقتدر الطفل الخليفة لا هم له إلا أن

يلهو في قصره بين عشر آلاف خصى من الصقالبة والجواري والغلمان .
ومن فوق هذا الخليفة الطفل ، والدته السيدة «شعب» التي أحالت
الملك العريض إلى العوبة في يدها ، وبلغ من نفوذها واستمثارها ، أن
أمرت قهرماتها «أم موسى» أن تجلس في مجلس القضاء للمظالم ، ومن
نفوذ هذه القهرمات : أنها كانت تصدر أوامر المصادرات وإحصاء الأموال
والتركات .

ويقول الدميرى في كتاب الحيوان : «وانطلقت الألسن في المقتدر
وأمه ووزرائه وعماله وقضاته ، وكثر السبى والقتل ، ودخل المنجمون
والمتخرصون على الرؤساء والنساء ، وقعد الدجالون للناس في الطرقات» .
ويقول العلامة السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء^(١) : «إن محمد بن
جرير الطبرى لما علم بخلع المقتدر ، ومبايعة ابن المعتز ، قال : ما الخبر ؟
قيل : ببيع ابن المعتز ، قال فن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود ،
قال . فن ذكر للقضاء ؟ قيل : أبو المثنى ، فأطرق ثم قال : هذا الأمر
لا يتم ! فقيل له : وكيف ؟ قال : كل واحد من سميتم متقدم في معناه .
على الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى
اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا .

ومن قلب هذه الحياة المتداعية ، وعلى القمم العالية ؛ من هذه التيارات
المتصارعة ، تجلت شخصية الحلاج ، بما أفيض عليها من جاذبية ومغناطيسية ،
وبما تملك من قوى خارقة أسطورية ، وبما تفرق حولها من بريق الروح
وسناء الايمان ، وبما تبيله من بطولة فداية لا تلين ولا تهادن . وبما تقدم
للناس من منهج متكامل ، للدين والدنيا .

كانت شخصية تملأ عين من يراها سحراً ، وتملأ قلب من

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

يشاهدها إجلالا . وتملك فوق هذا وذاك قدرة الإيحاء الذى يطلق الأمل
الحى فى قلوب الدعاة المؤمنين ، ويرسم النذ الجميل للقائطين واليائسين .
كان الحلاج يشر بمنهج فيه بريق التصوف وروحانيته وإشراقه ، وفيه
أهداف السياسة الإيجابية البناءة .

كان كما يقول المستشرق — ماسنيون — يهدف إلى قيام خلافة ليس
بينها وبين الجمهور نفور سياسى . ويعمل كي يزيل من شعوب الدولة ما بينها
من نفور إجتماعى ، ويزيل ما بين الفرق من نفور دينى ، ويحطم ما بين
الطبقات من تفاوت مادى .

منهج إيجابى للإصلاح السياسى والإجتماعى ، يظلل ويدعمه منهج روحى
قوامه الدعوة إلى حكومة الاتقياء الأولياء الذين يملأون الأرض عدلا
وقسطا ، و يملأون القلوب إيمانا وحباً ، الحكومة الربانية المتهتدية التى
ستعيد حكومة الرسول ، بكل ما فيها من عدل وقوة ، ومحبة وعبادة .

أو كما يقول الحلاج : « خلافة ربانية تشعر بمسئوليتها أمام الله ،
مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صيام وصلاة ،
وحج وزكاة » .

وبذلك يربط الحلاج بين صلاح الحكم ، وقبول الله سبحانه للعبادة
من عباده المؤمنين .

فلن يقبل الله عبادة عابد ، تحت ظل حكم فاسد ، كما يقول ، وأولياء
الله حقاً فى منهجه ، هم الذين يحملون أمانة الرسل فى الإصلاح العام ،
وهم الذين يقودون الإنسانية إلى الله ، وإن واجههم أن يستشهدوا
أو ينتصروا .

ذلك إيمان الحلاج ، وتلك دعوته ، التى انبثقت منها صيحته الكبرى
ذات الرنين الخلاب .

صيحة الخلافة ، التى يتولى القيادة فيها والزعامة ، القطب الولى

الأكبر ، الذى له خلافة الظاهر والباطن ، القطب الزعيم الذى ارتبط قلبه بالله ، فقام به وتلقى عنه ، القطب الذى يمشى على خطو الأنبياء ومنهجهم ، ويحقق بأعماله رسالتهم .

القطب الذى سيقود العالم الإسلامى ، بل الإنسانية كافة ، إلى معارج الكمال القرآنى وآفاق الحب الإلهى . فيصبح الإنسان جديراً بخلافة الله .

تلك هى الخطوط الرئيسية لمنهج الحلاج . الذى دوى فى سماء بغداد ، فأطلق العواصف الموحدة ، وأثار المعارك الملتبئة ، وانقسم الناس حياله ، كما يقول المستشرق — نيكلسون — إلى حلاجية ، وخصوم للحلاجية .

يقول ماسنيون : « إن الحلاج أحيأ بمنهجه هذا » وبحميته الثائرة ، وبشخصيته الباهرة ، الآمال العريضة ، والأحلام الجميلة ، التى كانت تعيش فى أعماق الأمة الإسلامية ، فالتفت حوله الجماهير ، واندفع فى تياره كثير من الأمراء والوزراء والقادة .

وفى الناحية الأخرى ، أحاطت بالحلاج الأحقاد والخصومات العنيفة الملتبئة ، لقد جاء ليزلزل نظاماً ، ويحطم حكماً ، ويحارب فساداً شاعراً ، ويتنزع من الزعامات الفكرية والروحية مكاناً سامقاً ؟ !

لقد لقبه الإمام الجنيد من أجل هذا المنهج « برجل المطامع » وهى كلبة لها معناها ودلالاتها وهدفها .

يقول — الاصطخرى — : « إن كثيراً من عليّة القوم رأوا حينئذ فى الحلاج أنه الرئيس القطب » .

الرئيس القطب رجل المطامع ، الذى ينشد الخلافة لنفسه ، إن هذا وحده يكفل للحلاج عداوة شائخة مريرة ، من كافة القوى المنتفعة بالخلافة ، وما يحيط بها وما يدور فى فلكها .

وزاد من عنف المعركة ، أن الحلاج كان بطبيعته المؤمنة الثائرة .

مهاجماً قاسياً عنيفاً ، لا يعرف المهادنة ولا يعترف بالتقية ، ولا يرضى
بأنصاف الحلول .

هاجم الشيعة وطالب بعزلهم عن الخراج ، وإبعادهم عن بيت المال .
لقد أزهقوا الناس ، وأفسدوا الضمائر ، واختلسوا الأموال ، واحتكروا
الأرزاق .

وهاجم المعتزلة ، لأنهم حصروا أنفسهم في قوالب فلسفية ، وأهملوا
دعوة الإصلاح والحرية .

وحارب الوزراء الذين تخرجوا من المدارس النسطورية ، وكانوا من
أصول نصرانية ، كابن وهب ، وابن نوبخت ، لأن في قلوبهم بقية ملحدة
تحارب الإسلام ، ولا تؤمن بدعوته .

وهاجم الخلافة وأحزابها وقوادها وحجابها ، لقد غرقوا في الترف ،
وأسرفوا في المجون ، وأشاعوا الفساد ، واستبدوا بالعباد ، وانحرفوا
عن رسالة الإسلام ؟

وأخذ الحلاج يدعم معركته برسائل سياسية ، تحدث عن منهجه
في الإصلاح العام ، وأوضح واجبات الوزراء ، وحقوق الرعية ، كما
تحدث فيها عن الخلافة الربانية ، وما يجب أن يتوافر لديها من شروط .

وهي رسائل لا تزال مخطوطة متفرقة في مكتبات العالم ، بما تشتمل
عليه من تصوير رائع لمرحلة من أخطر المراحل الفكرية في تاريخ الأمة
الإسلامية .

لقد تحدث الحلاج في هذه الرسائل عن الحرية الفردية ، وعن الحقوق
الاجتماعية ، وعن المثالية الخلقية ، كما تحدث عن السياسة المالية في الخراج
والضرائب ، وعن سياسة الحكم وتبعاته وأهدافه .

وبذلك سبق الحلاج بمنهجه الذي يمكن أن نسميه بالاشتراكية

الديموقراطية الدينية : كافة الدعاة العالميين إلى هذا اللون المنهجي في الإصلاح الاجتماعي .

ومن أشهر هذه الرسائل ، الرسائل الثلاث التي أهداها إلى أصدقائه من الوزراء ، حسين بن حمدان ، وابن عيسى ، ونصر القشوري .

ثورة ابن المعتز

وعلى دوى كلمات الحلاج المزلة ، أخذت العناصر النائرة ، الطامعة في الخلافة من بني العباس ، ترفع رأسها ، وتدير أمرها ، وتطمع في أن تثب في عنان هذه الحملة الحلاجية على عرش الخلافة لتنزعه لنفسها .

وكان ابن المعتز الشاعر العباسي الكبير ، من أبناء الخلفاء ، وكان يرى أنه أحق بالخلافة من المقتدر .

وكان يلوذ به طائفة قوية من أبناء البيت العباسي ، غضبوا من المقتدر ورأوا في مجونه ولطوه وتها لك ، وهيمنة النساء عليه نذيراً يعرض البيت العباسي بأسره للزوال والفناء .

ورأى أدباء بغداد وشعراؤها في ابن المعتز ، زميلاً شاعراً أديباً ، فطافوا به ، ومشوا في ركابه ، واحتضنوا دعوته .

كما رأى الحنابلة المتعصبون المزمتمون في ابن المعتز ، متنفساً لحقدهم على الخليفة ، الطفل العايب ، فأسرعوا إلى ابن المعتز يحيطونه بهالة من قداسة الدين وبريقه .

وأخذ بعض تلاميذ الحلاج من الوزراء والقواد ينضمون إلى ابن المعتز سراً ، لقد رأوا في حركته سبيلاً قد يحقق لأستاذهم ما يدعوا إليه ، ويبشر به ، وكان أكبر هؤلاء التلاميذ الأمير الحسين بن حمدان الذي تولى القيادة العسكرية للثورة .

ويرى ماسنيون : وأدار الحلاج دعوته من وراء الحجب وفي سنة (٥٢٩٦هـ - ٩٠٨م) انفجرت المؤامرة الإصلاحية ، وقامت خلافة تحت

رعاية الحلاج ، تولاها ابن المعتز ، ولكنها استمرت يوماً واحداً ثم فشلت . لأنهم لم تستطع الحصول على الأموال من الممولين اليهود في القصر . وقد كانوا متواطئين مع عمال الخراج الشيعة .

فأعيدت الخلافة إلى المقتدر : بمساعدة الشرطة ، وابن الفرات ، الذي تولى الوزارة وكان أول أمر أصدره هو القبض على الحلاج وأتباعه . ونجا الحلاج من القبض ، واختفى لدى الحنابلة ، بيلدة — سوس — من الأهواز .

وبعد ثلاث سنوات من اختفائه ، وبخيانة عامل مدينة واسط حامد ، قبض على الحلاج وجيء به إلى بغداد ، حيث ابتدأت قضيته العالمية .

ولكن الحلاج نجا بما أعد له . لقد كانت له مكانة شعبية تحميه وتعصمه من غضب الخليفة ، وكان له أنصاره الأقوياء من الأمراء والوزراء ومن كبار رجال القصر .

أنصار استطاعوا أن ينتزعوا من الخليفة المقتدر ، أمراً بالغفو عن الحلاج ، وأن يكتفى بتحديد إقامته بدار حاجب الخليفة نصر القشورى تلميذ الحلاج المخلص .

يقول صاحب تاريخ بغداد : « فأقام عند نصر القشورى ، في سعة ودعة يزوره من يشاء (١) » .

الحلاج في قصر الخليفة

ثم أطلقت حرية الحلاج كاملة ، فعاد إلى منهجه ورسالته ، يقول ابنه أحمد كما يروى صاحب تاريخ بغداد : ، إن والده وقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من في وقته .

ثم بنى داراً ببغداد واتخذ قراراً ، ودعا الناس إلى فكرته فأجابه الخلق .

وخرج عليه محمد بن داود الظاهري ، وجماعه من أهل العلم وقبحوا صورته .

ووقع بينه وبين الوزير ، علي بن عيسى ، عداوة من أجل نصر البقشوري ، ووقع بينه وبين الشبلي وغيره من مشايخ الصوفية ، واختلفت الآلسن في أمره^(١) .

وكلمة أحمد بن الحلاج تصور لنا تلك الحقبة من حياة الحلاج تصويراً دقيقاً .

لقد واصل دعوته بتلك الحمية النائرة التي أثرت عنه ، فأجابه الخلق ، كما ثارت نحوه الخصومات من جديد .

فخاصمه أول ما خاصمه ابن داود الظاهري ، الفقيه الجامد المتعصب ومن يلوذ به الفقهاء خصوم الحياة خصوم الحياة الروحية بكافة صورها وأخلاقها ينتشرون الشائعات حول الحلاج وعقيدته ودعوته .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١١٣ .

ومن الناحية السياسية ، خاصمه الوزير علي بن عيسى ، خصومة سياسية ،
من أجل نصر القشورى حاجب الخليفة ، وخصمه السياسى .

وبجأة حدث تحول بعيد المدى فى حياة الحلّاج ودعوته ، بل بعيد المدى
فى تاريخه ومأساته .

يقول البغدادى^(١) ، إن علة عرضت للمقيدّر بالله فى جوفه ، ووقف
نصر القشورى على خبرها ، فحدث الخليفة عن الحلّاج ووصفه بأنه الرجل
الصالح ، واستأذنه فى إدخاله إليه فأذن له .

وجاء الحلّاج فوضع يده على الموضع الذى كانت العلة فيه ، وقرأ عليه
فاتق أن زالت العلة .

ثم يقول : « ولحق والده المقتدر بالله ، مثل تلك العلة وفعل بها ذلك
فزال ما وجدته ، فقام للحلاج بذلك سوق فى الدار ، وعند والده المقتدر
والخدم والحاشية » .

ويقول عريب القرطبي فى كتابه — صلة تاريخ الطبرى — « أحيأ
الحلاج ببغاء ولى العهد الراضى محمد بن جعفر المقتدر فأحدث ذلك دويأ
فى القصر وفى بغداد » .

ويحدثنا صاحب تاريخ بغداد حديثاً عجيباً عن الحلّاج الذى أقام فى
قصر الخليفة ، بأمر الخليفة ، وكيف غدا صاحب الكلمة الأولى فى القصر ،
ثم يقول :

« وكانت بنت السمرى صاحب الحلّاج قد أدخلت إليه ، وأقامت عنده
فى دار السلطان » .

ثم يذكر فى موضع آخر ، أن ابنة الحلّاج قد أقامت معه أيضاً فى
دار الخليفة^(٢) .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٤ .

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٥ .

أى أن الخلاج قد انتقل بأسرته وخدمه ومعارفه إلى دار الخلافة .
أصبح الخلاج سيداً مطاعاً مرهوباً ، عال المكانة ، مسموع الصوت ،
فى قصر الخليفة .

وغدت والدة الخليفة المقتدر ، السيدة — شغب — بسلطانها وجلالها
ونفوذها ، من أخلص تلاميذ الخلاج المؤمنين به ، المدافعين عنه .

ومشى كثير من الوزراء والقواد والأمرأ فى موكبه ، وحفوا به فى
مجالسه . واعتنقوا منهجه ، إما عن اقتناع به، وإما افتناناً بشخصيته الساحرة،
وإما ترلفاً وتقرباً لرجل ، أصبحت الأسرة الحاكمة ترعاه وتجله ، وتؤمن
به وتقدره .

وامتلاً قصر الخليفة الكبير ، بالحديث عن كراماته وآياته، وما تصنع
يداه من عجائب وغرائب . تكاد ترتفع فوق الكرامات والآيات .

وأسرف الناس كمعادتهم فى هذا الحديث، ولوبوه ووشوه ، وأضافوا
إليه وزادوا فيه ، حتى غدا الخلاج أكثر من أسطورة ، وأكبر من ولى ،
فى أفق بغداد ، وسماء العراق .

وملأت الهمسات الملونة ، أندية بغداد ومساجدها ، وفقد خصوم
الخلاج أعصابهم ، فقد رأوا غريمهم ، يرتفع شاهقاً فوق هاماتهم فراحوا
يلأون الدنيا صياحاً غاضباً مجنوناً ، حول الخلاج ، الدعى الساحر الدجال
حيناً ، وحيناً تناول الصيحات المرعدة ، عقيدته الإيمانية . فترميه وتصفه
بالكفر والفسوق ، والاتحاد والحلول !

والخلاج فى آفاهه بعيداً بعيداً عن هذا الدوى ، لقد ملكت عليه
رسالته الإصلاحية أقطار تفكيره ، وملك عليه حبه لربه ، وجدانه وقلبه
فراح يجاهد فى الميدانين ، بما أثر عنه من حماس ملتهب ، وبما عرف به من
عزمات لا تلين .

ولكن الذى كان يمزق قلب الحلاج حقاً ، ويمسأه بالأسى المرير هو موقف أحبابه وأساتذته وتلاميذه من الصوفية ، من أبناء مدرسة الجنيد ، لقد حاربوه فى رسالته ، وبارزوه العداوة فى منهجه ، وسلقوه بالسنة حداد فى حبه وإيمانه .

وهذا الموقف العدائى من الإمام الجنيد ومدرسته ، قد أرقه وأهمه ، وحرق قلبه ، ونرى أثر هذا الموقف فى الكلمات الباكية الحزينة ، التى أخذت تترى على لسان الحلاج ، فى مواجيدته وإتهالاته .
لقد أخذت تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً ، فكرة الاستشهاد فى سبيل حبه ، وفى سبيل عقيدته .

لقد آمن من قبل بأن الوجد والعذاب فى الحب ، هما معراجيه إلى الوصول والقرب ، واليوم أخذ يؤمن بأن الإستشهاد هو طريقه إلى النصر ، النصر الشاخص المتلألأ لفكرته ومنهجه .

إن استشهاديه فى سبيلهما ، هو صورة لإيمانه ، وآية صدقه ، وصراط قربه ، وعلامة قبوله عند ربه .

بل لقد راح فى نشوة روحية عالية ، يتنبا بمصرعه ، ويرى مشاهد هذا المصرع ، جليلة مبينة .

قال إبراهيم بن فائق (١) دخلت يوماً على الحلاج فى بيته له ، على غفلة منه ، فرأيت قائماً على هامة رأسه ، وهو يقول :

يا من لازمتى فى خلدى قريباً ، وباعدنى بعد القدم من الحدث غيباً ، تتجلى علىّ ، حتى ظننتك الكل ، وتسلب عنى حتى أشهد بنفيك ، فلا بعدك يبقى ، ولا قربك ينفع ولا حربك يفنى ، ولا سلبك يؤمن ؟

فلما أحسن بى ، قعد مستوياً وقال : أدخل ولا عليك ، فدخلت وجلست

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٣

بين يديه ، فإذا عيناه كشعلتى نار ، ثم قال . يا بنى أن بعض الناس يشهدون على بالكفر ، وبعضهم يشهدون لى بالولاية ؟!

فقلت : يا شيخ : ولم ذلك ؟ فقال : لأن الذين يشهدون على بالكفر تعصباً لدينهم ، ومن تعصب لدينه ، أحب إلى الله من احسن الظن بأحد ثم قال لى :

وكيف أنت يا إبراهيم حين ترانى ، وقد صلبت وقتلت وأحرقت ، وذلك أسعد يوم من أيام عمرى جميعه !!!

ثم قال لى : لا تجلس وأخرج فى أمان الله .

ويقول أحمد بن فائق^(١) : « كنا مع الحلاج ، وكان يوم النيروز ، فسمعنا صوت البوق ، فقال الحلاج :

أى شىء هذا ؟ فقلت : يوم النيروز ، فتأوه وقال : متى تنورز ؟ فقلت : متى تعنى ؟ قال : يوم أصلب ؟؟

فلما كان يوم صلبه بعد ثلاث عشرة سنة ، نظر لى من رأس الجذع وقال : يا أحد : تورزنا : فقلت : أيها الشيخ : هل أنتخت ؟ قال : بلى ، أنتخت بالكشف واليقين ، وأنا بما أنتخت به خجل ، غير أنى تعجلت الفرع .

ويقول أحمد بن فارس^(٢) : « رأيت الحلاج فى سوق القطيفة قائماً على باب مسجد المنصور ، وهو يقول :

أيها الناس ، إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره ، وإذا لازم أحداً أفناه عن سواه ، وإذا أحب عبداً حث عباده بالعدوان عليه حتى

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٢٧

(٢) « د د د د د » ص ١٣

يتقرب العبد مقبلاً عليه ، فكيف لي ولم أجد من الله شمة ، ولا قرباً منه لمحّة ، وقد ظل الناس يعادوني .

ثم بكى حتى أخذ أهل السوق في البكاء .

ويقول علي بن أنجب الساعى : « صاح الحلاج في جامع منصور : أيها الناس اعلبوا أن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني اقتلوني توجروا واسترح ، ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلى ، وتكونوا أتم مجاهدين ، وأنا شهيد^(١) . »

ولم يهنا الحلاج طويلاً بمكاته في القصر ، ولم تتحقق له الآمال الإصلاحية العريضة ، التي راودته وهو يلج قصر الخليفة ، لقد بدأت الدسائس والمؤامرات تحيط به وتواثبه ، وتضيق حوله النطاق وتطارده ١١
لقد كان وجوده في قصر الخليفة ، أمراً مخالفاً لطبيعة الحياة ، ولطبيعة المعركة التي يقودها .

فروياً بآمنه ورسائله ، يختلف اختلافاً جذرياً عن سكان القصور ، وهو بخلفه وفسكه ومبادئه ، يختلف اختلافاً منهجياً عن أخلاق الطبقة الأرستقراطية الحاكمة .

وكان الاصطدام حتماً مقضياً بين الحلاج وبين الحاشية ، لقد رأى بعض الوزراء والقواد والامراء ، أن مكاتهم قد تزلزلت ، ورأى المستغلون والمتنفعون والمرتشون ، وأرباب الثروات والأهواء والشهوات ، الذين هيمنوا على الخليفة في الماضي ، أن رأس مالهم الأكبر قد طار من أيديهم . وانضم إلى هؤلاء وهؤلاء ، السياسيون المحترفون من خصوم السيدة (شغب) أم الخليفة ، وخصوم نصر القشورى الحاجب ، وهما أكبر أنصار الحلاج ، وأخلص تلاميذه .

(١) أخبار الحلاج طبع باريس رقم ٥٠

وفي رجال القصر براعة في الدس والنفاق ، وكفاءة في التلوين والتأمر
وهم تاريخياً أقدر الناس على هذا الضرب من الحياة ، وأبرعهم فيه .

ويقول المستشرق - نيكلسون - « لقدضاق كبار رجال الدولة بنفوذ
الحلاج وصيحاته الشعبية الحارة ، التي تهدد بثورة تطيح بهم وبنفوذهم .

تقول دائرة المعارف الإسلامية^(١) : « وكانت رعاية (شغب) أم
المقتدر ، والحاجب نصر ، للحلاج سبباً في أن عاداه الوزير حامد ، الذي
سيقود المعركة يوم محاكمته . »

وابتدأت الحاشية همس في براعة قادرة مدربة في أذن الخليفة ، بأن
الحلاج يعد العدة لضربه الكبرى ، الضربة التي ستطيح بالخليفة ، ليتولى
هو الأمر من بعده ؟!!

أليس هو صاحب نظرية القطب الزعيم الحاكم ؟ أليس هو المنادي
بحكومة الأقطاب والأولياء ، التي يحبها الله ويرضى عنها ؟

أليس يجمع حوله الكتاب والشعراء والصوفية ورجال الفكر ، ومن
وراء هؤلاء جميعاً جماهير بغداد ، ثم أليس الحلاج هو الولي الأكبر ،
والمنفذ الأعظم عند هذه الجماهير ؟!!

وزاد الهمس في أذن الخليفة ، وزادت الاتهامات وتضخمت ، حتى
أرعبت الخليفة ، وأنسته نفسه ، وأنسته صداقته للحلاج ، واستضافته له .

وابتدأ الخليفة يضيق بالحلاج ؛ ويعطى له وجهاً غير وجهه الأول ،
وابتدأ خصوم الحلاج في القصر يوسعون نطاق مؤامراتهم ، ويمدون حبالهم
إلى خارج القصر ، ليشركوا معهم الخصوم التاريخيين للحلاج .

واستدعى إلى القصر ، المهرة المدربون على الممسات والشائعات ولكن
مكانة الحلاج الشعبية كانت دائماً ، ترهب خصومه ، وتنال من إندفاعهم ،
إن له القداسة وسحراً لا يقاومان بين العامة .

(١) مجلد ٨ ج ١ ص ١٧ .

ومن هنا ابتدأ التفكير في تحطيم هذه الحالة الشعبية ، وتمزيق هذه القداسة الدينية .

وفكر رجال القصر وقدروا ، ثم فكروا وقدروا فاهتدوا إلى سلاح تاريخي رهيب ، جرب فأثبت صلاحيته وإيجابته .

يجب أن يحارب الحلاج باسم الدين وبسلاحه ، لقد شاد مكائنه السابقة لدى الجماهير باسم الدين والقداسة الروحية ، فيجب إذن أن يحطم باسم الدين ، وباسم الدفاع عن القداسة والمقدسات الروحية ؟ ! .

ومن ثم بدأت حملة من أكبر حملات التزييف في التاريخ ، حملة انقلبت إلى عاصفة لا تزال ريحها تدوى عبر القرون ، تتمم الحلاج بالمروق والإلحاد ، والحلول والاتحاد ، وغير هذا وذلك من المسميات والنعوت ؟ ! !

وأخذ سيل من الرسائل والكتب يتدفق من الأقلام المأجورة لمهاجمة الحلاج !! وابتدأ الدساسون يحرفون كلمة عن مواضعه ، وينسبون إليه ما لم يقوله .

بل ابتدؤا يجمعون ويدربون الشهود الزور ، الذين سيتقولون الأفك ، ويشهدون الزور على الحلاج يوم محاكمته .

يقول ماسنيون : « وسهم في المعركة كثير من رجال الدين ، حتى المعزلة شاركوا فيها حسداً للحلاج ، فروجوا في القصر رداً على كرامات الحلاج ، رسالة — للأوارجي — تصف شعبية الحلاج وحيله »^(١) .

ويقول نيكلسون : « لقد اشترك في المعركة ضد الحلاج مزيج عجيب من المرتشين والقوادين والزنادقة ومستغلي النفوذ » .

ثم أخذت آفاق السياسة العامة للعراق تضطرب ، وأخذت أحزابه تتصارع وتتقاتل ، وعلى قمة هذا الصراع ، بدأت محاكمة الحلاج ومأساته :

(١) شخصيات قلقة في الاسلام .

محاضرات الحلاج

رأى الحلاج أن دعوته قد تعرضت للخطر ، وأن منهجه الإصلاحى أصبح فى مهب العاصفة ، وأن الساعه الحاسمة تقترب من القمه .
لقد تغير عليه قلب الخليفه ، وتجراً خصومه فى القصر وخارجه .
وأعلنوها بغضاء سافره ، وبدأت نذر العاصفه تطرق عليه الأبواب .
كما أدرك فى جلاء مبين ، أن أساليبه السلبيه التى استهدف بها تحقيق رسالته ، عن طريق القصر وصدقات القصر ، أصبحت لا تحقق هدفاً ، ولا تملك أملاً .

فأخذ يحرك أتباعه من الوزراء وقادة الجيش ، ليتخذوا موقفاً إيجابياً فى مقاومة فساد الحكم وإنحرافه عن رسالة الإيمان والدين .
كما أخذت رسالته تتوالى على أنصاره من العلماء والأدباء ، يعدم ويعبئهم للبعركه السافره ، وعادت إتصالاته بالجماهير تتسع وتقوى ، يحرك وجدانهم ، ويشير مشاعرهم ، ويلهب فيهم روح المقاومة ضد ما يتعرضون له من إستغلال وما يلقون من أهوان .

يقول المستشرق ماسنيون^(١) : ولقد قامت فى ذلك الحين بين العلماء رغبه عامه فى إصلاح الاداءه الإداريه ، وطالبوا بإقامه خلافة إسلاميه حقاً ، ووزارة تحكم بالعدل بين الناس ، خصوصاً فى مسائل الخراج والضرائب — ضد مفاسد عمال الخراج الشيعة من خصوم الحكم الوراثى — وخلافة شاعره بمسئوليات وظيفتها أمام الله مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم — من صلاة وحج وصيام — وكان الأمل معقوداً

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧١

على الحلاج في العمل بهذا السبيل ، في الوقت الذى توقع فيه الحلاج ،
قرب مصادرة حريته من جانب أعدائه وأصدقائه .

ودخل الحلاج المعركة ، وحمل عبثها ومسئوليتها ، وكانت طاقته الأولى
في القمة ، في مجلس وزراء الخليفة .

وابتدأ الصراع بين الوزراء الحلاجيين ، وخصوصهم من الوزراء ،
صراعاً سافراً مريراً .

واستطاع أنصار الحلاج في الوزارة ، أن يصدروا أول بيان تاريخى
منهجى في العالم الإسلامى ، لميزانية الدولة الإسلامية ، على أسس إشتراكية ،
هذا البيان الذى يقول عنه المستشرق — ماسنيون — : « إنه صار مشهوراً
بحق (١) » .

واستطاع هذا البيان ، أن يعيد تنظيم سياسة الدولة المالية ، وأن يخفف
من قسوة الضرائب ، وأن يتجه بفائض المال إلى الخدمات العامة ، بدلا
من إنفاقه على الخليفة وحاشيته !!

وغضب الوزير حامد بن العباسى خصم الحلاج الأكبر ، فقام بحركة
مضادة فأغرى الخليفة باحتكار المخزون من القمح والمضاربة فيه !

يقول ماسنيون : « (٢) فأجاب الوزير ابن عيسى صديق الحلاج على
هذا الإجراء ، بإثارة فتنة شعبية ، وفيها أطلق نصر القشورى حبل العمل
للخناينة — اصدقاء الحلاج — فقامت نقابات العمال في بغداد والبصرة
والكوفة والموصل ، وهاجمت المحتكرين والمخازن وفتحت السجون » .

(١) شخصيات قلقة في الإسلام ص ٧٥ .

(٢) شخصيات قلقة في الإسلام ص ٧٥ .

المحاكمة الأولى

واهتز عرش الخلافة ، واهتزت أرائك الوزراء غير الحلّاجيين ، فأدرك الوزير حامد أن الخطر أصبح من الضخامة ، بحيث لا يقاوم إلا بالإقدام على مخاطرة حاسمة . . . هي القبض على الحلّاج نفسه ومحاكمته ، وهو أمر لا يستطيعه إلا الخليفة ، ولكن الخليفة جبن وتردد ، رغم إلحاح الوزير عليه ، وتبصيره بالخطر المحدق به :

فلجأ حامد إلى السلاح الديني الشرعي ، فاتصل بأحد أعضاء محكمة القضاء الكبرى ببغداد ، وهو الفقيه الظاهري محمد بن داود ، وكان شاعراً هلو كآ يبغض الحلّاج ويمقت التصوف ، فأغراه بالمال ، ومناه بالآمال ، وحرّضه باسم الخلافة والخليفة .

واستغل محمد بن داود مركزه الشرعي ، فرفع أمر الحلّاج إلى المحكمة العليا طالباً بمحاكمته ، والحكم بقتله ، بدعوى الشعوذة وإدعاء الألوهية . . ؟ وجند الوزير حامد الشهود ليوم المحاكمة ، فأعد رجلاً من غمار الصوفية ، لقّنه أن يقول : إنه سمع الحلّاج يتحدث في درسه الصوفي بمسجد المنصور قائلاً : أنا الحق . . ؟

وجاء برجل آخر من العامة ليشهد بأنه من أتباع . الحلّاج ، وبأن الحلّاج إله ؟ وأنه يحيي الموتى ؟

وحضر الحلّاج المحاكمة في دار القضاء العالي ، وواجه الشهود ، يقول المؤرخ ابن كثير : ^(١) وأنكر الحلّاج ما نسب إليه ، وقال أعوذ بالله أن

(١) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٤٠

أدعى الربوبية ، أو النبوة ، وإنما أنا رجل أعبد الله ، وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير ، ولا أعرف غير ذلك ، وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد ، ويكثر أن يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ، عملت سوء أو ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

وهنا انتصر للحلاج القاضي الشافعي ، ابن سريج قائلا : « إن مثل هذا لا يدخل في القضاء ، والأدلة غير ثابتة ، والدليل لا يوجد » .

وهذا الاعتراض فشلت المحاكمة ، وضاعت المؤامرة ، ولكن الوزير حامد ، أسرع فأصدر أمراً بتشكيل هيئة قضاء أخرى برئاسة القاضي أبو عمر محمد يوسف . وعضوية القاضي أبو جعفر بن البهلول وجماعة من الفقهاء .

وأعيد الإتهام وجاءوا بالحلاج وتوالى الإتهام : هل أنت إله . هل تحي الموتى ؟ هل تخدملك الجن ؟ هل تصنع ما تحب عن طريق المعجزات ؟ كما يقول الشهود .

وأنكر الحلاج مانسب إليه بشدة ، وسخر من شهوده بقوة ، وقال : أنا أعبد الله ، أومن به وبرسله ، وأدعو إلى الحق ، وأنشد الخير للسلين ، ولا أقر الظلم ، ولا أعرف هؤلاء الشهود ، ولا أقول غير هذا وأعوذ بالله من الدعوى .

وتعالت صيحات الجماهير الغاضبة خارج دار القضاء ، ووجد القضاة أنفسهم بين شق الرحى .

فعادوا إلى الوزير حامد ليلغوه بأنهم لم يجدوا ما يوجب قتل الحلاج ، ولا عقابه ، وأنه لا يجوز قبول إدعاء إلا بدليل أو إقرار . ؟

وفشلت القضية من جديد ، وثار حامد وأسرع إلى الخليفة ينشد تأييده ، فقد زادت هذه المحاكمات من مكانة الحلاج ونفوذه : ولكن الخليفة كان أكثر حرصاً من وزيره ، أو أكثر جنباً وخوفاً ،

وكان دائماً يتردد في حمل مسؤولية دم الحلاج ، فأمر حامد بأن يسلبه إلى على بن عيسى عالم بغداد وخصم الحلاج لينظره ، عسى أن تفلت من فم الحلاج كلمة فيؤخذ بها ؟!

وعقد مجلس المناظرة ، وحشد للمجلس خصوم الحلاج من كل لون ونحلة .

يقول الخطيب البغدادي في تاريخه : « فلما حضر الحلاج مجلس المناظرة خاطبه على بن عيسى خطاباً فيه غلظة ، فقال له الحلاج : « قف حيث انتهيت ، ولا ترد عليه شيئاً وتادب وإلا قلبت عليك الأرض ، فتهيب على ابن عيسى من مناظرته ، وطلب من الخليفة أن يعفيه من مناظرته فأعفاه^(١) . »

وطارت شهرة الحلاج ، وصفت بغداد إعجاباً ببطلها ووليها ، وأسرع الوزير حامد إلى الخليفة يناشده العون ، ويطلب إبقاءً على ماء وجهه ، وحرصاً على مكانة الخليفة ، أن يصدر أمره السامي بسجن الحلاج ! أو على الأقل بتحديد إقامته ، مع سجن الخطرين من تلامذته ، وإبقاء القضية معلقة ، ليبقى الاتهام دائماً محلقاً فوق الحلاج وأنصاره !

واستجاب الخليفة ، وقبض على بعض أنصار الحلاج ، وأخذ الحلاج نفسه يتنقل بين السجن حيناً ، وبين مصادرة حريته وتحديد إقامته أحياناً ، طول ثمانية أعوام كاملة ، وكان سجنه بدار الخلافة وكان تحديد إقامته بمنزل صديقه وتلميذه نصر القشوري حاجب الخليفة ، لقد استهدفت الخلافة بهذا الحكم العجيب ، أن يكون الحلاج تحت سمعها وبصرها ، لتأمين وثبته وتبقى ثورته ، وتحد من اتصالاته وتنقلاته .

ومن ثم بدأت مرحلة حاسمة ، ومن أخطر مراحل حياة الحلاج

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤

وأجلها ، مرحلة خصبة ، أشد ما تكون الخصوبة، حية أقوى ما تكون الحياة .

مرحلة جهاد مرير لتحقيق رسالته في الإصلاح ، تحت ضغط ظروف قاسية مرهقة ، وجهاد أعلى وأشق ، ليلبغ كاله الروحي ، ولتحترق بشرته في لهب وجده المقدس ، وحبه الأسمى ، ليظفر بجوهره الخلود الكبرى ، جوهره الحياة ، التي ترتبط بالله ، فتقوم به ، وتتلقي عنه ، وتقتات بذكره ، وتظفر بأنسه ، وتنعم بإلهامه وتنفى إرادتها في إرادته ، ثم تحلق بمعراج وجدها ، حتى تراه سبحانه بوجدانها ، وتشاهده بقلبيها ، نورا ، هو نور السموات والأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى : سبحانه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

مرحلة أخذ الحلاج يضع فيها أخلد كتيبه وأبقاها ، وفي طليعتها كتاب — طاسين الأزل — الذي أنقذه من الفناء الذي صبته الخلافة العباسية على تراثه ، صديقه الوفي ، ابن عطاء سنة ٣٠٩ هـ ، في اللحظات الأخيرة .

كما أخذ يدنو رويدا رويدا ، من هدفه الروحي ، هدف التضحية والاستشهاد ، ليكون جديرا كما يقول : برسالته ، وكفا لجبه .

وأخذت شخصية الحلاج وفقوده ، يلعبان دورهما ، فأصبح المسكان الذي حدد لإقامته بدار نصر القشورى ، مكاناً فسيحاً رحباً ، مزوداً بكل شيء .

لقد امتد إليه سحره كما يقول صاحب تاريخ بغداد : « فأصبح بيتاً ناعماً كل من فيه يؤمن بالحلاج ويحبه ، ويلبى طلباته ، موسعاً عليه ، ماذوناً لمن يدخل عليه ^(١) » .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٤

وغدا سجنه بدار السلطان ، مدسة ومتدى ، يقول ابن كثير
« واستطاع الحلاج وهو بسجنه فى دار السلطان ، أن يستغوى جماعة من
غلمان السلطان ، وموه عليهم واستألم بضروب من حيله ، حتى صاروا
يحمونه ، ويدفعون عنه ، ويرفونه ، ويدخلون عليه من شاء » (١) .

بل لقد اتسعت حياة الحلاج رغم السجن وتحديد الإقامة ، فأصبح يغشى
مجلس الخليفة ، يعظه وينذره ، ويذهب نهاراً إلى جامع المنصور ، يلقى
دروسه ، ويشرح منهجه ، وفى الليل يواصل تهجده وتضرعه ، فى المسكن
الحبيب إلى قلبه ، بين القبور ، عند قبر الإمام أحمد بن حنبل .

ثم يعود بعد هذا كله إلى سجنه بدار السلطان حيناً ، وإلى المقر الذى
حدد له بدار نصر القشورى أحياناً ليواصل مقابلاته واتصالاته ، بالوزراء
والقادة والأمراء ، يحدثهم ويجادلهم فى فنون الحكم والسياسة .

كما يتصل أيضاً ويقابل العلماء والصوفية والأدباء ، يحدثهم ويعلمهم
أسرار الحب ، ومنازل القرب ، ومقامات التصوف .

جاء فى روضة المريدين ، لابن يزدان : « سئل الحلاج وهو فى
سجنه عن التصوف فقال :

« طوامس وروامس اللاهوتية ؟ فقال السائل : أفصح فى هذا المعنى ؟
فقال : لا عبارة عنه ؟ فقلت : لم أظهرته ؟ فقال : يعلمه من يعلمه ، ويجهله
من يجهله ؟ فقلت : أسألك بالله إلا فهمتنى ، فأنشأ يقول :

لا تعرض بنا فهذا بنان قد خضينا به بدم العشاق

وسئل عن الصوفى فقال : « من أشار إليه فهو متصوف ، ومن أشار
عنه فهو صوفى » .

وقال فى مرة أخرى عن الصوفى : « إنه وحدانى الذات ، لا يقبل
أحدًا ، ولا يقبله أحد » .

(١) البداية والنهاية ج ١١

وقال : معنى الخلق العظيم ، ألا يؤثر فيه جفاء الخلق ، بعد مطالعة الحق .

وقال : « إذا استوى الحق على سر عبد ، ملك الأسرار ، فيعانيها ويخبر عنها . »

وقال : « من أسكرته أنوار التوحيد حجب عن عبادة التجريد . »

وقال : « من خاف من شيء سوى الله ، أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجب بسبعين حجاباً ، أيسرها الشك . »

وقال : « لا يجوز لمن يرى غير الله أن يدعى أنه يعرفه ^(١) . »
وزاره الشبلي في سجنه ، فوجده جالساً يخط في التراب فجلس بين يديه حتى ضجر ، فرفع الحلاج طرفه إلى السماء وقال :
« إلهي لكل حق حقيقة ، ولكل خلق طريقة . ولكل عهد وثيقة ، ثم قال :

يا شبلي من أخذه مولاه عن نفسه ، ثم أوصله إلى بساط أنسه ، كيف تراه ؟

فقال الشبلي : وكيف ذاك ؟

فقال الحلاج : يأخذه عن نفسه ، ثم يردده على قلبه ، فهو عن نفسه مأخوذ ، وعلى قلبه مردود .

فأخذه عن نفسه تعذيب ، وردده إلى قلبه تقريب ، طوبى لنفس كانت له طائعة ، وشموس الحقيقة في قلوبها طالعة ثم أنشد ^(٢) :

طلعت شمس من أحبك ليلاً فاستضاءت فها لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل لشمس القلوب ليس تغيب

(١) الكواك البرية للمناوى ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) المحامات الكبرى .

واستمرت هذه الحياة ثمان سنوات استطاع الحلاج خلالها رغم سجنه
ورغم مصادرة حريته ، أن يوجه الأحداث في بغداد ، ويحرك تاريخها .

لقد استطاع طوال هذه السنوات ، أن يواجه الحرب في كل ميدان ،
وأن يحمي صديقه نصر القشورى . وأن يبقيه في القصر وفي الحكم أيضاً .

كما استطاع أن يدخل في الوزارة دائماً ، صديقه ابن عيسى ، وأن
يدفع بالقنائين ، أحبابه وتلاميذه وحزبه ، إلى الصدارة حيناً ، وإلى كراسى
الوزارة أحياناً .

كما استطاع الحلاج ، أن يبعد خصمه الأكبر حامد عن الصدارة ،
وعن الوزارة ، رغم صلاته الكبرى بالخليفة ، ورغم تهوذه الضخم في
الدوائر الأرستقراطية ، ولدى الشيعة ، وعمال الخراج ، ورجال المال .

وبجانب هذا وذاك ، كان الحزب العسكرى ، بهادن الحلاج ولا يبارزه
الخصومة ، بل كان في أكثر من موقف يصادقه ، ويمد يده إليه .

المحاكمة الكبرى

وفي نهاية عام ٨٣٠ هـ عاد مؤنس التركي ، كبير القواد العسكريين ، إلى بغداد ، بعد أن أنقذ دولة العباسيين في مصر ، من الفاطميين في المغرب .

ويصور لنا المستشرق - ماسنيون - تلك الحقبة الحاسمة من التاريخ ، وأثرها في قضية الخلاص وحياته ، تلك الحقبة التي انقبت فيها السياسة العسكرية العامة فجأة ، فأنجبت مسائل صغيرة من الصراع السياسي ، نتائج خطيرة ، بعيدة المدى في التاريخ .

يقول ماسنيون : «استفاد حامد من عودة مؤنس كبير القواد إلى بغداد ، كما استفاد من الأحداث نفسها .

فبعد أنقذ مؤنس مصر من الفاطميين ، كان عليه أن يحمي إيران ضد تهديد الدليبيين ، الذين دخلوا الرى بفضل واليها - الفارسي - أخ صعلوك مساعد مؤنس سابقاً ، وكان دائماً في حماية نصر وابن عيسى - أصدقاء الخلاص .

فعرض حامد على مؤنس ضرورة القضاء على أخ صعلوك ، ولما كان هذا أميراً ، سامانياً ، فلا بد من مجانبة الوزير الساماني ، وهو - الباعمي - وهو شافعي من انصار الخلاص^(١) .

ومثل هذا القلب في الإتجاه السياسي ، يقتضى التشديد في زيادة

(١) يقول الاستاذ أحمد أمين في كتابه - ظهر الإسلام ج ٢ ص ٧٠ -

« وكانت الدولة في أيامه مقسمة الإدارة بين سلطات ثلاث : فالدواوين والكتابة في يد الفرس ، والخلافة والقضاء في يد العرب ، والجنديّة والعسكرية بيد الترك ، وهذه السلطات الثلاث ، تتعارض وتتآمر ، وكل فرقة تدس لغيرها الدسائس »

الضرائب، ولن يوافق الخليفة على هذا، إلا إذا تخلى عن ثقته بابن عيسى، ونصر القشورى .

فلكى يقضى حامد على كليهما ، ويبلغ غرضه ، قرر استئناف النظر فى قضية الحلاج صديقهما .

وبفضل مؤازره ، كبير القواد مؤنس ، وبفضل رجل آخر هو أبو بكر بن مجاهد ، شيخ الحفاظ ، وله كلبه مسعوه فى بغداد، ومن خصوم الحلاج الألداء .

بهؤلاء الأنصار الأقوياء ، نجح حامد فى مؤامراته ، واستطاع إقناع الخليفة بمؤازرته^(١) .

وصدرت أوامر الخليفة تترى، وبمقتضى هذه الأوامر ، منع بن عيسى من النظر فى قضية الحلاج ، ومنع نصر القشورى من حراسته .

ثم منحت كل هذه الإختصاصات إلى حامد ، الخصم الألد الخصام الذى عاد إلى الوزارة ليستأنف سياسته المذالية القاسية ، وليعيد إلى المسرح محاكمة الحلاج .

ورددت محافل بغداد ، أن الحلاج فى طريقه إلى المحاكمة الفاصلة .
وثارت جماهير بغداد ، وتزعم الثورة ، صديق الحلاج الأمين ، ابن عطاء ، كبير علماء الخطابة وزعيمهم .

يقول ماسنيون : « وهتف الثوار ضد الوزير حامد بن العباس فى شوارع بغداد ، من أجل الاحتجاج ضد سياسته المالية، ومن أجل إنقاذ الحلاج معاً » .

وجاءت الفرصة الذهبية لحامد ، ففتح من الخليفة تفويضاً كاملاً بقمع الثورة ، وبمحاكمة الحلاج ، والقضاء عليه .

(١) شخصيات ثلقة فى الإسلام .

ودبر أمر الحلاج بلبيل ؛ وصدر الأوامر حاسمة ، بسجن الحلاج سجناً حقيقياً قاسياً ، وتكبيله بالأغلال والقيود .

يقول السلمي : سمعت عبد الواحد بن علي يقول : سمعت فارساً البغدادي يقول : لما حبس الحلاج ، قيد من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيداً ، وكان يصلي مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة^(١) .

وأعد للقضية شهودها ، كما صنعت وثيقة الاتهام فيها وكانت كما يلي :

١ — مراسلاته السرية مع القرامطة ؟

٢ — إعتقاد أتباعه بألوهيته ؟

٣ — قوله أنا الحق . . ؟

يقول ماسنيون^(٢) : ، ولعل بغداد كانت في ذلك الحين أكبر عاصمة في العالم المتمدن . . وهناك جرت المحاكمة ، على منصة مرتفعة ، كما حدث بالنسبة لجان دارك في قضية الحب الإلهي .

جرت في الإطار الفخم الذي يمثله قصر الخليفة العباسي ، من سنة ٨٣٠ هـ — ٩٢١ م إلى سنة ٨٣٠ هـ — ٩٢٢ م .

وجيء بالحلاج أمام هذه المنصة الفخمة العالية ، وفي يديه ورجليه ثلاثة عشر قيداً ، وانتشر الجند في كل مكان بالسلاح ، وقبض على أنصار الحلاج بالجملة ، وابتدأت حملات متتابعة قاسية لأرهاب الجماهير في بغداد .

واحتشد في ساحة الجلسة خصوم الحلاج جميعاً من كل لون ومذهب .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣١ .

(٢) شخصيات قلقة في الإسلام ص ٧٥ .

قتل بن عطاء !! ؟

وبدأت المحاكمة بانعجب حادث في تاريخ القضاء ، بدأت بإعدام زعيم ديني ، لم تعقد المحكمة لمحاكمته ، ولم يوجه إليه اتهاماً ، ذلك هو زعيم علماء الحنابلة ، أبو العباس بن عطاء .

لقد أراد الوزير حامد ، أن ييث في ساحة القضاء الخوف وأن يشيع فيها الرعب ، وأنه يمنع كلمة الحق ، بضربة عنيفة ، فيها نذير وإرهاب ووعيد ، وشاء الله سبحانه أن يكون ابن عطاء هو كبش الفداء .

يقول الحافظ الخطيب البغدادي^(١) ، أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيري ، أنبأنا أبو عبد الرحمن الثبلي ، قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول :

كان الوزير حامد بن العباس ، حين أحضر الحسين بن منصور ، أمره أن يكتب اعتقاده ؟ فكتب اعتقاده . فعرضه الوزير على الفقهاء ببغداد ، فأنكروا ذلك^(٢) .

ف قيل للوزير : إن أبا العباس بن عطاء يصبو قوله ، فأمر أن يعرض ذلك على أبي العباس بن عطاء فعرض عليه فقال :

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٨

(٢) لم يبين لنا كتاب من كتب التاريخ هذا الاعتقاد ؟ ولم يذكر لنا التاريخ من هم هؤلاء الفقهاء ؟ لأنه النوض المهادف الذي فرضه العباسيون على الخلاع وتاريخه .

هذا اعتقاد صحيح ، وأنا أعتقد هذا الإعتقاد ، ومن لا يعتقد هذا فهو
بلا اعتقاد .

فأمر الوزير بإحضاره فأحضر ، وأدخل عليه ، فجلس في صدر المجلس ،
فغاض الوزير ذلك .

ثم أخرج ذلك الخط ، فقال : هذا خطك ؟ فقال : نعم ، فقال تصوب
مثل هذا الاعتقاد ؟

فقال : مالك ولهذا ؟ عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم
وقتلهم ، مالك وبكلام هؤلاء السادة .

فقال الوزير : فكيف ؟ فضرب فكاه !! فقال أبو العباس : اللهم إنك
سلطت هذا عقوبة على عقوبة لدخولي عليه !!

فقال الوزير : خفه يا غلام فنزع خفه ، فقال : دماغه ، فما زال
يضرب رأسه ، حتى سال الدم من منخريه .

ثم قال : الحبس ، فقيل يتشوش العامة لذلك ، فحمل إلى منزله .
فقال أبو العباس :

اللهم أقتله أخبث قتلة ، واقطع يديه ورجليه !! فمات أبو العباس بعد
ذلك بسبعة أيام .

وقتل الوزير حامد بن العباس ، أفضع قتلة وأوحشها — بعد قتل
الحلاج — بعد أن قطعت يده ورجلاه ، وأحرق داره وكانوا يقولون :
أدر كته دعوة أبي العباس بن عطاء (١) .

(١) يقول العلامة ابن كثير في البداية والنهاية ج ١١ ص ١٤٤ في ترجمته لابن عطاء ،
وهو يتحدث عن عبادته : « وكان أبو العباس يقرأ في كل يوم ختمه ، فإذا كان شهر رمضان
قرأ كل يوم ويلة ثلاث ختمات ، وكان له ختمه يتدبرها ويتدبر معاني القرآن فيها ، فسكت
فيها سبعة عشر سنة ، ومات ولم يختمها .

شهود القضية

وفي هذا الجو النفسى الرهيب ، جرى بالشهود ، وكان الشاهد الأول ، هو — السمرى — وكان فى ماضيه من أتباع الخلاج تم انشق عليه .

يقول صاحب تاريخ بغداد^(١) :

« وأحضر حامد ، السمرى صاحب الخلاج ، وسأله عن أشياء من أمر الخلاج ، وقال له حدثنى بما شاهدته منه ؟

فقال له : إن رأى الوزير أن يعفىنى فعل ! ؟ فأعلمه أنه لا يعفيه ، وعاد فسأله عما شاعده ، فعاود استعفاؤه وألح عليه فى السؤال ، فلما تردد القول بينهما قال :

أعلم أنى إن حدثتك كذبتنى ، ولم آمن مكروهاً يلحقنى ، فوعده أن لا يلحقه مكروه ، فقال :

كنت معه بفارس ، فخرجنا نريد — اصطخر — فى زمن شات فلما صرنا فى بعض الطريق ، أعلنته بأنى قد اشتبهت خياراً فقال لى :

فى هذا المكان ! وفى مثل هذا الوقت من الزمان ؟ فقلت : هو شىء عرض لى .

ولما كان بعد ساعات ، قال لى : أنت على تلك الشهوة ؟ فقلت : نعم .

قال : وسرنا إلى سفح جبل ثلج ، فادخل يده فيه ، وأخرج إلى منه خيارة خضراء ودفعها إلى !

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٦

فقال له حامد : فأكلتها ؟ قال : نعم ، فقال له : كذبت يا ابن مائة
ألف زانية ، في مائة ألف زانية ، أوجعوا فكيه !! ؟ فأسرع الغلمان إليه ،
فامتلأوا ما أمرهم به ، وهو يصيح : أليس من هذا خفنا ؟

ثم أمر به فأقيم من المجلس ، وأقبل حامد يتحدث عن قوم من أصحاب
النيرنجات ، كانوا يعدون بإخراج التين وما يجري مجراه من القواكه ، فإذا
حصل ذلك في يد الإنسان ، وأراد أن يأكله صار بعراً .

وهكذا ضرب الشاهد وكذب ، كما ضرب الفقيه العالم وكذب من قبل .
وأصبح حامد الغاضب الثائر ، هو المحكمة كلها ، لا يتكلم سواه ،
ولا يحكم غيره ، إنه وحده الذى يملك دماء الناس وأعراضهم وكرامتهم !!
وإذا كان السمرى ، لم يؤد الشهادة كما يجب ، وكما أتفق من قبل ؛

فإن ابنته ألين عريكه ، وقلبيها يهفو إلى كل إغراء مادی . . . وحامد
ملء يديه الآمال والإغراء .

وجيء بابنة السمرى .

يقول — زنجى — أكبر رواة المحاكاة ، وقد حضرها بنفسه وعاش
أحداًها .

و (١) وحضرت بنت السمرى ، فسألها حامد عن الحلاج ، فذكرت
أن أباها السمرى ، حملها إليه — لتخدمه وهو يسكن دار الخليفة ، وأنها
لما دخلت عليه ، وهب لها أشياء كثيرة ، عدت أصنافها ، منها
رَبِطَةٌ خضراء .

وقال لها : قد زوجتك من ابني سليمان ، وهو أعز ولدى على ، وهو
مقيم بليسابور .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤ - ١٣٥

وليس يخلو أن يقع بين المرأة وزوجها خلاف ، أو تنكر منه حالا
من الأحوال ، وقد أوصيته بك ، فتم جرى شيء تنكريه من جهته ،
فصوى يومك ، واصعدى آخر النهار إلى السطح وقوى على الرماد ،
واجعل فطرك عليه ، وعلى ملح جريش ، واستقبلني بوجهك ، واذكري
لي ما أنكرت به منه ، فإنني أسمع وأرى ؟ .

قالت وكنت ليلة نائمة في السطح ، وابنة الحلاج معي في دار السلطان ،
وهو معنا .

فلما كان في الليل أحسست به وقد غشيتني ، فأنهت مذعورة منكرة
لما كان منه ، فقال :

إنما جئت لأوقظك للصلاة ، ولما أصبحنا نزلت إلى الدار ، ومعى بنته
ونزل هو ، فلما صار على الدرجة ، بحيث يرانا ونراه ، قالت بنته :

اسجدى له ؟ فقلت لها : أو يسجد أحد لغير الله ؟ وسمع كلامي لها فقال :
نعم إله في السماء ، وإله في الأرض .

قالت ودعاني إليه ، وأدخل يده في كمي : وأخرجها مملوءة مسكاً ،
فدفعه إلى وفعل هذا مرات ، ثم قال لي :

اجعلي هذا في طيبك ، فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل احتاجت
إلى الطيب .

قالت : ثم دعاني وهو جالس في بيت البوارى فقال : ارفعي جانب
البارية وخذي من تحته ما تريدن ، وأوماً إلى زاوية البيت لجئت إليها
ورفعت البارية ، فوجدت الدنانير تحتها مفروشة ملء البيت ، فبهرتني
ما رأيت من ذلك .

قال زنجي : وأقامت هذه المرأة معتقلة في دار حامد إلى أن قتل
الحلاج .

واستطاع الحلاج في بساطة ، أن يزيّف هذه الشهادة ، ولم تستطع
أبقة السمرى ، أن تقدم دليلاً واحداً على صدقها .

وهز القضاة رؤوسهم ، رغم تهديد حامد لهم ، وقالوا : لانصذر حكماً
بناء على أقوال امرأة ، لائتملك دليلاً ؟

وأخذ الوزير حامد يحضر الحلاج كل يوم إلى المحكمة ، مكبلاً بالقيود
محاطاً بالحنند .

ويبدأ الجدل والحوار ، ويحاول حامد ، أن يجد في كلام الحلاج منفذاً
أو سقطاً كما يقول ابن كثير : فأعجزه ذلك .

وتتابعت الأيام . وتوالت الشهور ، وشاهد يأتي وشاهد يذهب ،
والحلاج كالجبل الأثمن ، تتساقط على أقدامه اتهامات المبعضين ، ويندوب
أمام بيانه وإيمانه جدل المجادلين .

بل لقد استطاع الحلاج في محنته أن يكتسب كل يوم أنصاراً أقوياء ،
وعلماء أجلاء .

بطولة ابن عفيف

وقصة محمد بن عفيف مع الخلاج ، تقدم لنا صورة مشرقة من انتصارات الخلاج الروحية العجيبة .

فقد أرسله إليه الخليفة في سجنه ليجاده ، وكان ابن عفيف كما يقول — ماسنيون — : « أشعريا متطرفاً ، عالماً لا يثبت لجلده أحد من الناس » .

يقول ابن عفيف : إنه دخل على الخلاج فرأى نوراً يتلألأ على جبينه ووجد اطمئناناً يشيع الأمن والسلام في كل شيء يحيط به ، حتى لقد خيل إليه أن غرفة الخلاج في سجنه ، قطعة من الجنة .

ورأى عالماً على كلامه إشعاع ليس من علم الأرض ، فقبل يد الخلاج ورأسه ، وهتف : لم أر في حياتي ، عالماً ربانياً سوى هذا الشهيد .

وأبى أن يفارق حجرة السجن ، وطلب أن يبقى معه ليقاسمه ما يلقى ، وعجزت سياط الجلادين عن إقناعه .

يقول ابن كثير : لحمل بالقوة إلى حجرة أخرى ، وعلق من قدميه إلى السقف » .

وانصب على ابن عفيف جانب ضخم من الهول الذي ذاقه الخلاج ، وكان يقول : حسبي أن أشارك عبداً ربانياً في عذابه : وظل معه في سجنه يقاسمه الألم والعذاب ، حتى يوم مصرعه الرهيب .

عجائب الحلاج في سجنه

وبينما هذه للمهزلة الرسمية تجري ، وبينما قلب بغداد يخفق لها ، وأذن العراق تستمع إليها .

أخذت أحداث أخرى ، تجري في سجن الحلاج ، أحداث شقت طريقها إلى قلب بغداد ، فأطهته حتى عن المحاكاة ، ونفذت إلى أذن العراق ، فأطربته وأذهلته ، وطارت باسم الحلاج في الخافقين :

تلك الأحداث التي ألقى الناس إليها بأسماعهم ، هي عجائب الحلاج وسحره إن شئت ، وكراماته وآياته إن أحببت ؟؟

آيات سجلها التاريخ ، ومن العجيب حقاً ، أنها سجلت بأقلام خصومه لقد أذهلتهم حتى لم يستطيعوا حجبها أو محوها من ذاكرة التاريخ ، كما استطاعوا أن يحجبوا وأن يمحوا الكثير ، من سيرة الحلاج وتراثه وأيامه . يقول أحد بن فائق (١) : « لما حبس الحلاج ببغداد كنت معه ، فأول ليلة جاء السجناء وقت العتمة ، فقيده ووضع في عنقه سلسلة ، وأدخله بيتاً ضيقاً .

فقال له الحسين : لم فعلت بي هذا ؟ قال : كذا أمرت ؟ فقال له الحلاج : الآن آمنت مني ؟ قال : نعم ، فتحرك الحلاج ، فتناثر الحديد عنه كالعجين ، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب ، فرأى السجناء فضاء واسعاً ، فعجب من ذلك ، ثم مد الشيخ يده وقال :

الآن افعل ما أمرت به ، فأعاده كما فعل أول مرة ، فلما أصبح أخبر السجناء الخليفة المقتدر بذلك فتعجب ، وتعجب الناس . »

(١) أخبار الحلاج طبع باريس س ٩٠

ويقول محمد بن عفيف (١) : د لما رجعت من مكة ، ودخلت بغداد ، أردت أن ألقى الحسين بن منصور ، وكان محبوساً قد منع الناس عنه ، فاستعنت معارفى وكلوا السجان ، وأدخلنى عليه . فدخلت السجن والسجان معى ، فرأيت داراً حسنة ، ورأيت فى الدار مجلساً حسناً ، وفرشاً حسناً ، وشاباً قائماً كالخادم فقلت له :

أين الشيخ ؟ فقال : مشغول بشغل ؟ فقلت : ما يفعل الشيخ إذا كان جالساً ها هنا ؟

قال : ترى هذا الباب ، هو إلى حبس اللصوص والعيارين يدخل عليهم ويعظم فيتوبون ، فقلت : من أين طعامه ؟ فقال : تحضره كل يوم مائدة عليها ألوان الطعام فينظر إليها ساعة ، ثم ينقرها بأصبعه ، فترفع ولا يأكل ، فإذا الحلاج قد خرج إلينا فرأيت حسن الوجه ، لطيف الهيئة ، عليه الهيئة والوقار .

فإذا هو سلم على وقال : من أين الفتى ؟ قلت : من شيراز ، فسألنى عن مشايخها فأخبرته ، وسألنى عن مشايخ بغداد فأخبرته ، فقال :

قل لأبى العباس احتفظ بتلك الرقاع (٢) ثم قال : كيف دخلت ، فأخبرته .. فدخل أمير الجيش يرتعد ، فقال له : مالك ؟ قال : سعى بى إلى أمير المؤمنين بأنى أخذت رشوة ، وخليت أميراً من الأمراء ، وجعلت مكانه رجلاً من العامة ، وها أنا ذا أحمل لتضرب عنقى !! فقال :

إمض لا بأس عليك ، فذهب الرجل ، وقام الشيخ إلى صحن الدار ، وجنا على ركبتيه ، ورفع يديه ، وأشار بمسبحته إلى السماء وقال : يارب ،

(١) أخبار الحلاج طبع بباريس ص ١٠١ ، ١٠٢ ، وكتابة بداية حال الحلاج ونهايته لابن با كويه ، وسيرة ابن عفيف
(٢) صحف فيها كلمات للحلاج . ويرى ماسنيون أنها كتاب طاسين الأزل .

ثم طأ رأسه حتى وضع خده على الأرض وبكى حتى ابتلت الأرض من من دموعه ، وصار كالمغشى عليه .

وبينما هو على تلك الحال ، دخل أمير الجيش فقال : عني ، قال ابن خفيف : وكان الحلاج جالسا في طرف الصفة ، وفي آخر الصفة منشفة ، وكان طول الصفة خمسة أذرع ، فمد يده وأخذ المنشفة ، فلا أدري أطالت يده ، أم جاء المندبل إليه ، فمسح وجهه بها ، فقلت هذا من ذاك .

ويقول — زنجي — أكبر رواة محاكاة الحلاج ، وصديق الوزير حامد : (١) كنت يوماً وأبي بين يدي حامد ، ثم نهض من مجلسه وخرجنا إلى دار العامة ، وجلسنا في رواقها ، وحضر هارون بن عمران الجهمي ، فجلس بين يدي أبي ولم يحادثه ، فهو في ذاك إذ جاء غلام حامد الذي كان موكلاً بالحلاج ، وأومأ إلى هارون بن عمران ، أن أخرج إليه ، فنهض عن المجلس مسرعاً ، ونحن لا ندرى ما السبب .

فغاب عنا قليلاً ، ثم عاد وهو متغير اللون جداً ، فأنكر أبي ما رآه منه ، وسأله عنه فقال :

دعاني الغلام الموكل بالحلاج ، فخرجت إليه ، فأعلمني أنه دخل إليه ومعه الطبق ، الذي رسم أن يقدمه إليه في كل يوم ، فوجده ملاً البيت من سقفه إلى أرضه ، وملاً جوانبه ، فماله ما رأى من ذلك ، ورمى بالطبق من يده ، وخرج من البيت مسرعاً ، وأن الغلام ارتعد وانتفض وحم ! وبني هارون يتعجب من ذلك .

ويقول الخطيب البغدادي (٢) وبلغ حامداً من بعض أصحاب الحلاج أنه ذكر أنه دخل إليه ، الموضع الذي هو فيه ، وخاطبه بما أراده ، فأنكر ذلك كل الإنكار .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٧ — ١٣٨

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٩

وتقدم بمسألة الحجاب والبوايين ، وقد كان رسم أن لا يدخل إليه أحد .
وضرب بعض البوايين ، فخلقوا بالآيمان المغلظة أنهم ما أدخلوا أحداً من
أصحاب الحلاج إليه ، ولا اجتاز بهم وتقدم يتفقد السطوح ، وجوانب
الحيطان ، فتفقدوا ذلك أجمع ، ولم يوجد له أثر ولا خلل
فسأل الحلاج عن دخول من دخل إليه فقال : من القدرة نزل ، ومن
الموضع الذى نزل إلى منه خرج ٢١ ، .

اتجاهات هادفة

في قضية الحلاج

رأى حامد أن قضية الحلاج ، قد تحولت إلى مظاهرة سياسية ودينية كبرى ، مظاهرة أصبح بطلها الوحيد ، هو الحلاج .

وأن المحاكمة قد تحولت أو كادت إلى ما يشبه التكريم الرائع لبطل ولى ، جنت الجماهير بحبه وتقديره ، وسيح خيال هذه الجماهير ، يجرى مبهور الأنفاس ، خلف بطولته وكراماته .

وامتد سحر الحلاج إلى أكبر رأس بين الخابلة — ابن عطاء — وإلى أرفع رأس بين المعتزلة — ابن عفيف — فلم يكتفوا بتأييد الحلاج ، بل قدموا أرواحهم فداء له .

وإذن فيجب أن يحدث انقلاب سريع هادف في سير القضية ، فلم تعد النهم السابقة ، تكنى لإدانة الحلاج ، وتحطيمه وتشويه مكانته وقداسته .

ودبر الأمر ليليل ، ومن ثم قامت حملات بوليسية ضخمة للارهاب العام ، حملات تفاجيء كل بيت من بيوت أنصار الحلاج وأعوانه ، بدعوى البحث عن كتبه وآثاره .

ودبت حياة جديدة في القضية ، ونها المسرح للرحلة الحاسمة .

يقول الخطيب البغدادي : « جد^(١) حامد في طلب أصحاب الحلاج ، وأذكى العيون عليهم وفتش منازلهم ، وحصل في يده منهم ، حيدرة ، والسمرى ، ومحمد بن على القناتى ، والمعروف بأبى المغيث الهاشمى .

واستتر المعروف ، بابن حماد ، وكبس منزله ، وأخذت منه دفاتر

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٥ .

كثيرة ، وكذلك من منزل محمد بن علي القناني ، في ورق صيني وبعضها مكتوب بماء الذهب ، مبطن بالديباچ والحرير ، محلاة بالأديم الجيد .

ثم يقول : وكان في السكتب الموجودة عجائب من مكاتباته أصحابه النافذين إلى النواحي ، وتوصيتهم بما يدعون الناس إليه وما يأمرهم به ، من نقلهم من حال إلى حال ، ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى استجابتهم . واتقيادهم .

وجوابات لقوم كاتبوه بالفاظ مرموزة ، لا يعرفها إلا من كتبها ، ومن كتبت إليه ، ومدارج فيها ما يجري هذا الجرى .

وفي بعضها صورة فيها اسم الله تعالى مكتوب على تعويج وفي داخل ذلك التعويج مكتوب - على - عليه السلام كتابة لا يقف عليها إلا من تأملها .

وإذن فقد أخذت الاتهامات الجديدة ، تتجه اتجاهها سياسياً غامضاً . والغموض هنا عن قصد ، وعن عمد ، حتى يسبح الخيال ما شاء في والإتهام ، ويوجهه إلى كل هدف وأفق .

فالحلاج في هذا الإتهام الجديد ، له أصحاب وأتباع ، أنفذهم إلى كل ناحية ، من أنحاء العالم الإسلامي ، ودرهم وزودهم بما يدعون الناس إليه ١١ والدعوة الحلاجية منظمة تنظيماً سياسياً وروحياً بارعا ، ومن أدلة هذا التنظيم الروحي ، أن الحلاج يباشر قلوب أتباعه بالثرية والإلهام ، ثم ينقلهم في الطريق الروحي الصاعد ، من حال إلى أخرى ، ومن مرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، من السكال ، أو من الفناء ، أو من الاتحاد والحلول ١٢

ومن أدلة التنظيم السياسي الهادف ، أن الحلاج قد أمر أتباعه أن

يستعملوا الحكمة في دعوتهم السياسية فيخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم .

وخطابات هؤلاء الدعاة مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ، أو من كتبت إليه .

وكلمة على عليه السلام هنا تصلح لاتهام الحلاج بمنصرة الشيعة ، أو بتأييد القرامطة ، أو بالتهمتين معا .

أما الدليل الحاسم الناطق على هذا الإتهام العريض ، فلا حاجة إليه ، لأن الخطابات قد كتبت بالرمز ، والرمز لا يفهمه ، ولا يفقهه إلا من كتبه ، أو من أرسل إليه ، وهذا أعجب لإتهام عرفه التاريخ !!

فإذا استقام هذا الإتهام العجيب في نظر حامد وأعوانه ، فليمضى الإتهام إلى وجهة أخرى .. إلى النيل من قداسة الحلاج الدينية .. ومكانته الروحية .

يقول الخطيب البغدادي وهو يواصل الحديث عن القضية : « وحضرت^(١) مجلس حامد - الرواية على لسان زنجي وهو أحد شهود المحاكمة - وقد أحضر سبط خياذر لطيف ، حل من دار محمد بن علي القناني - أكبر ظني - فتقدم بفتحه ففتح ، فإذا فيه قدر وقوارير ، فيها شيء يشبه لون الزئبق ، وكسر خبز جافة ، وكان السمرى حاضراً جالسا بالقرب من أبي ، فعجب أبي من تلك القدر ، وتصيرها في سبط مختوم ومن تلك القوارير - وعندنا أنها أدهان - ومن كسر الخبز .

وسأل حامد السمرى عن ذلك فدافعه عن الجواب ، واستفاه منه ، وألح عليه في السؤال ، فعرفه أن تلك القدر رجيع الحلاج !! وأنه يستشفى

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٦ - ١٣٧

به ، وأن الذى فى القوارير بوله ، فعرف حامد مقاله ، فعجب منه من كان
فى المجلس ! !

واتصل القول فى الطعن على العلاج . . . وأقبل أبى يعيد ذكر تلك
الكسر ، ويتعجب منها ، ومن احتفاظهم بها ، حتى غاظ السمرى ذلك
فقال له :

هو ذا ، أسمع ما نقول ، وأرى تعجبك من هذه الكسر ، وهى بين
يديك ، فكل منها ما شئت ، ثم انظر كيف يكون قلبك للعلاج بعد أكلك
ما تأكله منها فتصيب أبى أن يأكلها ، وتخوف أن يكون فيها سم .
وأحضر حامد العلاج ، وسأله عما كان فى السفط ، وعن احتفاظ
أصحابه برجيعة وبوله ؟ فذكر أنه شىء ما علم به ، ولا عرفه . .

الكلمة القاتلة ؟!

وعجزت هذه الإتهامات أيضاً عن تحقيق الغرض منها ، وشعر القضاة رغم التعليمات الصادرة إليهم ، يعجزهم عن إصدار حكم الإدانة القاتل .

فعيون العلماء والفقهاء والصوفية ترقبهم ، وصيحات الجماهير الغاضبة تحترق آذانهم ، وفي أعماق قلوبهم يضح ضميرهم ويتمرد !!

والوزير حامد وعصبته من وراء هذا كله ، يمزقهم الغضب المرعد المجنون ، ويقتلهم الخقد الأسود المرير ، وقصر الخليفة ، يرقب المأساة ، وقد تمزق أحزاباً وشيعاً .

فالخليفة ومعه كبير قواده ، وجمهرة وزرائه ، يساندون حامد وعصبته ، من وراء ستار ، بقوة وإصرار .

وأم الخليفة ، وحاجبه نصر القشورى ، والوزير بن عيسى ، يساندون الحلاج جهرة ، ويرفعون الصوت عالياً بالدفاع عنه .

وكادت القضية ، أن تحدث لإنهياراً في الحكم العباسى ، وتحفز الحنابلة والصوفية والشيعية وأنصار الحلاج ، للتمرد والإنقضاض ، على الخلافة العاجزة الممزقة .

وصدرت الأوامر حاسمة من القصر ، إلى حامد وإلى القضاة ، وانتاب جو المحكمة قلق وتوتر ، وحوم حولها تهديد ووعيد ، وتمشى في ساحتها ربح عاصف ، يوشك أن يكون برقاً ورعداً .

واققلب جو المحكمة ، إلى ما يشبه محاكم التفتيش التاريخية ، ويواصل الخطيب البغدادي روايته على لسان - زنجى - فيقول :

(١) وكان يخرج إلى حامد ، في كل يوم ، دفاتر عما حمل من دور أصحاب الحلاج ، ويجعل بين يديه ، فيدفعها إلى أبي ، ويتقدم إليه بأن يقرأها عليه ، فكان يفعل ذلك دائماً :

فقرأ عليه في بعض الأيام من كتب الحلاج ، والقاضى أبو عمر حاضر والقاضى أبو الحسين بن الأشنانى ، كتاباً حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه ، أفرد في داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسة ، ولا يدخله أحد ، ومنع من تطرقه .

فإذا حضرت أيام الحج ، طاف حوله طوافه حول البيت الحرام ، فإذا انتضى ذلك ، وقضى من المناسك ما يقضى بمكة مثله ، جمع ثلاثين يثيوا عمل لهم ما يمكنه من الطعام ، وأحضرهم إلى ذلك البيت ، وقدم إليهم ذلك الطعام ، وتولى خدمتهم بنفسه .

فإذا فرغوا من أكلهم ، وغسل أيديهم ، وكسا كل واحد منهم قميصاً ، ودفع إليهم سبعة دراهم أو ثلاثة — الشك منى — فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج ١١١

فلما قرأ أبي هذا الفصل ، التفت أبو عمر القاضى إلى الحلاج ، وقال له : من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الإخلاص للحسن البصرى ؟ فقال له أبو عمر : كذبت يا حلال الدم ... قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن البصرى بمكة ، وليس فيه شيء مما ذكرته ؟

فلما قال أبو عمر يا حلال الدم ، قال له حامد : اكتب بهذا فتشغل أبو عمر بخطاب الحلاج .

فأقبل حامد يطالبه بالكتابة بما قاله ، وهو يدافع ويتشغل إلى أن مد حامد الدواة من بين يديه إلى أبي عمر ، ودعا بدرج فدفعه إليه ، وألح

(١) تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٣٨ .

عليه حامد بالمطالبة بالكتابة إلخاحاً لم يمكنه معه المخالفة!! فكتب بإحلال دمه وكتب بعض من حضر المجلس .

ولماتين الحلاج الصورة قال : ظهري حمى ، ودعى حرام . وما يحل لكم أن تتأولوا على ، واعتقادی الإسلام ، ومذهبي السنة . وتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وطلحة والزبير ، وسعد وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف وأبي عبيدة الجراح ، ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين ، فأنه الله في دمي ٢٠١

ولم يزل يردد هذا القول ، والقوم يكتبون خطوطهم ، إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه ، ونهضوا عن المجلس ، ورد الحلاج إلى موضعه الذي كان فيه .

ورفع حامد ذلك المحضر إلى والدي ، وتقوم إليه ، أن يكتب إلى المقتدر بالله — الخليفة — بنخب المجلس ، وما جرى فيه ، وينفذ الجواب عنها ، فكتب الرقعتين ، وأنفذ الفتوى إلى المقتدر بالله . وبذلك تمت مهزلة دامية ، من أعجب مهازل التاريخ ، بل من أبشع مآسيه .

مهزلة اشترك فيها الخليفة ، وكبير قواده مؤنس ، وكبير وزرائه حامد ومن ورائهم حشد ضخم ، من المنافقين والمرتشين والمحتكرين ، ومحترفي السياسة المتفعين ، الذين يسبحون مع التيار المنتصر .

اشتركوا جميعاً في قتل سافر ، وليخنفوا صوت الحق ، الصوت الرهيب ، الذي ارتفع في أفقهم السياسي ، ليهدد مكانهم ونفوذهم واستقلالهم .

مهزلة سياسية لبست ثوب الدين ، وعجز حتى هذا الثوب ، عن أن يستر المهزلة ، فجاء الثوب ممزقاً مهلهلاً :

يقول الأسطخري : ولم يعرف للحسن البصري ، كتاباً باسم الإخلاص :

ومع هذا وضعت الرواية على لسان الخلاج ، اسم هذا الكتاب ، ووضعت على لسان القاضي ، أنه قرأه بمكة ٩١١

ثم عجزت الرواية المصنوعة نفسها ، عن أن تلبس الحكم ثوباً شرعياً فالقاضي يقول وهو غاضب ، كلمة لا يقصد معناها ، ولا يريد حقيقتها ، والوزير يتلقف الكلمة . في إصرار عجيب ، ثم رغم القاضي إرغاماً عليها ، وعلى توقيع الحكم باسمها .

يقول المستشرق ماسنيون^(١) . « هنالك استطاع حامد أن يتآمر مع القاضي المالكي أبي عمر الجماوي ، وهو معروف بتعلقه للقائمين بالأمر ، على الحكم الذي سيصدر بإعدام الخلاج وأسبابه ٩١١ »

وذلك بالاحتجاج بمذهب الخلاج بالاستغناء عن الحج ، ليثبته أمره بأمر القرامطة الثائرين ، الذين أرادوا هدم الكعبة ٩١١

ومن عجب أن الخلاج حج ثلاث مرات ، وقد رفض القاضي الخنقي ابن بهلول الموافقة على حكم ابن عمر ، ولكن مساعدته — الأشناني — قبل مساعدته ، ابن عمر في هذا الاتجاه .

ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية ، وقد وجد عبد الله بن مكرم ، رئيس الشهود المحترفين ، عدداً وافراً منهم ، وافقوا على الحكم ، بلغ فيما يقال ٨٤ .

وذلك بإضافة فقهاء وقراء إلى أعضاء المحكمة ، وكان جزاء ابن مكرم ظفروه بمنصب القضاء . بطريقة شرفية ، أي لا يمارس القضاء فعلاً .

(١) شخصيات قلقة في الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٧٧

الحلاج ينذر الخليفة

أدرك الحلاج أن المؤامرة قد بلغت نهايتها، وأنه في طريقه إلى الإستشهاد،
الإستشهاد الذي طالما حن إليه ، وتنبأ به .

كما أدرك الهدف من هذا الحشد من الاتهامات الدينية ، التي تصوره
دجالاً مشعوذاً تارة ، وملحداً مارقاً تارة أخرى ، إنها تستهدف أول
ما تستهدف ، أن تزلزل في قلوب الجماهير ، تلك القدسية الدينية التي تنطوي
عليها قلوبهم للحلاج .

وأن تظهر الخلافة وأنصارها ، بمظهر الدفاع عن العقيدة الإسلامية
وحايتها .

وبين تحاول هذه الاتهامات وضيعيها ، تحتقن وتحتفي صيحات الحلاج ،
في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وتذوب وتتوارى ، حملاته على الفساد
والمفسدين ، والمنحلين والمحتكرين .

فإذا انطفأ ذلك البريق الساحر ، الذي يترقرق حول الحلاج ،
وتمزقت تلك الهالة المضيئة التي تحيط بكلماته وحياته ، وتقطعت الخيوط
الروحية ، التي تربطه بوجدان الشعب وضميره ، وحيل بين البطل وردائه ،
والولى وشعاعه .

حينئذ تستطيع الخلافة أن تضرب ضربتها الانتقامية الكبرى ، وأن
تخضب وجه الأرض ، بدم مهدر ضائع ، لا يثور من أجله محب ، ولا
يغضب له منتقم !!

أدرك الخلاص هذا كله وقدره ، بل وصوره لنا في مشاهد حية تكاد لصدقها ، تكون نبوءة مبصرة .

لم يجزع الخلاص ولم يضطرب ، لقد أدرك بذوقه وبوجدانه ، منذ أمد بعيد ، أنه في طريقه إلى الاستشهاد .

ولكنه اعتزم أن يمضى قدماً في منهجه ورسالته ، وأن يقول كلماته الأخيرة ، للخليفة نفسه .

وطلب الخلاص مقابلة الخليفة ، والخليفة دائماً كان يخاف الخلاص ويرهبه ، وكان يحرص الحرس كله ، على أن يبدو أمام الجماهير ، بريئاً من عذابه ودمه .

وأذن الخليفة بمقابلة الخلاص ، كما أذن أيضاً الوزير حامد بأن يشهد هذه المقابلة ، بناء على طلبه وإلحاحه .

وحل الخلاص مقيداً إلى الخليفة ، فدخل مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، وألقى بتحية الإسلام .

ثم أخذ يحذر الخليفة وينذره ، ويطلبه بإصلاح الأداة الحكومية حتى يرضى الله عنه ، ويباعد المفسدين في الأرض . وتطبيق الشريعة روحاً ونصاً ، حتى تتحقق رسالة القرآن .

ثم انتقل الخلاص بالحديث إلى قضيته ، وموقف الخليفة منها ، فحذره . الغرور بالخلافة ، والإعتزاز بالملك ، لأن من اعتز يغير الله ذل ، وأفهمه أنه آلة يحرّكها القدر الإلهي ... ثم قال .

(١) من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ثم حاكم ومحكوم عليه ، وواسطة هي السبب ، في إيصال الحكم بالمحكوم عليه ، فإن كان ثم جور

(١) من مخطوطات الخلاص نشر ماسنيون . . باريس .

أو عدل ، نسب إلى الواسطة في الظاهر ، والرب يتحاشى عن أن يوصف بذلك .

وإنما أنت واسطة، فنقد أحكام الرب ومشيتته . فيمن يشاء من عباده، بما شاء، كما شاء .

وأنا عبد من عبيد الله ، مستسلم لقضاء الله ، صابر لحكم الله ، راض بقضاء الله : فافعل ما حركت له ، واعمل بما استعملت فيه .

وكن بعد ذلك شديد الحذر ، فيما تأتي به وتذر ، وانظر في عواقب أمرك وتأمل ما تأتيه بثاقب فهمك ، وصافي فكرك ، فإن رأيت الصلاح فيما قام في نفسك ، فامض حكم عدلك .

وإن لا أعترض عليك ، ولا ألومك في فعلك ، ولكني أقول ، كما قال الخليل . . وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين . .

ثم خرج الحلاج كما دخل ، مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، مطمئن القلب ، لقد أدى واجبه كاملاً ، وإنه لفي طريقه إلى القمة، القمة الشاهقة، قمة الإستشهاد في رداء من البطولة السامقة ، بل في إشرافة متلاثلة ، من المحبة المضحية .

الخليفة يعتمد الحكم

وخيم على القصر صمت مطابق ، حزين مرتعد ، لقد جاءت الساعة الحاسمة ، وقلب الخليفة ، الذى طالما انتظر هذه اللحظة وتمناها ، إنه ليخفق اليوم ، خفقات أقرب إلى الرعب ، منها إلى البهجة والنصر .

إن بغداد لترتعد غضباً لولها ، وإن رعدة الغضب لتوشك أن تنفجر ، وإن فى انبجارها ، لما يرعب الخليفة ، ويمزق وجدانه ، ويحرق قلبه .

يقول ماسنيون : « وأصيب الخليفة بالحمى فى اليومين التاليين للحكم على الحلاج ، وفى هذا الجو العاصف ، بذل نصر أمير البلاط ، ووالدة الخليفة سعيهما لدى الخليفة ، فبدل حكم الإعدام » .

ويقول الخطيب البغدادى مصوراً لهذه الفترة الحرجة ^(١) — على لسان ما كتب به زنجى — « وأبطأ الجواب يومين ، فغلظ ذلك على حامد . ولحقه ندم على وتخوف أن يكون قد وقع غير موقعه

ولم يجد بداً من نصره ما عمله ، فكتب بخط والدى رقعة إلى المقتدر بالله . فى اليوم الثالث . يقتضى فيها ما تضمنته الأولى . ويقول :

إن ما جرى فى المجلس قد شاع وانتشر ، ومتى لم يتبعه قتل الحلاج افتتن الناس به . لم يختلف عليه إثنان ، ويستأذن فى ذلك ، وأتخذ الرقعة إلى مفلح ، وسأله لإصاها ، وتنجز الجواب عنها ، وإنفاذه إليه .

ويقول ماسنيون ^(٢) : « هنالك لوح حامد أمام الخليفة . شبح ثورة اجتماعية حلاجية ، وراح يسعى للإتفاق مع كبير القواد مؤنس . على الخلاص من الحلاج وأصدقائه » .

(١) شخصيات قلقة ص ٧٧ .

وتدخل مؤنس بنفوذ العسكري الكبير لدى الخليفة ، وتحت إلماحه المتواصل ، وقع الخليفة في تردد أمر الإعدام ، ملقياً بتبعة دمه على القضاء .

يقول البغدادى (١) : « فعاد الجواب من المقتدر بالله — إلى حامد — بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله ، وأباحوا دمه .

فلتحضر محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة ، وليتقدم إليه بتسلمه وضربه ألف سوط ، فإن تلف تحت الضرب ، وإلا ضرب عنقه .

فسر حامد بهذا الجواب ، وزال ما كان عليه من الإضطراب ، وأحضر محمد بن عبد الصمد ، وأقرأه إياه ، وتقدم إليه بتسلم الحلاج ، فامتنع من ذلك ، وذكر أنه يتخوف أن ينتزع منه .

فأعلمه حامد ، أنه سيبحث معه غلبانه ، حتى يصيروا به إلى مجلس الشرطة في الجانب العربى

ووقع الاتفاق على أن يحضر بعد عشاء الآخرة ، ومعه جماعة من أصحابه ، وقوم على بغال مؤكفة ، يحمرون مجرى الساسة — ويلبس الحلاج مثلهم ، ويدخل فى غمارهم — حتى لا ينتزع .

ووأصاه بأن يضربه ألف سوط ، فإن تلف حز رأسه ، واحتفظ به ، وأحرق جثته

وقال له حامد : إن قال لك ، أجرى لك الفرات ذهباً وفضة ، فلا تقبل منه ، ولا ترفع الضرب عنه .

فلما كان بعد عشاء الآخرة ، وافى محمد بن عبد الصمد إلى حامد ، ومعه رجاله والبغال المؤكفة ، فتقدم إلى غلبانه بالركوب معه ، حتى يصل إلى مجلس الشرطة .

وتقدم إلى الغلام الموكل به ، بإخراجه من الموضع الذى هو فيه ،
وتسليمه إلى أصحاب محمد بن عبد الصمد .

وأخرج الحلاج وأركب بعض تلك البغال ، واختلط بجملة الساسة ،
وركب غلمان حامد معه حتى أوصلوه إلى الجسر ثم انصرفوا ، وبات هناك
محمد بن عبد الصمد ورجاله .

ليلة المصرع ؟

عن ابراهيم بن شيبان قال ^(١) دخلت على ابن سريج القاضي، يوم أفتوا في قتل الحلاج، فقلت : يا أبا العباس ، ما تقول في فتوى هؤلاء ، في قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلمهم نسوا قول الله تعالى : أن تقتلون رجلاً أن يقول ربى الله . . .

ويقول الواسطى : ^(٢) قلت لابن سريج ، ما تقول في الحلاج قال : أما أنا أراه حافظاً للقرآن ، عالماً به ، ماهراً في الفقه ، عالماً بالحديث والأخبار والسنة ، صائماً الدهر ، قائماً الليل يعظ ويبكى . . .

وهكذا كان الحلاج ، حتى في ليلة الهول ، ليلة المصرع ، لقد أعرض عن الدوى الذى أحدثه النبأ العظيم ، وأقبل على ربه يناجيه بمواجيد قلبه ، وألحان حبه .

يقول ابنه أحمد . ^(٣) فلما كانت الليلة التى أخرج فى صبيحتها والذى من الحبس — للقتل — قام فصلى ركعتين ، فلما فرغ من صلاته ، لم يزل يقول : مكر ، مكر ، إلى أن مضى من الليل أكثره ، ثم سكت طويلاً ثم قال :

حق ، حق ، ثم قام قائماً وتغطى بإزار ، وانتزى بمنز ، ومد يديه نحو للقبلة ، وأخذ فى المناجاة .

(١) أخبار الحلاج طبع بباريس

(٢) " " " " "

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ١٤١ - ١٤٢

وكان خادمه أحمد بن فاتك حاضراً ، فحفظنا بعضها ، فكان من مناجاته :
نحن يشواهدك نلوذ ، وبسنا عزتك نستضيء ، لتبدي ماشئت من
شأنك ومشيتك ، وأنت الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله .
يا مدّهر الدهور ، ومصورّ الصور ، يا من ذلك لك الجواهر ، وسجدت
لك الأعراض ، وانعقدت بأمره الأجسام ، وتصورت عنده الأحكام .
يا من تجلّى لما شاء ، كيف شاء ، مثل التجلّى فى المشيئة ، لأحسن صورة .
والصورة هى الروح الناطقة ، التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة .
تم أوعزت إلى شاهدك لما أردت بدايتى ، وأظهرتنى ، عند عقيب كراتى .
وأبديت حقائق علومى ومعجزاتى ، صاعداً فى معارج إلى عروش أزيلى ،
عند القول من بريأتى .
إنى أحتضر ، وأقتل ، وأصلب ، وأحرق ، وأحمل على السافيات (١) .

ثم أنشأ يقول :

أنعى إليك نفوساً طاح شاهدها	فيما وراء الخيـث أوفى شاهد القدم
أنعى إليك قلوباً طال ما هطلت	سحائب الوحى فيها أبجر الحكم
أنعى إليك لسان الحق مذ زمن	أودى وتذكاره فى الوهم كالعدم
أنعى إليك يياتاً تستكين له	أقوال كل فصيح مقول فهم
أنعى إليك إشارات العقول ممأ	لم يبق منهن إلا دارس الرمم
أنعى وحبك أخلاقاً لطائفه	كانت مطاياهم من مكد الكظم
مضى الجميع فلا عين ولا أثر	مضى عاد وفقد الألى إرم
وخلفوا معشراً يحذون لبسهم	أعصى من البهم بل أعصى من النعم

وعن إبراهيم بن فانك قال : « (١) دخلت على الحلاج في الليلة الأخيرة وهو في الصلاة ، مبتدئاً بقراءة سورة البقرة ، فصلى ركعات حتى غلبني النوم . فلما انتهت سمعته يقرأ سورة — حم عسق — فعملت أنه يريد الختم ، فختم القرآن في ركعة واحدة ، ثم قرأ في الثانية ما قرأ ، ثم ضحك إلى وقال : ألا ترى أني صلي لرضائه ، من ظن أنه يرضيه بالخدمة ، فقد جعل لرضاه ثناً ٢١ » .

ويقول الرزاز : « (٢) كان أخى خادماً للحسين بن منصور قسمته يقول : لما كانت الليلة التي وعد من الغد بقتله ، قلت : ياسيدي أوصني ، فقال لي :

« عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك » .

ثم أنشأ يقول :

عجبت منك ومنى يا منية الممنى
أدنينى منك حتى ظننت أنك أنى
وغبت في الوجد حتى أفنيتنى بك عنى

ثم أخذ يترنم وبرقص ، وهو في حالة من النشوة العارمة ، والوجد العنيف ، جعلت ابن خفيف ، يعتقد أن جدران سجنه كانت أيضاً تترنم بقوله :

لى حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشى على خدي مشى
روحه روحى ، وروحي روحه إن يشا شئت ، وإن شئت يشا

(١) أخبار الحلاج

» » (٢)

مصرع الشهيد

وجاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى العقدة ، سنة تسع وثلاثمائة ،
فشهدت بغداد أكبر حشد عرفه تاريخها !!

اجتمع هذا الحشد العظيم ، على ضفاف دجلة ، راجف القلب ، دامع
العين ، كظيم الغيظ ، وتركزت نظراته على الحلاج ، الذى وقف فى أغلاله
وقيوده ، مشرق الوجه ، عال الرأس ، شاحنا جليلا وقد أحاطت به صفوف
الجند ، وطوقته ربانية العذاب ، وارتفعت إلى السماء قوائم خشبية غليظة
جلست بالسواد ، هى الآلة التى أعدت ، لجلده وعذابه وصلبه .

قال الياقوتى : « سمعت الحلاج عند ما تقدم للصلب يقول : يا معين
الفناء على أعنى على الفناء » .

ويقول القاضى أبو العلاء الواسطى : « لما جرى بالحسين بن منصور
الحلاج ليقتل ، أخذ يتبختر فى قيده ، وهو ينشد :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لى بأرض مستقرا
فنتلت من الزمان ونال منى وكان مناله حلوا ومرأ

وعن إبراهيم بن فائق قال : (١) لما أتى بالحسين بن منصور ليصلب ،
رأى الخشب والمسامير ، فضحك كثيرا حتى دمعت عيناه ، ثم التفت إلى
القوم ، فرأى الشبل يذنبهم ، فقال له :

يا أبابكر ، هل معك سجادتك ؟ فقال : بلى يا شيخ ، قال . أفرشها لى ،
ففرشها ، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين ، وكنت قريبا منه ،
فقرأ فى الأولى ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : « لنبلونكم بشيء من الخوف

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٠ - ١١ .

والجوع .. الآية ، وقرأ في الثانية ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت .. الآية » ، فلما سلم ذكر أشياء لم أحفظها ، وكان بما حفظته قوله :

اللهم إنك المنيجي^(١) عن كل جهة ، المتخلي عن كل جهة ، بحق قدمك على حدى ، وحق حدثي تحت ملابس قدمك ، أن رزقنى شكر هذه النعمة ، التى أنعمت بها على ، حيث غيت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك ، وحرمت بها غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكشونات سرك .

هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى ؟ تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك ، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم ، لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد !!

ثم سكت وناجى سراً ، فتقدم أبو الحارث السيف ، فلفظمه لكمة هشمت أنفه ، وسال الدم على شديه !!

فصاح الشبلى ومزق ثوبه ، وغشى على أبى الحسن الواسطى ، وعلى جماعة من الصوفية المشهورين ، وكادت الفتنة تهيج ، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا !! .

ثم تقدم صاحب الشرطة ، فشده إلى آله الصلب ، ثم أمر الجلاد بأن يضربه ألف سوط فأخذ يضربه وهو صامت لا يتأوه ، ولا يضطرب ، ولا يستعفى ، وإنما يقول : أحد أحد ، حتى بلغ ستمائة سوط ، فقال لصاحب الشرطة :

أذنو منى فإن عندى نصيحة ، تعدل عنه الخليفة ، فتح قسطنطينية ، فقال له : قد قيل لى عنك ، أنك تقول هذا وأمثاله ، وليس لى أن أرفع الضرب عنك ، فسكت حتى ضرب ألف سوط !!

(١) المنجي والمتخلي : المنزه عن الجهة والمكان . سبحانه وتعالى .

فلما أتم الجلاد ما كلف به ، أخذ الحلاج يتواجد ويتبخر في مشيته ،
وفي قدمية ثلاثة عشر قيدا ، ثم راح وهو في ثمل روحى عميق ينشد :

نديمى غير منسوب إلى شيء من الحيف
دعاني ثم حياني فعل الصيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع النثرين (١) فى الصيف (٢)

تم قال . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون.
منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لى ضلال بعيد .

(١) النثرين : هو زهرة أتم الأسد ، وقد أخطأ الرواة فكتبوها النثرين .

(٢) ديوان الحلاج .

بتريداه

ثم تقدم الجلاّد مشهراً سيفه ، ومن حوله حملة الرماح والدروع ، فقطع
يده اليمنى ، ثم يده اليسرى ، ولم يجزع الحلاج ولم يتأوه ، ولم تفارق الإبتسامة
شفثيه ، ولم يفتر لسانه عن ذكر الله ومناجاته !!

لقد اعتصم الحلاج بشيء أعظم من كل ما يدب على وجه الأرض ،
من عدوان وبغى ، اعتصم بإيمانه ، ، ولاذ بحبه ، ولجأ إلى ربه ، فغاب
عن نفسه ، وعن حسه ، وسما إلى الأفق الأعلى ، فعاش في نشوة
المشاهدة ، ونعيم القرب ، فأنساه ما يرى ، وما يتذوق ، هول ما يلقي من
آلام وعذاب !!

ولما أخذ وجهه في الإصفرار لكثرة ما نزع من دمه ، شال بذرأه
على وجهه (١) فغضبه بالدم حتى يخفى اصفراره ، وقال مبهتسا : ركعتان
في العشق ، لا يصح وضوءهما إلا بالدم !!
ثم أنشد مترنماً :

وحرمة الود الذي لم يكن يطمع في إفساده الدهر
ما نالني عند هجوم البلاء بأس ولا مسنى الضر
'ما قد'لى عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر (٢)

وتطأير هذا النشيد الحار المؤمن ، إلى الجماهير المحتشدة ، فارتفع الزفير
المرعد من أفواه الرجال ، وأغشى على كثير من النساء ، وماجت الصفوف
بالتهديد السافر ، والغضب المتوهج .

(١) منشورات صوفية لاسنيون .

(٢) ديوان الحلاج .

وأُسرع الجند إلى سياطهم وحرابهم ، وازداد الموقف توتراً في ساحة الصلب ! بينما طافت نذر الثورة في أزقة بغداد وشوارعها .

وزاد الحقد والغضب بحامد وعصيته ، فأخذوا يتصيدون بعض أعوانهم ، من صفوف الصوفية والفقهاء ، ليدفعوا بهم حول منصة الصلب ، ليرموا الحلاج بالسباب ، ويتهموه بالمروق ، عل هذا الإتهام يخفف من إيمان الجمهور به ، وغضبه له .

يقول ابن كثير :

و (١) وجاء أبو الحسن البلخي عند الخشبة ، وقال — للحلاج — : الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله ؟ كيف وأيت بوس الناس في يديك ، وقولهم لك يا سيدي ومولاي وأنت راض بذلك . ،

ويقول ماسنيون :

و (٢) وأخذ الجند يحضرون بعض أفراد من الصوفية لينالوا من الحلاج ثم يقول :

وأتى الجند بالشبلي وقد وضعوا منديله في عنقه ، وهم يسحبونه إلى الحسين بن منصور ليلعنه ! فتأبى من ذلك وقال : أتركوني : فقالوا : ما تركك حتى تلعنه ، أو ترسل إليه رسولا بذلك ؟ !

والتفت الشبلي عيناً وشمالاً فرأى فاطمة الأموية ، فقال لها : أدنى مني ، فدنت ، فقال لها : إذهبي إلى الحسين بن منصور فقولي له : إن الله قد ائتمنك على سر من أسرارهِ فأذعته ، فأذفك طعام الحديد ، واحفظي ما يقول لك . . ثم أسأله عن التصوف ، وما هو ؟ ؟

ومضت فاطمة إلى الحلاج ، فقالت : أنا رسولة أبي بكر الشبلي ، فابسم الحلاج ، ثم قال : هاتي ما معك .

(٢) منشورات صوفية .

(١) البداية والنهاية ج ١١

فقالت له : إنه يقول لك : إن الله قد اتعنتك على سر من أسرارهِ
فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، فأنشأ يقول

تجاسرْتُ فكاشفتُ لك لما غلب الصبر
وما أحسن في مثلك أن يتهك السر
وإن عنفني الناس فني وجهك لي عنر
كأن السبدر محتاج إلى وجهك يا بدر
ثم قال : اذهبي إلى أبي بكر فقولي له يا شبلي والله ما أذعت له سرّاً .

فقالت فاطمة : فما حقيقة التصوف ، فقال : أهون مرقة فيه ما ترين ؟
قالت : فما أعلاه ؟ قال : ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترين غداً ما يجري ،
فإن في الغيب ما شهدته وغاب عنك .. ثم قال والله ما فرقت بين نعمة
وبلوى ، ساعة قط .

لجأت فاطمة إلى الشبلي ، فأعادت عليه ذلك ، فصاح الشبلي : يامعشر
المناس : الجواب الأول لكم والثاني لي ؟ .

عذاب الحلاج !!

ثم قام الحراس فشدوا وثاقه إلى آلة الصلب ، وأخذوا يتفنونون في إيلامه وعذابه بالسدةهم وسياطهم .

ومضى يوم ، وغربت الشمس ، وجاءت الليلة الأولى ، من ليال العذاب ، فباتها الحلاج على صورة لم تعرف لغيره في التاريخ .

باتها مقيداً مصلوباً مقطوع اليدين ، تنزف جراحه دماً ؟ وبات جمهور البغداديين حوله ، على الضفة الغربية لدجلة ، يقب المأساة ، ويشهد الفاجعة ، ويتتبع بعواطف متضاربة ، مشاهد مسرحية حية دامية .

يشهد صراعاً عجباً فذاً تدور رحاه ، حول رجل أعزل ، ينازل وحده ، في بطولة متحدية ، صابرة شائعة ، القوى الحاكمة في العراق ، وهي أعظم قوى الأرض في عصرها !!

وكان منظرًا مسرحياً ، لم تشهد مسارح الدنيا مثيلاً له من قبل ، ماث المشاعل تضيء شواطئ دجلة ، وتكشف آفاقها ، وتغمر مياهها بالألوان والظلال .

وهنا وهناك قامت حلقات وأروقة ، للذاكرين من الصوفية ، وللمجادلين من المعتزلة ، وللمتناظرين من الحنابلة ، وللمتجسبين من الشيعة ، يديرون حديث القلب والعقل حول المشهد العظيم ، الذي هز بغداد وأطار النوم من جفونها .

وعن أيمانهم ، وعن شمالكهم ، شئت من الأجناس والطوائف ، والمتعددة الأهواء والثقافات ، والميول والاتجاهات .

ويمشي بين صفوف هؤلاء وهؤلاء تلاميذ الحلاج وأحبابه ، يتحدثون
عن إيمانه ورسالته ، وكراماته وعجائبه ، ويشتط الخيال بفريق منهم ،
فيذهب بهم بعيداً بعيداً ، ليضفي على الحلاج قداسات أكثر مما تطيق
البشرية ، وأعلى مما تستطيع الإنسانية !!

وتتلقف آذان الجماهير ؛ هذه الأحاديث الباردة الملوثة ، فتخفق
قلوبهم ، للشهيد المعذب المصلوب ، وتثور عواطفهم ، للقبط المضطهد
المظلوم !! ؟

وداخل هذا الإطار الكبير بألوانه وظلاله ، يقف الحلاج مشدوداً
بوثاقه على مصلبه الدامي ، مترنماً بألحانه ، مخلقاً في نشوة قلبية أكبر من
آلامه ، وفي ثمل روحي أعظم من عذابه

إنه في عالمه العلوي الروحي المضيء ، بعيداً بعيداً ، عن الأرض وما
يندر فيها ، وما يصب عليها !!

إن صمود الحلاج على مصلبه ، ليزاد من الخلود كما يقول الشبلي ، أعلى
مما يفهم ، من لم يذوق مذاقه ويحيا حبه ؟

قطع قدماه ١١

وجاء صباح اليوم الثاني ، فنضاعف كما يقول : ان كثير ، عدد البغداديين حول مصليه ، واجتمع من العامة عدد لا يحصى (١) .

وبدأ العذاب من جديد في يومه الثاني ، فقطعت رجله اليمنى ، ثم اليسرى ، ومع قطرات الدم ، ارتفعت الشياطين ، تمزق ما بقي من هذا الاديم الصابر الصامد ١١

يقول الخطيب البغدادي : (٢) سمعت فارساً يقول : قطعت أعضاء الحلاج ، عضواً وما تغير ، وما فتر لسانه عن ذكر الله .

وعن ابن فانك قال : (٣) لما قطعت رجلاً الحلاج قال : إلهي أصبحت في دار الرغائب ، أنظر إلى العجائب ، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك ، فكيف لا تتودد إلى من يؤذي فيك .

ثم أنشد :

أقتلوني يا ثقاتي إن في قتل حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
إن عندي محو ذاتي من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي من قيح السيئات
فاقتلوني واحرقوني بغطاي الفانيات
ثم مروا برفاتي في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات (٤)

(١) البداية والنهاية ج ١١

(٢) تاريخ بغداد ج ٨

(٣) أخبار الحلاج ص ٥٦

(٤) ديوان الحلاج طبع باريس

ثم تتابعَت مشاهد العذاب ، من جلد و صفع و ركل و سباب ، و الخلاج
على مصلبه ، ممزق الجسد ، تتساقط قطرات الدماء من سائر جسده و هو
في نشوة روحية ، بل في مثل روحى أعلى و أسمى و أقوى ، من كل ما صاب
عليه من هول و عذاب !!

إنه في تساويحه و مواجيده و مناجاته ، غير ملتفت إلى ما يتر منه ،
و ما يحيط به !

لقد تفتحت له أبواب السماء ، و أحاطت به هالات من النور ، و في
سمعه ، ألحان من الأفق المضى ، و ترنيمات من أوتار خفية ، يوقع على
موسيقاها ابتهالاته الخالدة .

إذا ذكرتكَ كاد الشوقُ يقلقنى و غفلتُ عنكَ أحزان و أوجاع
و صار كلى قلوباً فيكَ داعية للسقم فيها و للآلام إسراع (١)

* * *

يالاثنى فى هواه كم تلوم فلو عرفت منه الذى عنيت لم تلم
للناس حج ولى حج إلى سكنى نهدي الأضاحى و أهدي مهجتي و دمي (٢)

* * *

لا تلتنى فاللوم من بعيد و أجر سيدى فإنى و حيد
من أزداد الكتاب هذا خطابى فاقرا و اعلموا بأنى شهيد (٣)

* * *

ثم تتابعَت مشاهد ، تجلت فيها أسمى ما فى النفوس الإنسانية من
مثاليات ، و أحط ما فى الغرائز البشرية من صفات .

(١) ديوان الخلاج ص ٧٢ طبع باريس

(٢) " " ص ٨٥ طبع باريس

(٣) " " " " " " " " " " " "

فقد أقام حامد وصحبه حول مصلب الحلاج ، أعوانا لهم ، يملأون الدنيا
سباباً وصياحاً هاتفين : اقتلوا الحلاج الزنديق ، وفي أعناقنا دمه !!
ثم أخذ الجند يجمعون الفقهاء والصوفية ليرجموا الحلاج ، وهو في موقف
المول والعذاب ، فامتنع فريق كبير عن هذا الإثم ، صبروا وصابروا ،
واحتماوا الجلد والسجن ولم تقترب أيديهم السوء !!

ثم جرى بالشبلى . تليذ الحلاج وصديقه وصفيه ، جرى به ليرجم
الحلاج ، وأقسموا على قتله إن لم يفعل !!

وأذن له الحلاج وطالبه بأن يفعل صوناً لدمه ، فرماه بوردة . . ثم
بكي وصاح : « إن استشهد الحلاج درة من الجمال المحرم ، إنه زاد خلود ،
لا يظفر به إلا الأبطال ، وليس بزاد يوزع على الجميع » .

يقول ماسنيوم : « (١) وفي وسط هذا كله ، الحلاج نفسه مصلوباً خارجاً
عن طوره ، مظهراً للجميع من فوق مقصلته ، وهو في حالة من الوجد تجاوز
بيدنه حد الموت ، شخصية المسيح الخالدة ، كما وصفها القرآن ، وكأنه الصورة
المعبرة المتجلية فيها روح الله : — وما قتلوه وما صلبوه » .

ومضى اليوم الثانى ، وجاءت الليلة الثانية ، على الشهيد الصامد ، لمول
لم يصمد له أحد من قبل !

ومضى الليل ثقيلاً بطيئاً ، ورفرف الموت على الساحة الكبرى وأخذت
ظلال المشاعل رسم أطيافاً حزينة باكية .

والمصلوب المعذب في نشوته ومناجاته وضراعاته ، التي رسم في عالم
الروح ، صرخات تهز عالم النور .

عالم الروح والنور ، الذى سعى إلى الحلاج ليؤنسه في لحظاته الأخيرة ،
تلك اللحظات التي صورها لنا الحلاج على مصلبه في آخر قصائده . . .

(١) شخصيات قلقة ص ٨٢ .

قصيدة المصلب^(١) :

وفيه يروى قصته كاملة ، بذلك النغم المأثور عن الصوفية ، في حالات الشطح والشبح الروحي .

فيحدثنا عن فئاته في الله ، ذلك الفناء الذي أورثه البقاء به سبحانه ، ومن بقي بالله عاش في عالم المشاهدة ، وتفتحت عين روحه ، لتطل على الوجود .

ثم يقول : إنه الباز الأشهب في عالم الروح ، وهو مقام أعلى وأسمى من القطبانية ، وأن شربه من مقام الصديقية ، وهو مقام لا يعلوه إلا مقام النبوة ، وأنه غدار بانياً يعيش تحت العرش ، وأنه قد حطم يرهانه جبال الأكاذيب التي أحاطت به .

وأنه الذي شاع ذكره في الملا الأعلى ، وأنه خاض بحر الهوى قوياً كحوت يونس ، وأخرج أروع جواهره .

ولكنه لم يجد في عصره ، من يفهم قيمة هذه الجواهر ، فأصبح كمن يبيع الجواهر للفحامين ! ! وكالذي يوقد الشموع في قاعات العميان ! !
وكالذي يضع السر في أحكام عريان .

ثم يعرض علينا في إطار نغم ، حوادث مصرعه ، وكيف احتشد الأقطاب

(١) نشرت هذه القصيدة لأول مرة بسوريا ، ثم نشرها ماسنيون في ديوان الملاج في طبعته الثانية عام ١٩٥٥ وسنشرها في موضعها من هذا الكتاب .

والأولياء جميعاً ، وفي مقدمتهم الخضر ، لمؤانسته وتحيته ، وأن السيف
خاطبه وناجاه ، ولو أراد لامتنع السيف عنه ، ولو شاء لهدم بغداد على
البغاة ، ولكن الخضر والأقطاب ، طالبوه بأن يموت شهيداً كما مات ابن
عفان ، وأن لا يخلع أبداً الخلافة الباطنية ، كما لم يخلع ابن عفان الخلافة
الظاهرية .

ذلك تصوير الخلاج لموقفه ولمصرعه ، وذلك نشيده يوم الهول ،
وليلة الموت !!

عجائب يوم المصرع

يقول ابن خفيف : (١) تقدمت إليه في الليلة التي صلب فيها ، فلما رأته على خشبته بحالته ، توليت وأنا مفكر في أمره !!
فاذا به يناديني : أن أقبل ، فأقبلت إليه ، فقال لي : عاملناه بالحقيقة ،
فعمل بنا ما ترى !!

ومضى الليل الطويل بهوله ، وجاء اليوم الثالث بمذابحه ومع الفجر طافت جموع الشعب ببغداد ، تحطم وتدمر ، وتطالب بانقاذ الحلاج ،
أو بانقاذ ما تبقى منه !!

وارتعد الخليفة وجبن ، وأسرع إليه حاجبه نصر القشورى ،
والدته -- شغب -- ينذرانه عاقبة المأساة الحلاجية ، ويناشدانه باسم الدين
والإنسانية ، العفو عن الجسد الممزق ، والبطل المصلوب ، الذى توشك
الذماء السائلة منه ، أن تدفع ببغداد إلى ثورة مدمرة تطيح بكل شىء .

وخضع المقتدر للرجاء ، أو خضع للخوف ، فاعتزم العفو ، وبلغ
مسمع حامد ما يدور فى القصر ، فأسرع إلى الخليفة يناشده أن يتم ضربته
الكبرى ، منذرا بأن العفو فى هذه الساعة الحاسمة ، قد يلبس ببغداد أكثر مما
يلبسها القتل !

ثم صاح حامد : أقتله يا أمير المؤمنين ، وفى عنقى دمه ، أقتله وإن
حدثت الثورة التى يتنبأ بها نصر فاقتلنى أقتله قبل أن تنور العاصفة ..

وبين التردد والعزم ، صدر الأمر الأخير من فم الخليفة : اقطعوا
رأس الحلاج ، وأحرقوا جسده ..

(١) منشورات صوفية طبع بالويس

يقول ماسنيون : « (١) وبينما كان الثائرون يحرقون بعض الدكاكين وقد أبطأ أمر الخليفة المعتاد بالإجهاز عليه ، كان حامد يستحث المقتدر على الموافقة على الأمر بالإعدام ، قائلاً : إن أصابك شيء فاقطنى . »

ويقول ابن كثير : « (٢) فلما كان اليوم الثالث ، تقدم حامد إلى الخشبة ، فتلّى أمر الخليفة ، ثم قرأ فتوى الفقهاء ، بأن فى قتل الحلاج صلاح أمر المسلمين اثم أمر الجلاد بقطع رأسه والإجهاز عليه . »

ويقول الحلواني : « (٣) قدم الحلاج للقتل وهو يضحك ، فقلت : ياسيدى ما هذا الحال ؟ قال : دلال الجمال ، الجالب إليه أهل الوصال . »

ويقول عيسى القصار : « (٤) آخر كلمة تكلم بها الحلاج عند قتله وصلبه أنه قال : حسب الواجد ، لإفراد الواحد له ، فاسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ ، إلا رق له ، واستحسن هذا الكلام . »

ويقول ابن خفيف : « (٥) ثم ضرب عنقه فبقى جسده ساعتين من النهار قائماً ، ورأسه بين رجليه ، وهو يتكلم بكلام لا يفهم ، فكان آخر كلامه : أحد ، أحد . »

فتقدمت إليه ، فإذا بالدم يخرج منه ويكتب على الأرض : الله ، الله ، فى أحد وثلاثين موضعاً ، ثم أحرق بالنار ١١١ . »

ويقول العلامة المناوى : « (٦) ولما وقع دمه على الأرض ، كتب : الله ، الله ، إشارة لتوحيد ، وإنما لم يكتب دم الحسين بن على رضى الله عنهما ذلك ، لأنه لا يحتاج لتبرئة بخلاف الحلاج . »

(١) شخصيات قلقة ص ٧٧

(٢) البداية والنهاية ج ١١

(٣) السكوكب الدرية للمناوى ج ٢

(٤) الممع للسراج الطوسى .

(٥) أخبار الحلاج طبع بباريس .

(٦) السكوكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، للمناوى ج ٢ ص ٢٥

ويقول ابن الجوزي : « (١) ولم يبق ببغداد إلا من شهد قتله ، والتفت إلى الناس وهو على الجذع - قبل قتله - وقال : من حضر بطلت شهادته ، ومن غاب قبلت شهادته ، وناداه بعض الصوفية وهو مصلوب : من طلق الدنيا كانت الآخرة حليته . »

ويروي ابن أنجب الساعى عن الشيرازى ، أنه قال : « (٢) لما صلب الحلاج بقى ثلاثة أيام لم يمِتْ فأنزلوه وفتشوه ، فوجدوا معه ، ورقة مكتوبة بخطه ، وفيها آية الكرسي ، وبعدها هذا الدعاء :

اللهم ألق في قلبي رضاك ، واقطع رجائي عن سواك ، وأعني باسمك الأعظم ، وأغنني بالحلal عن الحرام ، وأعطني مالا ينبغى لأحد غيرى - بحم عسق - وأمتنى شهيداً - بكم بعض - . »

ثم لف جسده في بارية ، وصب عليه النفط وأحرق ، وحمل رماده على رأس منارة لتنفسه الريح ، وفي السادس والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة ٢٦٥ مارس ٩٢٢ م .

ونصب رأسه يومين على الجسر ببغداد ، ثم طيف به في خراسان ، ثم أخذته ام الخليفة المقتدر ، فحنطته وعطرته ، وأبقته في خزائنها عاماً كاملاً .

(١) مرآة الزمات ، للسبط ابن الجوزى

(٢) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٢٤

مشاهد روحية

ويروى ماسنيون : ^(١) أن الشبلي رأى الحلاج في المنام بعد قتله فقال له :

ما فعل الله بك ؟ قال : أنزلني وأكرمني ، قال : في أي محل ؟ قال : قد غفر لكلنا الطائفتين ، المشفقين على ، والمعادين لي ، فأما من أشفق على فلأنه عرفني ، فأشفق على الله ، وأما من عاداني ، فلأنه لم يعرفني ، فعاداني الله أيضاً ، فهما معذورون ١١ .

وتروى المخطوطات الصوفية : ^(٢) أن أخته ظلت تبكي عليه أمدأ ، ثم نامت ذات ليلة ، فرأت في المنام أخاها حسينا ، وهو يقول لها : يا أختي إلى كم تبكين علي . . ؟ فقالت له : كيف لا أبكي وقد جرى عليك الذي جرى . ؟ فقال لها :

يا أختي لما قطعوا يدي ورجلي كان قلبي مشغولاً بالمحبة ، فلم أدر إلا هي طيبة .

فلما صلبوني كنت مشاهداً ربي ، فلم أدر ما فعلوا بي . . فلما أحرقوني نزلت على ملائكة ربي من السماء ، صباح الوجوه ، فاخطفوني إلى تحت العرش ، وإذا بالنداء من العلى الأعلى : يا حسين رحم الله من عرف قدره ، وكنتم سره ، وحفظ أمره فقلت :

أردت التعجيل إلى رؤيتك فقال : تملأ بالنظر ، فإنني لا أحتجب عنك .
يا أختي إذا كنت في رياض وبساتين ، وأثمار وأنهار ، هل يطلب أحد بدل ذلك العمار ، هذا الخراب ؟ قالت : لا ، قال : كذلك أرى . .

(١) شخصيات قلقة في الإسلام ص ٧٧ - ٧٨

(٢) مخطوطات صوفية نشر ماسنيون . باريس

بين محي الدين والحلاج

ويحدثنا العلامة المناوي ، عن مشهد روحى بين الحلاج والشيخ الأكبر محي الدين بن عربى .

فقد سأل محي الدين ، الحلاج فى عالم الروح قائلاً : « لماذا تركت بيتك بخرب ؟ »

فتبسم الحلاج وقال :

« لما استطالت عليه أيدى الأكران ، حين أخليت ، وخلفت هارون فى قوسى ، استضعفه لغيتى ، فأجمعوا على تخريبه ، فلما هدموا من قواعده ما هدموا ، وكنت قد فنيت ، رددت إليه بعد الفناء ، فأشرفت عليه ، وقد حلت به المثولات ، فأنفته نفسى ، وقلت : لا أعر بيتا تحكمت فيه الأكران ، فانقبضت عن دخوله ، فقيل : مات الحلاج ؟ والحلاج ما مات ؟ ولكن البيت خرب ، والساكن ارتحل ^(١) . »

وهو مشهد روحى يلتقى بالأضواء على حياة الحلاج ، وعلى أسرار مصرعه .

فحيى الدين يعاتب الحلاج ، على أنه قد كشف من الأسرار الروحية ، ما يمكن خصومه من دمه ، كما يعاتبه أيضا على أنه استسلم لمصرعه ، ولم يحاول النجاة منه .

والحلاج فى إجابته ، يروى قصته كاملة ، فهو يتحدث عن سيره فى الطريق المضى إلى الله ، ورحلته الروحية على أجنحة الحب والوجد ،

(١) الكواكب الدرية ج٢

من الأكوان إلى المسكون سبحانه . لقد حاول في تجربة روحية فذة أن يصل إلى مرتبة الفناء الكامل .

الفناء عن نفسه ، وعن كونه ، ليبقى في عالم النور والمشاهدة ، وليظفر بمقام الإنسان الرباني ، الذي يكبر الله جل جلاله ، هو سمعه وبصره ويده ولسانه وحركاته وسكناته .

وبذلك يذوق مذاقا من القرب ، أو مذاقا من الحب ، يفنى بشريته ، فيحقق بهذا الفناء ، وثبة بالإنسان إلى أعلى أفق يتطلع إليه ، أفق القرب ، إلى أبعد حدود القرب ، بين العبد والرب ، والحلاج هو أجراً وأقوى ، من حاول هذه التجربة في عالم التصوف .

ثم يقول الحلاج :

لأنه في جهاده الروحي ، لم يستطع أن يتخلص تماما من جسده ، ومن العلاقات التي للكون على هذا الجسد .

فرحل بروحه إلى الله ، وترك العقل أو بقية منه ، ليخلفه في تدبير هذا الجسد ، كما رحل موسى عليه السلام إلى الله ، وترك هارون في قومه ليخلفه فيهم .

وهنا تحكمت الأكوان في جسده لغيبته عنه ، واستضعفوا خليفته ، فأدى ذلك إلى تقويضه .

ولما كان الحلاج قد فنى عن نفسه ، وبقي ربه ، رد بحكم البقاء بعد الفناء إلى البيت - الجسد - ، فلما وجد أن الأكوان قد تحكمت فيه وحلت به المثولات ، أفنته نفسه ، ومن ثم ، زهد هذه الحياة ، فزهده الحياة ، فكان العذاب ، وكان القتل أشنع ما يكون القتل .

وانقبض الحلاج عن دخول البيت . وقيل مات الحلاج . . ؟ وما مات الحلاج . ؟ ولكن البيت خرب . والساكن ارتحل . ارتحل إلى البقاء والخلود :

في أعقاب المصراع

وفي أعقاب المصراع انطلق خيال بغداد ، ليضفي على البطل الشهيد ،
نسيجاً أسطورياً من أنسجة القداسة والخلود .

وإن لم يتسق هذا النسيج الموشى مع الحقيقة ، فإنه ليرشد ويومي . ، إلى
صور من الحب والإجلال خفق بها قلب بغداد ، وهي تبكي بطلها الشهيد .
يقول ابن خلكان^(١) وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوته بعدد
أربعين يوماً ..

واتفق أن دجلة زادت في تلك السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه ،
أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها .

ويقول ابن كثير : ^(٢) وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل . وإنما
ألقي شبهه على عدوله . . .

ثم أخذ تلاميذ الخلاج ، يكونون في الخفاء جماعات روحية حلاجية ،
تتدارس تعاليمه ، وتحافظ على تراثه ، وتحاول جاهدة أن تبقى ذكراه
حية نامية في ضمير التاريخ ، متجددة في ثبات ، وفي فدائية ، الخلافة العباسية ،
بكل ما لها من سلطان ساحق ونفوذ لا يقاوم .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٧

(٢) البداية والنهاية ج ١١ .

سر المأساة؟

ذلك مصرع الحلاج ، وتلك مأساته ١١ ويوم المصرع عندى ، هو نقطة الإنطلاق فى حياة الحلاج ، وهو سر خلوده وسحره التاريخى .

وإن كانت آراء الحلاج ، قد اختلف الناس فيها وتجادلوا ، وأطالوا الاختلاف والجدال ، فإن بطولة الحلاج وثباته الأسطورى المعجز ، وإيمانه الصاعد فى يوم مصرعه ليرسم صورة بطولة خالدة متألقة ، أعلى من أن يتجادل الناس فيها أو يختلفوا .

ومن أراد أن يحلق حول شخصية الحلاج ، ويلبس إيمانه وحيه ، وعقيدته ورسائله ، فليبحث عن هذه المعانى الشاخنة فى يوم مصرعه ، وليتمسكها على آلة صلبه وعذابه .

إن هذه البطولة الخارقة ، وهذا الثبات المعجز ، وهذا الإيمان الأعلى لإنها مذاقات ومقامات ، لا تقاض إلا على الصديقين والشهداء من أصحاب المبادئ والرسالات .

إنها مواقف ليست من عقائد الأرض ولا من شهواتها ، إنما من إيمانيات السماء ووحيا .

وما كان لأبناء الدنيا ، وأصحاب الهوى فى آفاقها ، أن يثبتوا ثبات الحلاج ، وأن يصمدوا لما صمد له .

وما أحسب أن تاريخ البشرية الطويل العريض ، ضم بين صحفه وأحداثه ، إيماناً وثباتاً تحت هول العذاب الصاعق ، كشبات الحلاج وصبره وفدائيمته وبطولته .

إن يوم المصرع ، هو عنوان الحلاج وتاريخه ، وعنده يلتبس علماء

النفس ، وأسائذة الفكر ، شخصية الحلاج ومقامه في أروقة الخالدين ، من المجاهدين المؤمنين .

إن يوم المصراع ، هو يوم النصر للحلاج ، ويوم الهزيمة الكبرى للخلافة العباسية ، بكل ما تمثله وتصوره في تلك الحقبة من التاريخ .

لقد هزم الحلاج الخلافة العباسية ، في حياته وفي استشهاده ، وفي حركة التاريخ وضميره ، من بعد حياته واستشهاده .

لقد حرقت جسده وأحالته رماداً ، ثم نثرت هذا الرماد في أفطار السماء تريد له الفناء ، فكتب له البقاء .

البقاء الحي أشد ما تكون الحياة ، وأعصى ما تكون هذه الحياة على الزوال والفناء .

لقد أطلقت الخلافة حول سيرته سرادقاً من نار ودخان ، ثم أطلقت المنادين يأمررون الناس ، أن يحرقوا آثاره ، وأن لا يبيعوا كتبه ، وأن يحوها من الوجود ، وأطلقت من وراء هذا وذاك ، الإقلام المأجورة تملأ كتب التاريخ لإفسكا وزوراً .

وعجز كل هذا الدخان والضباب ، والتزوير والإقتراء ، عن أن يحجب عن عين التاريخ وذاكرته وصفه البرق المتلألئ من أسطورة البطل الشهيد ، والسنا المتألق من تراث المعارف المحب .

يقول المستشرق نيكلسون ^(١) قتل الحلاج وأحرقت رفاته كما تنبأ ، وعبثت برماد جسده الرياح العاصفة والمياه الجارية ، ولكن بقيت آراؤه من بعده تعمل عملها ، خلال العصور الوسطى جميعها ، وتحاول أن تحيا حياة جديدة .

وإننا لنبتين قوة هذا الرجل ، وحيويته الروحية ، من الآثار العظيم الذي كان له في نفوس الأجيال التي أعقبته ، .

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه : ص ١٣٢

لقد أعجز الحلاج الخلافة العباسية ، حياً ومصلوباً وشهيداً ، وأحدث
أثراً خالداً في التاريخ .

حتى التهم البغيضة الغليظة ، التي قذفوا بها الحلاج يوم المحاكمة ، أخذت
تساقط سطرّاً فسطراً ، لتفسح الطريق لوجه الفجر الصادق ، يمحو بنوره
كل فجر كاذب ، وكل ادعاء فاجر .

لتفسح الطريق للحقيقة ، السكّانة وراء المأساة الدامية ، فلم تكن
الخلافة العباسية ، لتصب كل هذا الهول الفاجر على الحلاج ، لشطحه
الصوفي ؟ أو لمروقه الإلحادى ؟ أو لقوله - أنا الحق ؟ - كما حاولت
أن تكره الشهود ، وأن تكره القضاة ، وأن تكره التاريخ ، على هذا
البهتان والتزوير .

بل صبت هذا الهول المليظ الفاجر ، دفاعاً عن نفسها ، وعن وجودها .
وعما تمثله ويمثله وجودها ، من شهوات وفجور ، وفساد واستغلال ، ومحاربة
للدين والإيمان .

كانت محاكمة سياسية ، وكان قتلاً سياسياً ، لبس زوراً ثوب الدين ،
وتقنع كذباً بقداسته وحايته .

يقول المستشرق ماسنيون : « فلولاً أن الحلاج قد زج بنفسه ، في التيارات
السياسية المضطربة في عصره ، واتصل بالسياسة ورجالها ، لما حدث له
ما حدث ، من تعذيب وصلب ، وما كانت الاتهامات الدينية ، إلا اتهامات
رسمية ، لتكون تكأة يستند إليها السلطان ، .

ويقول العلامة آدم متز : «^(١) وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار
الحلاج ، إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح ، أن
الحلاج قد أثر في كبراء أهل بغداد ، تأثيراً قوياً نادر المثال ، وبدل على
عظيم شأنه ، أن كلا من الذهبي وابن الجوزي ، كتب عنه كتاباً خاصاً .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٤٣

ولكن يظهر أن هذين الكتائين ، قد فقدوا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعني تخصيص كتاب في حياة رجل — إلا العدد القليل بين رجال الإسلام .

وكما لمس رجال الإستشراق سر المأساة الخلاجية ، وأنها مأساة سياسية لا دينية ، لمس هذا السر أيضاً بعض رجال التاريخ الإسلامى من قدامى ومحدثين ، لمسوه رغم الجهود الهائلة ، التى بذلتها الخلافة العباسية ، لتثويهِ تاريخه ، وتزوير أحداثه ، وتمزيق تراثه .

فابن النديم : يعطل المأساة بأن الخلاج ، كان على اتصال بالرضا من آل محمد (١)

وابن خلكان : يفسرها بصلات الخلاج بالقرامطة وبالعلويين ، وبتهديده للخلافة القائمة (٢)

وأما صاحب ظهر الإسلام ، فيفسح صفحات للمأساة ، متهماً الخلافة العباسية بالتزوير والإقتراء .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « (٣) والظاهر من كل هذا أن الرجل والمرأة اللذين شهدا على الخلاج ، كان موعزاً إليهما بالشهادة ، وأن القضاة تآكأوا فى الحكم عليه ، فاستعجلهم الوزير حامد ؟ !

ثم يقول : ويظهر أن أكبر تهمة وجهت إليه ، هو أنه من شيعة أهل البيت ، الذين يريدون أن ينحوا الخلفاء العباسيين ومن إليهم ، ويوسعوا دائرة خلافة أهل البيت ، فانتشرت دعوتهم فى العراق وخراسان وجزيرة العرب وغير ذلك .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٩

(٢) وفیات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٨

(٣) ظهر الاسلام ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦

ثم يقول : فنعتقد أن هذا سر قتله لا غير ذلك ، فدعوة كهذه نقض مضاجع خلفاء بنى العباس ووزرائهم ، فلا يعد أن يكون الخليفة العباسي ووزيره حامد ، قدرتها هذه المؤامرة ضده ، وزوروا الشهود ، واستحوا القضاء على قتله ، وإلا فما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين ، كالجنيد ، وأبي يزيد البسطامي ، وذى النون المصري ، من غير قتل ، فهي مسألة سياسية بحتة ، اتخذت شكلا دينياً ، لعلهم أن الدين أفعل في الشعوب من السياسة .

فكم من صوفية ادعوا وحدة الوجود، فلم يلتفت إليهم، وتركوأشأنهم! وما لفت عامة المسلمين إليه، ما تواتر عن الحلاج من إتيانه بالأعاجيب، فيظهر أنه كان له قدرة كـبعض الأشخاص اليوم ، على استحضر ما يريده من الأشياء من أما كنـها ، كالذهب ، والمسك ، والفاكهة ، وأنه كان له قدرة على التنويم المغناطيسي ، وقدرة أخرى كـماوية بهر الناس بها لجهلهم بالكيمياء .

وعلى العموم ، فهو شخصية قوية كشخصية ذى النون وأشد منها ، كان له أثر كبير في المسلمين . .

ذلك ضمير التاريخ ، أو ذلك بعض ضميره .

مغوثات الحلاج

بين السحر والسكرامة ؟ ؟

الآن وقد مضى بنا القلم طويلا حول الحلاج السياسي ، وصراعه مع الخلافة العباسية ، ومصرعه البطولي الدامي !!

الآن آن لنا ، أن نعود إلى الحلاج الصوفي ، لنواصل دراسته . ولنحيا مع حبه ووجدته وأشواقه ، وتحقيقاته في الأحوال والمقامات الروحية ، وما حققه في تجربته الصوفية ، من فتوحات ووثبات ، في عالم المشاهدة والمعرفة .

ولا بد لنا ، قبل أن نحيا مع الحلاج في تجربته ، من أن ندير الحديث حول نقطة في تاريخه ، لا تزال غامضة محيرة ، يكثر حولها الجدل والحوار .

تلك هي المغوثات الحلاجية ، التي كانت سمة من سماته ، وطابعا عرف به في حياته ، من بداية أمره حتى يوم مأساته .

ولقد امتلأت حقائب التاريخ الصوفي ، وغيره من تاريخ الرجال والطبقات بالحديث عن عجائب الحلاج وخوارقه ، واختلف الناس في أمرها ، ونددوا طويلا حولها .

نسبها قوم إلى السحر والنيريج والشعوذة ، والبراعة في الطب والكيمياء والقدرة على تسخير الجن !!

وآمن بها آخرون على أنها كرامات وآيات ، تدل على صدقه وولايته ، ومقامه وإيمانه .

يقول صاحب تاريخ بغداد : «^(١) اختلف الناس في أمره ، فقال قوم . ساحر ؟ وقال قوم : مجنون ؟ وقال قوم : له الكرامات ، وإجابة المدعوات . »

وأصدقاء الحلاج وخصومه ، قد أجمعوا جميعاً على حدوث هذه الخوارق ، فابن كثير ، وابن خلكان ، والخطيب البغدادي ، وابن النديم ، من رجال التاريخ العام ، والشعراني والمناوي والسلبي ، من مؤرخي الطبقات الصوفية ، قد أجمعوا على أنه كان يخرج فاكة الشتاء في الصيف ، وفاكة الصيف في الشتاء ، ويمد يده في الهواء فيعبد بها مملوءة دراهم ، قد كتب عليها — قل هو الله أحد — ويسمها دراهم القدرة ، ويخبر الناس بما أكلوا ، وما صنعوا في بيوتهم ، ويتكلم بما في ضمائرهم ؟ ؟

كما تحدثوا عن قدرته على شفاء المرضى ، بالرقية حيناً ، وبقراءة القرآن أحياناً ، بل تحدثوا عن إحيائه للوتى ، كما حدث لبيضاء ولى عهد الخلافة العباسية ؟ ؟

حتى اسمه دارت الكرامة والخارقة حوله ، يقول أبو عبد الله السلسي «^(٢) إنما سمي الحلاج لأنه دخل مدينة واسط فتقدم إلى حلاج وبعثه في شغل له ، فقال له الحلاج : أنا مشغول بصنعتي ؟ فقال : اذهب أنت في شغلي ، حتى أعينك في شغلك ؟ فذهب الرجل ، فلما رجع وجد كل قطعة في حافوته محلوجة ، فسمى بذلك الحلاج . »

ويقول ابن كثير : «^(٣) ويقال : أنه أشار بالمرور فامتاز الحب عن القطن . »

(١) تاريخ بغداد ج ٨

(٢) طبقات الصوفية

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٣

ويقول ابن خلكان : « (١) كان يتكلم في ابتداء أمره من قبل أن ينسب إليه مانسب من الأسرار ، فيكشف عن أسرار المريدين ويخبر عنها ، فسمى بذلك حلاج الأسرار ، فغلب عليه لاسم الحلاج » .
وكتب الطبقات الصوفية توج موجاً بكرامات الحلاج وعجائبه ، وترويه بلغة اليقين الذي لا يدنو منه الشك ؟ .

يقول الحلواني : « (٢) كنت مع الحلاج وثلاثة من تلاميذه ، في قافلة من واسط إلى بغداد ، وكان الحلاج يتكلم ، فجرى في كلامه ، حديث الحلاوة ، فقلنا : على الشيخ الحلاوة ؟ فرفع رأسه وقال :

يا من لم تصل إليه الضمائر ، ولم تمسه شبه الظنون والخواطر ، وهو المتراقى عن كل هيكل وصورة ، من غير عمامة ومزاج ، وأنت المتجلى عن كل أحد ، والمتحلى بالأزل والأبد ، لا توجد إلا عند البأس ، ولا تظهر إلا حال الإلتباس ، إن كان لقربي عندك قيمة ، ولإعراضي لديك عن الخلق مزية ، فائقنا بحلاوة يرتضيها أصحابي ؟

ثم مال عن الطريق مقدار ميل ، فرأينا هناك قطعاً من الحلاوة الملونة ، فأكلنا ولم يأكل منها ، فلما استوفينا ورجعنا ، خطر ببال سوء ظن بحاله ، وكنت لا أقطع النظر عن ذلك المكان ، وحافظته أحوط ما يحافظ مثله .

ثم عدلت عن الطريق للطهارة وهم ذاهبون ، ورجعت إلى المكان ، فلم أر شيئاً فصليت ركعتين وقلت :

اللهم خلصني من هذه التهمة الدنية ، فتهت بي هاتف : يا هذا أكلتم

(١) وفيات الأعيان

(٢) أخبار الحلاج ص ٢٢ .

الحلاوة ، وتطلب الشك . ؟ أحسن ظنك ، فما هذا الشيخ إلا ملك الدنيا والآخرة .

ويروى فريد الدين العطار : « (١) أن الحلاج رسم على حائط السجن ، صورة مراكب ثم أمر المسجونين بأن يركبوا فيها ، وأن يذكروا إسم الله سبحانه ؟ فلما فعلوا ، غابوا عن الحبس ونجوا جميعاً .

ويحدثنا الشيخ الأكبر محي الدين عربي في الفتوحات ، وحجة الإسلام الغزالي في الإحياء ، أن الحلاج كان يدخل في بيت له يسميه — بيت العظمة — وكان يتطور فينتفش وينتفخ حتى يملأ هذا البيت ؟؟

أما كتب التاريخ العام ، فتروى عجائب الحلاج ، ثم تحاول في أثناء روايتها ، أن تعلمنا متدخلة في الرواية حيناً ، وملقية بالشك عليها أحياناً .

« يروى مسعود بن ناصر قال : سمعت أبا يعقوب النهر جوري يقول (٢) :

دخل الحسين بن منصور مكة ومعه أربعائة رجل ، فأخذ كل شيخ من شيوخ الصوفية جماعة ، قال : وكان في سفرته الأولى كنت أمر من يخدمه ، قال : ففي هذه الكرة أمرت المشايخ وتشفعت إليهم ليحملوا عنه الجمع العظيم .

قال : فلما كان وقت المغرب جئت إليه ، وقلت له : قد أمسينا فقم بنا حتى نفطر ، فقال تأكل : على أبي قبيس ؟ فأخذنا ما أردنا من الطعام وصعدنا إلى أبي قبيس ، وقعدنا للأكل ، فلما فرغنا من الأكل ،

(١) تذكرة الأولياء ج ١

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٥ - ١٢٦

قال الحسين بن منصور ، لم تأكل شيئاً حلواً ، فقلت : أليس قد أكلنا التمر ؟ فقال : أريد شيئاً قد مسته النار ! .

فقال وأخذ ركوته وغاب عنا ساعة ، ثم رجع ومعه جام حلواء ، فوضعه بين أيدينا وقال : بسم الله ، فأخذ القوم يأكلون ، وأنا أقول مع نفسي ، قد أخذ في الصنعة التي نسبها إليه عمرو بن عثمان ! .

قال : فأخذت منه قطعة ونزلت الوادي ، ودرت على الخلاويين أريهم ذلك الحلواء وأسألهم هل يعرفون من يتخذ هذا بمكة ؟ فما عرفوه ، حتى حمل إلى جارية طباحة فعرفته وقالت : لا يعمل هذا إلا بزيد ، فذهبت إلى حاج زيد - وكان لي فيه صديق - وأريته الحلواء فعرفه ، وقال : يعمل هذا عندنا إلا أنه لا يمكن حمله ، فلا أدرى كيف حمل ، وأمرت حتى حمل إليه الجام . وتشفعت إليه ليتعرف الخبر بزيد . هل ضاع لأحد من الخلاويين جام . علامته كذا وكذا . فرجع الزبيدي إلى زيد .

وإذ أنه حمل من دكان إنسان حلاوى . فصيح عندي أن الرجل مخدوم !! .

وأبو يعقوب النهرجورى راوى القصة . من الصوفية الذين خاصموا الحلاج ، خصومة مرة عنيفة . ومن الذين أثاروا حوله الصيحات المرعدة . وانهموه بالسحر والشعوذة ! .

ونمشي مع الجانب الخاصم للحلاج خطوة أخرى . لنستمع إلى شاهد آخر . يروى قصة ثانية نسبها إلى مجهول ، أسماه بالمنجم .

وهى قصة كما يقول راويها . لم تذكر في حياة الحلاج . وإنما ذكرت بعد مصرعه ! .

يقول : صاحب تاريخ بغداد « حدثنا علي بن أبي علي . حدثني أبي . قال : أخبرني أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشاهد الأهوازي قال : أخبرني فلان المنجم — وأسماء ووصفه بالحق والفراة — قال : بلغني خبر الحسلاج وما كان يفعله من إظهار تلك العجائب التي يدعى أنها معجزات ، فقلت أمضى وأنظر من أي جنس هي من المخاريق ، فجمته كأتى مسترشد في الدين ، فخطبني وخطبته ثم قال لي : تشه الساعة ما شئت حتى أجيئك به ! وكنا في بعض بلدان الجبل التي لا يكون فيها الأنهار ، فقلت له : أريد سمكاً طرياً في الحياة الساعة ! فقال : افعل ، اجلس مكانك فجلس ، وقام فقال : أدخل البيت وأدعو الله أن يبعث لك به .

قال : فدخل بيتاً حياى وغلق بابه ، وأبطأ ساعة طويلة ثم جاءني وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وماء ، ومعه سمكة تضطرب كبيرة ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : دعوت الله فأمرني أن أقصد البطائح وأجيئك بهذه ، فضيت إلى البطائح ، فخطت الأهواز ، فهذا الطين منها حتى أخذت هذه !

فعلبت أنها حيلة ، فقلت له : تدعى أدخل البيت فإن لم ينكشف لي حيلة فيه آمنت بك ، فقال : شأنك ، فدخلت البيت وغلقته على نفسي فلم أجد فيه طريقاً ولا حيلة ، فندمت وقلت : إن وجدت فيه حيلة فكشفتها ، لم آمن أن يقتلني في الدار ، وإن لم أجد طالبني بتصديقه ، كيف أعمل ؟

قال وفكرت في البيت فرفعت تأريره — وكان مؤزرآ يزار ساج — فإذا بعض التآزير فارغاً ، فحركت جسريره منه خمت عليها ، فإذا هي قد انقلقت . فدخلت فيها فإذا هي باب مرم — فوالت فيه إلى دار كبيرة . فيها

بستان عظيم ، فيه صنوف الاشجار والثمار ، والريحان والأنوار ، التي هي وقتها ، وما ليس هو وقته ، مما قد غطي وعتيق ، واحتيل في بقاءه ، وإذا الخزائن مفتوحة فيها أنواع الأطعمة المفروغ منها ، والحوائح لما يعمل في الحال إذا طلب ، وإذا بركة كبيرة في الدار نخضتها فإذا هي مملوءة سمكا كباراً وصغاراً ، فاصطدت واحدة كبيرة وخرجت ، فإذا رجل قد صارت بالوحد والماء إلى حد ما رأيت رجله !

فقلت : الآن إن خرجت ورأى هذا معي قتلى ، فقلت : احتال عليه في الخروج ، فلما رجعت إلى البيت أقبلت أقول : آمنت وصدقت فقال لي : مالك ؟ قلت : ما ها هنا حيلة ، وليس إلا التصديق بك ، قال : فاخرج فخرجت ، وقد بعد عن الباب ، وتموه عليه قولي ، فحين خرجت أقبلت أعدو أطلب باب الدار ، ورأى السمكة معي ، فقصدني وعلم أني قد عرفت حيلته ، فأقبل يعدو خلقي فلحقني ، فضربت بالسمكة صدره ووجهه ، وقلت له : أتعبتني حتى مضيت إلى البحر ، فاستخرجت لك هذه منه !!

قال : واشتغل بصدرة وبعينه وما لحقهما من السمكة ، وخرجت فلما صرت خارج الدار طرحت نفسي مستلقياً لما لحقني من الجزع والفرع ، فخرج إلى وضاحكني وقال : أدخل ، فقلت : هيات والله لئن دخلت لا تتركني أخرج أبداً ، فقال : اسمع ، والله لئن شئت قتلك على فراشك لأفعلن ! ولأن سمعت بهذه الحكاية لأقتلنك ، ولو كنت في تخوم الأرض ، وما دام خبرها مستورا . فأنت آمن على نفسك . امض الآن حيث شئت ، وتركني ودخل ، فعلمت انه يقدر على ذلك ، بأن يدس أحد من يطيعه ويعتقد فيه ما يعتقده فيقتلني ، فما حكيت الحكاية إلى أن قتل !! .

وقصة ثالثة ، يبدو فيها الراوية ، متهمكاً ماجناً ساخرآ من كل القيم الإنسانية .

يقول صاحب تاريخ بغداد^(١) : « أخبرنا علي بن أبي الحسن
أحمد بن يوسف الأزرق : أن الحسين بن منصور الحلاج ، لما قدم بغداد
يدعو ، استغوى كثيرا من الناس والرؤساء ، وكان طمعه في الرافضة أقوى
لدخوله من طريقهم .

فراسل أبا سهل بن نوبخت يستغويه . وكان أبو سهل من بينهم مثقفاً
فهماً فطناً ، فقال أبو سهل لرسوله : هذه المعجزات التي يظهرها قد تأتي
فيها الخيل . ولكن أنا رجل غزل . ولا لذة لي أكبر من النساء وخلوقي
هن . وأنا مبتلى بالصلع . حتى أني أطول قحني وأخذ به إلى جبيني وأشدّه .
بالعمامة . وأجتال فيه بحيل . ومبتلى بالخصاب لسر المشيب . فإن جعل لي
شعرا ورد لحيتي سوداء بلا خضاب . آمنت بما يدعوني إليه كأنما
ما كان .

إن شاء قلت : إنه باب الإمام ! وإن شاء الإمام ! وإن شاء قلت إنه
النبي . وإن شاء قلت : إنه الله !

قال فلما سمع الحلاج جوابه آيس منه ، وكف عنه . قال أبو الحسن :
وكان الحلاج يدعو كل قوم إلى شيء من هذه الأشياء التي ذكرها
أبو سهل .

ثم يقول : « وأخبرني جماعة من أصحابنا أنه لما افتتن الناس بالآهواز
وكورها بالحلاج : وما يخرجهم من الأطمعة والأشربة في غير حينها .
والدراهم التي سماها دراهم القدرة . حدثت أبو علي الجبائي بذلك . فقال
لهم : هذه الأشياء محفوظة في منازل يمكن الخيل فيها . ولكن أدخلوه
بيتنا من بيوتكم لا من منزله هو . وكلفوه بأن يخرج منه جزرتين فإن
فعل قصدوه .

(١) ج ٨ ص ١٢٤-١٢٥-١٢٦

فبلغ الحلاج قوله . وأن قوما قد عملوا على ذلك . فخرج عن
الأنهواز ! .

وتعني قصص الخصوم هادفة مجرحة . يصعد بها الرواة إلى راوى أخير .
لا يذكر اسمه . وإنما يذكر نعته . وهو أنه من الثقة ! .

يقول الخطيب البغدادي^(١) : « أنبأنا علي بن أبي على المعدل عن
أبي الحسن أحمد بن يوسف الأزرق ، قال : حدثني غير واحد من الثقات
من أصحابنا : أن الحسين بن منصور الحلاج ، كان قد أنفذ أحد أصحابه إلى
بلد من بلدان الجبل ، وافقه على حيلة يعملها ، فخرج الرجل فأقام عندهم
سنتين يظهر النسك والعبادة ، ويقرأ القرآن ويصوم ، فغلب على البلد حتى
إذا علم بأنه قد تمكن أظهر أنه قد عمى ، فكان يقاد إلى مسجده ، ويتمشى
عن كل أحد شهورا .

ثم أظهر أنه قد زمن ، فكان يحبو ويحمل إلى المسجد حتى مضت
سنة على ذلك ، وتقرر في النفوس زمانته وعماه ، فقال لهم بعد ذلك :
في رأيت في النوم كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لي : إنه يطرق هذا
البلد عبد صالح مجاب الدعاء ، يكون عافيتك على يده وبدعائه ، فاطلبوا
إلى كل من يجتاز من الفقراء ، أو من الصوفية ، فلعل الله أن يفرج عني
على يد ذلك العبد وبدعائه ، كما وعدني رسول الله صلى الله عليه وسلم :
فتعلقت النفوس إلى ورود العبد الصالح ، وتطلعت القلوب ، ومعنى
الأجل الذي كان بينه وبين الحلاج ، فقدم البلد فليس الثياب الصوف
الرقاق ، وتفرد في الجامع بالدعاء والصلاة ، وتنهبوا على خبره ، فقالوا

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١١٢ - ١٢٣

للأعمى ، فقال : احملوني إليه فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج ، قال له : يا عبد الله إني رأيت في المنام كيت وكيت ، فتدعوا الله لي ، فقال : ومن أنا وما محلي ؟ فما زال به حتى دعا له ثم مسح يده عليه ، فقام المتزامن صحيحاً مبصراً ! فانقلب البلد وكذا الناس على الحلاج ، فتركهم وخرج من البلد ، وأقام المتعامي المتزامن فيه شهوراً ، ثم قال لهم : إن من حق نعمة الله عندي ، ورده جوارحي عليّ أن انفرد بالعبادة أقراداً أكثر من هذا ، وأن يكون مقامي في الثغر . وقد عملت على الخروج إلى طرسوس ، فمن كانت له حاجة تحماتها ، وإلا فأنا أستودعكم الله ، قال : فأخرج هذا ألف درهم فأعطاه ، وقال أغزبها غنى ، وأعطاه هذا مائة دينار ، وقال . أخرج بها غزاة من هناك وأعطاء هذا مالا ، وهذا مالا ، حتى اجتمع ألوف دنانير ودرهم ، فلحق بالحلاج فقاومه عليها .

ولا يكتفى خصوم الحلاج بهذا ، بل يضعون على لسانه ، كلمات يتهم فيها نفسه ، بأنه يتعلم السحر ، ولماذا يتعلمه ، ليدعو به الخلق إلى الله ! يقول صاحب تاريخ بغداد^(١) وسمعت علي بن أحمد الحاسب قال . سمعت والدي يقول : وجهني المعتضد إلى الهند لأمر أتعرفها ليقف عليها ، وكان معي بالسفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، وكان حسن العشرة طيب الصبغة ، فلما خرجنا من المركب ونحن على الساحل ، والحمالون ينقلون الثياب من المركب إلى الشط ، فقلت له : إيش جئت إلى هناك ؟ قال : جئت لأتعلم السحر ، وأدعو الخلق إلى الله تعالى .

قال : وكان على الشط كوخ وفيه شيخ كبير ، فسأل الحسين بن منصور هل عندكم من يعرف شيئاً من السحر ؟ قال : فأخرج الشيخ كبة غزل ، وناول طرفه الحسين بن منصور ، ثم رمى الكبة في الهواء ، فصارت طاقة

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠ .

واحدة ، ثم صعد عليها ونزل ، وقال للحسين بن منصور : مثل هذا تريد ؟
ثم فارقتي ولم أره بعد ذلك إلا ببغداد .

ويقول أيضاً (١) : « .. أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيرى قال : قال المزين :
رأيت الحسين بن منصور في بعض أسفاره فقلت له : إلى أين ؟ فقال : إلى
الهند أتعلم السحر ، أدعو به الخلق إلى الله عز وجل » .

يقول الأستاذ عبد الحكيم حسان : (٢) يحمل على تكذيبهما أنهما بما
روى بعد محنة الحلاج ، وما يرجح ذلك أن الراوى الأول ، وهو والد على
ابن أحمد الحاجب ، كان موظفاً في قصر المعتضد ، ومكره يحتم عليه نصرة
المذهب السني الذي يعمل القصر والحكومة على حمايته ، وأن الراوى الثاني ،
هو أبو الحسن علي بن محمد المزين ، وهو من خصوم الحلاج .

حتى الروايات التاريخية ، التي تنطق بصدق الحلاج وترفعه ، ونفوره
عما ينسب إليه من الخوارق ، يحاول الرواة إرضاء للسياسة العامة ، أن يعقبوا
عليها بكلمات الشك والتجريح ١١

يقول الخطيب البغدادي (٣) : « أنبأنا علي بن أبي علي البصري ، أخبرني
أبي قال : حدثني أبو الحسن محمد بن عمر القاضي ، قال : حلني خالي معه إلى
الحسين بن منصور الحلاج ، وهو إذ ذاك في جامع البصرة يتعبد ويتصرف
ويقرأ ، قبل أن يدعى تلك الجهالات ويدخل في ذلك ، وكان أمره إذ ذاك
مستوراً ، إلا أن الصوفية تدعى له المعجزات من طريق التصوف ،
وما يسمونه مغوثات ، لا من طريق المذاهب .

قال : فأخذ خالي يحادثه وأنا صبي جالس معهما أسمع ما يجري ، فقال
لخالي : قد عملت علي الخروج من البصرة » فقال له خالي : لم ؟ قال : قد

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠ .

(٢) التصوف في الشعر العربي ١٤١ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١١٩ - ١٢٠ .

صير لي أهل هذا البلد حديثاً ، فقد ضاق صدري وأريد أبعد منهم ، فقال له مثل ماذا ؟ قال : يروني أفعل أشياء فلا يسألوني عنها ، ولا يكشفونها ، فيعلمون أنها ليست كما وقع لهم ، ويخرجون فيقولون : الحلاج بحجاب الدعوة وله مغوئات ، قد تمت على يده الطاف ، ومن أنا حتى يكون لي هذا ؟ بحسبك أن رجلاً حمل إلى منذ أيام دراهم وقال لي : اصرفها إلى الفقراء فلم يكن يحضرني في الحال أحد ، فجعلتها تحت بارية من بوارى الجامع إلى جنب أسطوانة عرفتها ، وجلست طويلاً فلم يجئني أحد ، فانصرفت إلى منزلي وبت ليلتي ، فلما كان من غد جئت إلى الأسطوانة وجعلت أصلي ، فاحتف بي قوم من الفقراء ، فقطعت الصلاة وشلت البارية فأعطيتهم تلك الدراهم ، فثشعوا علي بأن قالوا : لاني إذا ضربت يدي إلى التراب ، صار في يدي دراهم ، قال وأخذ يعدد مثل هذا ، فقام خالي عنه وودعه ولم يعد إليه وقال : هذا منممس وسبكون له بعد هذا شأن . فما مضى إلا قليل حتى خرج من البصرة وظهر أمره .

يقول طاهر بن أحمد التستري : « (١) تعجبت من أمر الحلاج ، فلم أزل أتبع وأطلب الحيل ، وأتلم النيرنجات لأقف على ما هو عليه ! فدخلت عليه يوماً من الأيام ، وسألت وجلست ساعة ، ثم قال لي : يا طاهر لا تمنن ، فإن الذي تراه وتسمعه من فعل الأشخاص لا من فعلي ، لا تظن أنه كرامة ، أو شعوذة ؟ فصح عندي أنه كما يقول :

ويقول أبو العباس الرزاز : « قلت لأبي العباس بن عطاء : ما تقول في الحسين بن منصور ؟ فقال : ذاك مخدوم من الجن ؟ قال فلما كان بعد سنة ، سألته عنه ، فقال : ذاك من حق ؟ فقلت له :

قد سألتك عنه قبل هذا فقلت : مخدوم من الجن ، وأنت الآن تقول

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٦ .

هذا ! فقال : نعم ، ليس كل من صحبنا يبق معنا ، فيمكننا أن نشرفه على الأحوال ! وسألت عنه وأنت في بدء أمرك ، وأما الآن وقد تأكد الحال بيننا ، فالأمر فيه ما سمعت^(١) .

وأبو العباس بن عطاء ، يزيد الأمر غموضاً وإبهاماً ، فيجعل من عجائب الحلاج ، أو من كراماته سرّاً يجب أن يصاب ، وأن يرض به على غير أهله .

ومصرع الحلاج أيضاً ، تحيط به الخوارق أو الكرامات ، كما يتحدث الرواة ، فجسده يبق ساعات حياً بعد قطع رأسه ؟ ودمه يخط على الأرض .. لا إله إلا الله !

وعندى أن أروع خوارق الحلاج أو كراماته ، هى فدائمه وبطولته الصادرة فى إيمان عميق ، وثبات رهيب ، وصبر معجز ، أمام هول من العذاب لا يحتمله بشر !

لم يضعف ، ولم يمن ، ولم يتراجع ، ولم يغفل لسانه أو قلبه ، لحظة أو سائحة عن ذكر الله ، والتغنى بحبه .

والحلاج بعد هذا من أصحاب الرياضات والمجاهدات ، بل هو قمة شاذة فى المجاهدات والرياضات الروحية ، حمل نفسه فيها على الصعب الأشق ، وهى طريق ينبت دائماً ، هذه الخوارق ، أو هذه الكرامات .

والخارقة أو الكرامة ، من الأمور التى يكاد الإجماع يتعقد على جوازها للصفوة الممتازة المختارة ، من المؤمنين البررة ، يجرىها الله سبحانه على أيديهم ، تنبيهاً لهم ، أو إظهاراً لمقامهم ، فضلاً منه سبحانه وكرماً .

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠

والمصوفة يجعلون الكرامة ، من طبيعة حياتهم الروحية المضيئة ، ويقولون أن الولاية لم يدعها في الإسلام سواهم ، وهي آية صدقهم وتقواهم .

ولكن الصوفية مع هذا لا يكبرون من شأن الكرامة ، ولا يعتزون بالخارقة ، بل يرونها من أنواع الإبتلاء ، وأن الوقوف معها من علامات النقص .

والكرامة الكبرى عندهم ، هي ترقيهم في معارج السكال الخلق والروحي ، وثباتهم في هذه المعارج ، وتذوقهم لها ، مع حفظ جوارحهم وقلوبهم وألسنتهم حفظاً ربانياً ، هو علامة الرضا ، وآية القبول ، ودليل الكرامة الأعلى .

يقول سهل بن عبد الله التستري : « أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

ويقول أبو القاسم الجنيد : « إن الإتسكال على الكرامات أحد الحجب التي تمنع المختار من النفوذ إلى صومعة الحق المحجبة » .

ويقول أبو الحسن الخرقاني : « الكرامات أول مراحل ألف في الطريق إلى الله » .

الحلاج والحب الالهي

مفتاح شخصية الحلاج هو حبه الإلهي ، فهو ستمته وطابعه ، وهو الذي شكل ملامحه الروحية ، وكون معارفه الذوقية ، وهو معراجة الذي صعد عليه ، مستهدفاً الوصول إلى شيء يدق على التعبير ، ويسمو على التصور والتصوير ، إلى الفناء في المحبوب الأسمى ، فناء يمنحه الخلود والبقاء ، ويضفي عليه بهاء الرجل الإلهي .

عاش الحلاج بالحب وللحب ، فهو قوته الروحي ، وغذاؤه القلبي ، وهو ملهب أشواقه ، ومبدع مواجيده ، ومطلق ألحانه . وهو أفقه الفسيح المتألي ، الذي تترقرق فيه الأنوار وتتجلى فيه الأسرار .

والحب هو التصوف ، والتصوف هو الحب ، ولقد حاول رجال المنهج الصوفي ، قديماً وحديثاً أن يعرفوا التصوف ، فابتدعوا وابتكروا كلمات مضنية ، تعبر عن الأخلاق ، وعن الزهد ، وعن التيسامي ، وعن العبادة ، ولكنها عندى جميعها إنما تعبر تعبيراً جزئياً لا يصور المنهج الصوفي ، ولا يحيط به .

فالتصوف في جوهره ، هو الصلة الدائمة البقطة الحية بالله ، هو محاولة تجريبية لعودة الإنسان ، بكل جزئية في كيانه الروحي ، إلى مبدعه ومولاه .

هو إيقاظ عين القلب ، لتفتح بكل طاقاتها التي أودعها الله فيها ، لتكون مبصرة في عالم المشاهدة ، تترى الله في كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء .

والصوفي في تجربته الكبرى ، مسافر في ملكوت السماء والأرض ،
يسلك طريقاً روحياً تتوالى فيه وتتتابع ، الأحوال والمقامات ، بإلهاماتها
وأذواقها ومعارفها ، حتى يصل من المقام الأول . مقام النوبة ، إلى
المقام الأعلى ، مقام الفناء بالله والبقاء به ، ليغدوا ربانياً سمعه بالله ،
وبصره بالله ، وكل ما يصدر عنه ، وينبثق منه ، ويتحرك فيه ، إنما هو
لله وبالله

وبراقه الصاعد ، ومفراجه ودليله وهاديه في طريقه . هو حبه لربه ،
ذلك الحب الذى يحرق فيه ، كل ما هو ترابي ، ليبقى كل ما هو
روحي رباني .

ذلك الحب الذى يغسل قلبه من الدنيا ، ويطلق كنوز روحه العليا ،
ويمنحه مذاقات الأندلس والقرب ، وما إلى الأانس والقرب ، من هبات
التجربة الصوفية وعطاياها .

ذلك الحب ، هو عنوان التصوف ، وهو البذرة الأم ، التى نمت منها
أغصانه ، وانبثق زهره ، وأينع ثمره .

وقد جعل الصوفية من هذا الحب ، فلسفة تحيط بكل شيء فى الكون ،
وتمتد أجنحتها إلى كل أفق الحياة .

فلسفة تمسح من وجه الكون الكبير قناعه المادى ، لتحيل الكون جميعه
إلى أرواح حساسة طابدة مسيحة ، لأنها بالحب خلقت ، وبالحب قامت ،
وبالحب تسبح وتمتف .

ثم تمشى إلى الأخلاق الإنسانية ، فتنفخ فيها من روح الله ، وتسمو
بها إلى هداه ورضاه .

يقول جلال الدين الرومى ، شاعر التصوف الفارسى : « الحب دواء
كبريائنا ، وغرورنا بأنفسنا ، وهو الطيب لضغفنا كله ، ومن استعار

الحب ثوبه ، برىء أصالة من كل لئثرته^(١) .

وعلى قدر حبة الصوفى لربه ، تكون محبته لعباده ولكونه ، بكل ما فيه ،
وبكل ما ينطوى عليه .

والحب الإلهى ، يضئ على الكون الجمال المطلق : الله نور السموات
والأرض ؛ ويضئ على أحداث الحياة الرضا ، فكل شىء جميل ، لأنه من
قضاء الله ، ومن إرادته ، وقضاء الحبيب حبيب .

والحب كما يقول الصوفية : هو سكر المشاهدة ، وشجاعة البازل ،
وإيمان الولى ، والأصل الأصيل للتحقق الخلق ، والإدراك الروحى ، هو
نبذ النفس وتضحيتها ، والتخلى عن كل مملوك من مال أو جاه ، أو إرادة
أو حياة ، وعن كل ما يرض به الناس ، لوجه المحبوب ، دون تفكير فى
جزاء^(٢) .

والحب الإلهى هو المصدر الحقيقى ، الذى استمدت منه الموجودات
وجودها ، وهو سبيل المعرفة العليا ، فإذا فنيت النفس عن أوصافها بالحب .
انكشفت لها الأسرار ، ورفعت عنها الأستار .

يقول المستشرق جولدزير : و^(٣) فمحبة الله هى إذن خلاصة ما انتهى
إليه هذا المجهود المركز الذى بذلته أرواح الصوفيين لى يفنى خيال الوجود
الشخصى ، فى حقيقة الكائن الإلهى ، الشاملة لكل شىء ، وقد أنتجت هذه
الفكرة فى كافة لغات الأمم الإسلامية الراقية ، أدباً شعرياً يعد فى مرتبة
الدرر الفريدة فى الأدب العالمى ، وهذه الفكرة العامة كانت أساساً فلسفياً
كافياً . لأن يدهم حياة الفنك والتصوف :

(١) الصوفية فى الإسلام لنيكلسون . ترجمة شريعة . ص ١٠٨

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٤

(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٥٦

والحب الإلهي شرعة عامة للناس جميعاً . إنما هو هبة الله للصفوة المختارة التي سبق له منها الحسن .

قيل لمعروف الكرخي : « أخبرنا عن المحبة أى شئ هي ؟ قال : يا أخى ليس المحبة من تعليم الناس ، المحبة من تعليم الحبيب ^(١) » .

ويقول أبو اليزيد البسطامي : « توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه . فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ومعرفته سبقت معرفتى . ومحبته أقدم من محبتي . وطلبه لى أولاً حتى طلبته ^(٢) » .

ويقول الإمام الغزالي : « ^(٣) إن الله تعالى شرباً يسقيه فى الليل قلوب أحبائه . فإذا شربوا طارت قلوبهم فى الملكوت الأعلى ، حباً لله تعالى وشوقاً إليه » .

ومثل أبو سعيد الخراز عن المحبة فقال : « طوبى لمن شرب كأساً من محبته ، وذاق نعيماً من مناجاة الجليل وقربه ، بما وجد من اللذات لمحبه ، فلى قلبه حباً ، وطار بالله طرباً ، وهام به اشتياقاً ، فيا له من وامق سف بربه ، كلف دنف ، ليس له سكن غيره ، ولا مالوف سواه ^(٤) » .

ويقول أبو القاسم الجنيد : « سألنى السرى السقطى يوماً عن المحبة ؟ فقلت : هي الموافقة ، وقال قوم : الإيثار ، فأخذ السرى جلدة ذراعه ومدّها فلم تمتد ! ثم قال : وعزته تعالى لو قلت : إن هذه الجلدة يبتس على هذا العظم من محبته لصدقت ، ثم غشى عليه » .

ويقول جلال الدين الرومى عن الحب : « هو الكحل الذى تكتحل به عين القلب فيتجلى بصرها ^(٥) » .

(١) قوت القلوب للمسكى ج ٣ ص ١٠٠

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨٩

(٣) إحياء علوم الدين باب المحبة

(٤) الهم لأبى نصر السراج الطوسى : طبع القاهرة

(٥) المشنوى لجلال الدين : طبع طهران .

والحب في منطق الصوفية ، هو أسمى العبادات وأزكاها . وهو معراج المعرفة . وبرايق القرب يقول فريد الدين العطار : « ما لم أتجه بقلبي إليك أعد صلاقي غير جديرة بأن تعد صلاة » .

ويقول الشبلي : « لأن تحس أنك واحد مع الله خير من عبادة الناس جميعاً . من بدء الدنيا إلى غايتها » .

والحب الإلهي في التصوف الإسلامي . يدين للحلاج ديناً كبيراً . فقد ترك في المحبة وما يتصل بها . ويدور حولها . ثروة خصبة حية غدت مادة الصوفية في هذا المنهج . ودستورهم المتكامل في هذا الأفق .

بل يرى ماسنيون : أن الحلاج هو الشخصية الكاملة التي تمثل أصدق تمثيل أسمى ما وصل إليه الحب الإلهي . في التصوف الإسلامي .

ويقول نيكلسون : « لقد نمت على يد الحلاج أكبر حركة تطور في تاريخ التصوف . فهو المبتكر الأول للمصطلحات الصوفية . التي وسعت آفاق التصوف وهو الذي جعل من الحب الإلهي فلسفة كاملة . ومنهجاً متماسكاً . وأن كل من جاء بعده إنما كان يفسح ويقلد » .

ويقول الأسناذ عبد الحكيم حسان . متحدثاً عن نمو التصوف وتطوره . من الزهد إلى المحبة : « (١) أما حين انتهى أمر الحب الإلهي إلى الحلاج . فإنه اتخذ شكلاً قوياً لما رتب عليه الحلاج من مذاهب صوفية كثيرة .

فقد تسكلم صراحة في اتحاد المحب بالمحبوب . اتحاداً يزيل صفة البشرية

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه

(٢) التصوف في الشعر العربي ص ٢٩٢

عن الحب . باستبداله بصفاته صفات الله عز وجل . وصحب هذا كلام في
اللاهوت والناسوت لأول مرة في تاريخ التصوف .

كما استتبع كلامه في الحب الإلهي ، كلاماً آخر في — النور المحمدي —
لأن من أحب الله ، فقد أحب حبيبه محمداً . وانتهى به كلامه في الحب إلى
القول بوحدة الأديان .
وهكذا ترك الحلاج في الحب الإلهي وما يتصل به ، ثورة ضخمة من
بين منظوم ومنثور .

ويقول المستشرق بروان : « كان ظهور الحلاج إيذاناً ببداية مرحلة
جديدة في التصوف الإسلامي ثمره وشعره على السواء . خاصة في
الحب الإلهي » .

ولا جدال في أن أخذ صفات الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ،
هي الصفات التي كتبها الحلاج ثراً ونظماً . كتبها بذبذب قلبه . وبقطرات
روحه . وبأشد حرارة ووجد . عرفاً عن حب أفنى وجوده وكيانه وروحه
في محبوبه الأسمى .

يقول الحلاج : « حقيقة المحبة . قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك
والاتصال بأوصافه » .

لقد استهدف الحلاج بحبه الفناء السكامل . ليخرج من بشرية صفاته ،
إلى بهاء النخيل بأوصاف القدس الأعلى .

استهدف الإرتفاع بالبشرية . إلى مرتبة الحقيقة الربانية التي يمكن وراء
سترها المقدس سر الوجود . وسر الخلق .

فالخلق أصلاً برز من عالم الغيب بالحب . وخلق بالحب . وتشكلت حقائقه
وصفاته بالحب . ومن هنا أصبح الحب هو سر الكون ؟

وهذا الحب وحده يمكن الإنسان أن يتصل بالحقيقة العليا . وبالعرفة العليا .
وأخيراً يمكنه به أن يحقق في ذاته الإنسان السكامل : الإنسان الذي يتخلى عن
تراثه . ليتجلى بهاء الرجل الرباني ، الذي يعيش في فيض من نور ربه ووجهه .

يقول الحلاج :

« كان الله قبل أن يخلق خلقه ، يتحدث إلى نفسه في أحديثه ، حديثاً حديداً ، وهو يتأمل روعة ماهيته ، وتأمله لذاته في بساطة ، هو الحب .
والحب في ماهيته ، هو ماهية الماهية ، وهو فوق كل تشكّل بأشكال الصفات ، وهكذا يحب الله ذاته في انفراده بحمد ذاته ، ويتجلى في الحب .
وعن هذا التجلي الأول للحب ، في المطلق الإلهي ، ظهرت صفاته وأسمائه .

فبالحب تجلى لنفسه في نفسه ، فلما أحب أن يرى ذلك الحب بعيداً عن الغيرية والثبوتية في صورة ظاهرة ، أخرج من العدم صورة لها جميع صفاته وأسمائه ، فكانت هذه الصورة الإلهية آدم الذي تجلى الحق فيه^(١) .
وهذا ارتفاع بالإنسان والإنسانية ، تنبثق منه فلسفة إيمانية ربانية ، هي الفلسفة التي شكلت أبدع وأضوأ جوانب الحياة الروحية ، في تاريخ التصوف الإسلامي .

ومن هنا كانت نظرية الحلاج ، التي اعتنقها الصوفية جميعاً ، تلك النظرية التي جعلت الحب ، والحب وحده هو المعراج الموصل لمعرفة الله .
يقول الحلاج : « لاسبيل إلى معرفة الله بالعلم ، بل إن الحب هو الطريق إليها ، إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهي هي التي تقربنا من الله ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهي في كل لحظة » .

ومن هنا يقول الحلاج : « ما من أحد يعبد الله بفعل ، يكون أحب إلى الله من حبه تعالى » .

وقد عبد الحلاج ربه سبحانه بهذا الحب ، عبادة حارة مضئنة أحاطت بحياته ، وبثت فيها مذاقات وإلهامات ، وعرضت على عين قلبه صوراً

(١) طاسين الازل .

من التجليات والمشاهدات ، جعلته في شوقه ووجدته يحس إحساساً روحياً بأنه مع من يحب ، بل يحس إحساساً لا شعورياً في حيرته وذهوله ، أن بشريته قد احترقت وفنيت في هذا المحبوب الأسمى .

يقول ما سديون : (١) وليس هناك من متصوف أكثر عشرة مع الله يتصل في حديثه معه — أنا وأنت ونحن — دون إشارة إلى رهون الحب البشري ، من الحلاج .

ثم يقول : « وليس هناك من شعر صوفي أشد حرارة ، وأكثر بعداً عن المادة من شعر الحلاج » .
يقول الحلاج (٢) :

تباركت مشيتك ياربى وسيدى

تباركت مشيتك يا قصى ومرادى

يا ذات وجودى وغاية رغبى

يا حديثى وإيمانى ورمزى

يا كل كلى يا سمعى ويا بصرى

يا جميعى وعنصرى وأجزائى

لقد فنى الحلاج عن كل شيء ، وأعرض عن كل شيء ، واستغرقه حبه لربه ، استغراقاً جعله يحس بأن هذا الحب ، قد ملأ وجوده وقلبه وروحه .

لأنه ليحب بكل ذرة من ذرات جسده ، وبكل طاقة من طاقات روحه ، حتى لم يعد كيانه كله ، إلا حباً وتجلياً لمولاه وحيبيه .

(١) مقدمه الطواسين طبع باريس

(٢) الصوفية في الاسلام ص ١٥٠

حريت بكلى كل حبك يا قدسى تبكاشفىنى حتى كأنك نفسى
 اقلب قلبى فى سواك فلا أرى سوى وحشتى منه ومنك به أنسى
 فهل أنا فى حب الحياة بمجمع
 من الأنس فاقبضنى إليك من الحبس (١)

ثم يقول (١) :

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لخلق فى مكانك موضع
 وحطتك روحى بين جلدى وأعظمى فكيف ترانى إن فقدتك أصنع

ثم ينف فى ضراعة بأكية (٢) :

يا موضع الناظر من ناظرى ويا مكان السر من خاطرى
 يا جملة الكل التى كلها أحب من بعضى ومن سائرى
 تراك ترى للذى قلبه معلق فى مغلبى طار
 مدله حيران مستوحش يهرب من قفر إلى آخر
 يسرى وما يدرى وأسراره تسرى كلبح البارق الشائر
 كسرعة الوهم لمن وهمه على دقيق الغامض الغابر
 فى لج بحر الفكر تجرى به لطائف من قدرة القادر

والحلاج لا يكتف حبه ، فأطيب الحب وأعذبه ما سار الحديث به ،
 وتناقلته الرواة .

الحب مادام مكتوماً على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
 وأطيب الحب ما نهم الحديث به كالنار لم توت نفعاً وهى فى الحجر
 من بعد ما حضر الأحباب واجتمع الـ أعداء واختلط اسمى صاحب الخبر

(١) ديوان الحلاج المقطوعه رقم ٣٠

(٢) " " " " ٣

(٣) " " " "

أرجو لنفسى برأ من محبتكم إذا تبرأت من سمعى ومن بصرى^(١)
وهو قلق فى حبه ، تنقاذفه أمواج الوجد والشوق ، إلى محيطات ليس
لها شط .

ما زلت أطفو فى بحار الهوى يرفعنى الموج وأنخط
فتارة يرفعنى موجها وتارة أهوى وأنخط أنا
حتى إذا صيرنى فى الهوى إلى مكان ماله شط
ناديت يا من لم أبح باسمه ولم أخنه فى الهوى قط
تقيك نفسى السوء من حاكم ما كان هذا يبتنا شرط^(٢)

والحلاج فى حبه يخاطب محبوبه الأسمى مواجهة ، يقول ما سنيون :
« إن أسلوب الحلاج فى الحب ، أسلوب مجرد من المظاهر المادية ، فهو
لا يستعمل الطريقة الرمزية — ليلى ، لبنى — التى تتخذ شكلا من أشكال
الحب الدنيوى .

سكنت قلبى وفيه منك أسرار فليهنك الدار بل فليهنك الجار
ما فيه غيرك من سر علنت به فانظر بعينك هل فى الدار ديار
وليلة الهجران طالت وإن قصرت فؤوسى أملى فيها وتذكر
إنى لراض بما يرضيك من تلقى يا قاتلى ولما تختار أختار^(٣)

ثم يوغل الحلاج فى حبه ، وفى قربه ، وفى طاعته . وفى أنسه بربه ،
حتى يكون الله سبحانه ، يصره وسمعه ، يده وبدنه ، فيهتف فى نشوة
وجدته ، وحرقة فئاته :

لييك لبيك ياسرئ ونجوائى لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى

(١) ديوان الحلاج مقطوعة ٢٤

(٢) " " " ٣٤

(٣) " " " ٢٣

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل
يا عين عين وجودي يا مدى همي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصرى
يا من به علقت روحي فقد تلفت
أبكي على شجني من فرقتى وطنى
أدنو فيبعدني خوفى فيقلقنى
فكيف أصنع فى حب كلفت به
قالوا تداو به منه فقلت لهم
حبى لمولاي أضناني وأسقمنى
إنى لا أرمقه والقلب يعرفه
يا ويح روحي من روحي فوالأسفى
كأننى غرق تبدو أنامله
وليس يعلم ما لاقيت من أحد
يا غاية المسؤل والمأمول يا سكنى
قل لى فديتك يا سمعى ويا بصرى
إن كنت بالغيب عن عيني محتجباً
ويمشى خطوات على لبيب وجده المقدس ، معتزاً بخوراً بتجليقاته التى
عجزت عنها أجنحة المحبين من قبل .

لقد وسم الحب قلبه بميسم الشوق العنيف الجبار ، حتى غاب عن شهود
ذاته ، لقد استغرقته أنوار يرى معها سواها :

وخضت فى لبحر فكري أمر فيه كمر سهم
وطار قلبي بريح شوق مركب فى جناح عزمى

إلى الذى إن سئلت عنه رمزت رمزاً ولم أسمى
حتى إذا جرت كل حد فى فلوات الدنو أسمى
نظرت إذ ذاك فى سجال فما تجاوزت حد رسمى
فجئت مستسلماً إليه حد قيادى بكف سلمى
قد وسم منه الحب قلبى بميسم الشوق أى وسم
وغاب عنى شهود ذاتى بالقرب حتى نسيت اسمى (١)

وحب الحلاج هو كل آماله وأحلامه ، هو دينه وديناه . إنه حب قلب
أبصر فعشق فاحترق .

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذراتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذمرت مولائى
ما لامننى فيك أحبابى وأعدائى إلا لغفلتهم عن عظم بلوائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بحبك يا دينى ودنياى
أشعلت فى كبدى نارين واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائى
ثم يقول مترنماً :

ولا هممت لشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك فى الماء
النار أبرد من ثلج على كبدى والسيف ألين من هجران مولائى (٢)
ومن مناجاته :

غبت وما غبت عن ضميرى وصرت فرجتى وسرورى

(١) ديوان الحلاج ص ٧ • طبع باريس

(٢) • • • طبع باريس

وانفصل الفصل باقتراق فصار في غيتي حضوري.
فأنت في سر غيب همي أخفي من الوهم في ضميري
تؤنسني بالنهار حقاً وأنت عند الدجى سميري^(١)
ومن ألحانه :

لى حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشى على قلبى مشا
روحه روحى وروحي روحه إن يشا شئت وإن شئت يشا^(٢)
ومن ترنياته :

مزجت روحك في روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال^(٣)
ومن مواجيده:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٤)
وفي لحظات يقظته الروحية ، يشرح لنا فى أدق عبارة ، وأبين منطق ،
حقائق كلماته ، فى سبحاته نشوته ، واحترافات وجدده ، ولحظات فناءه
عن ذاته .

إنها كلمات من استغراقات المشاهدة ، لا تقصد لذاتها ، وإنما تعبر فى
لحظات التجلى ، عن فناء صفاتها فى لهيب وجددها ، فلا ترى فى الكون
إلا هو سبحانه .

(١) ديوان الحلاج ص ٦١

(٢) " " ص ٦٩

(٣) الطواسين ص ١٣٤

(٤) المصدر السابق

عجبت منك ومنى يا منية المتمنى
أدقنتى منك حتى ظننت أنك أنى
وغبت فى الوجد حتى أفقنتى بك عنى
يا نعمتى فى حياتى وراحتى بعد دفنى
مالى بغيرك أنس من حيث خوفي وأمنى^(١)

ومنهج العلاج فى الحب هو العذاب لا اللذة ، هو التضحية ، التضحية
الكاملة بالنفس ، وهذه التضحية ، هى أسنى درجات الحب ، لأنها أكبر
الآيات على صدق الحب فى حبه .

يقول نيكلسون : ^(٢) أما العلاج فيرى أن محبة الله لعباده ورحمته
بهم ، فوق كل شيء ، وأن أساس المحبة التضحية ، وأن المحب يجب أن
يشقى من أجل محبوبه ، من غير أن يسأل عن الأسباب ، وأن الواجب
على أولياء الله أن يتوجهوا إلى الله وحده ويتحققوا بمعنى العبودية الكاملة
ويطيعوا أمره مهما كلفهم ذلك من عناء وشقاء .

ويقول العلاج : ^(٣) المحبة لذة ، والحق لا يتلذذ به ، لأن مواضع
الحقيقة دهش وحيرة !!

ثم يقول : محبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار ، فلا يستجيز تعظيم سواه ،
ومحبة الله للعبد ، هو أن يبليه فلا يصلح لغيره . !! .

(١) ديون العلاج ص ٣٠

(٢) الصوفية فى الإسلام ص ١٣٦

(٣) نفس المصدر ص ١١٠ .

مقام الفناء الصوفي

وشبهات الاتحاد والحلول

وانتهى الحب الإلهي بالصوفية ، إلى ذروة التجربة الروحية ، إلى مقام الفناء . ففقدوا في محبوبهم الأعلى ، فناء لم يشاهدوا خلاله غير جمال الحبيب ، وهم في بحر الفناء الزاخر ، لا يحسون بشيء من الموجودات ، لأن الإحساس قد فني بالنسبة لهذه الموجودات ، واتجه بكليته لمطالعة جمال المحبوب^(١).

وبالفناء يفقد الصوفية عالم الناس ، ليعيشوا في عالم آخر ، هو عالم الجمال المطلق ، والخير المطلق ، والحق المطلق ، وفي عالمهم هذا ، ترفع الأستار عن الأسرار ، وتتجلى لهم الحقائق ، حق اليقين . وعين اليقين .

وهم في عالمهم هذا ، ليسوا على درجة سواء ، فمنهم من يشاهد الحبيب وهو في حالة رهبة أو خشية ، ومنهم من يشاهده وهو في حاله أنس به ، أو مناجاة له .

وقد تزداد درجة القرب ، ثم تزداد حتى يتحدث الحب عن الله بصيغة المتكلم ، فقد غاب عن نفسه ، وعن كونه ، فلم يعد يرى إلا الأول والآخر والظاهر والباطن سبحانه ، أو كما يقول الصوفية : يغدو الكلام إشارة منه به إليه ! .

يقول معروف الكرخي : « إذا انفتحت عين بصيرة العارف ، نامت عين بصره » فلا يرى إلا الله .

(١) التصوف في الشعر العربي ص ٢٩٩

ويقول الحلاج : « من أسكرته أنوار التوحيد ، حجبته عن عبارة التجريد ، بل من أسكرته أنوار التجريد ، نطق عن حقائق التوحيد ، لأن السكران هو الذى ينطق بكل مكتوم » .

ويقول شارح المواقف للنفرى : « أقل علوم القرب — القرب من الله — أنك إذا نظرت إلى أى شخص محسوس أو معقول ، أو غير ذلك فسوف ترى الله فيه رؤية أبين من رؤية الشئ نفسه . والدرجات فى ذلك متفاوتة .

فبعض الصوفية يقولون : إنهم لا يرون شيئاً إلا ويرون الله قبله ، وبعضهم يقول : إنهم لا يرون شيئاً إلا ويرون الله بعده ، وآخرون يقولون : إنهم لا يرون شيئاً إلا ويرون الله معه ، ويقول غيرهم : ما رأينا شيئاً غير الله .

والفناء هو غاية الصوفية ، ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيه بمتع ولذائذ روحية ، تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم ، وكل شئ سوى المحبوب الأعلى .

والفانى كما يقول الصوفية ، لا يحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون فى نشوة الفناء ، ووقدة الحب ، ليس فى الوجود إلا الله .

والفناء كما يقول الجرجاني : فناء من أحدهما ذوق ، والآخر خلق ، فالذوق هو عدم الإحساس بعالم الملك والملوك ، بالإستغراق فى عظمة البارئ ومشاهدة الحق .

والخلقى ، هو سقوط أوصافه المذمومة ، واستبدالها بالأوصاف
المحمودة^(١).

ويصف أبو القاسم الجنيد الفناء : بأنه دخول صفات المحبوب على البذل
من صفات المحب ، أى التخلق بأخلاق الله وصفاته ليكون ربانياً .

ويقول المستشرق نيكلسون : «^(٢) والصوفية كلها تقوم على القول بأنه
إذا فقدت النفس الفردية ، فقد وجدت النفس الكلية ، والجذب يهيء
الأسباب التى بها تتصل الروح مباشرة بالله .

والزهد والتطهر من الآثام ، والحب والمعرفة والولاية ، بل جميع
الأفكار الأساسية فى الصوفية ، تنبع من هذا الأصل الجامع .

والفناء كما يقول - الجامى - يتبهاً يجعل القلب واحداً ، وذلك بتطهيره
وحبسه عن الاتصال بشيء خلا الله ، سواء فى الإرادة أو العلم أو المعرفة ،
ورغبة الصوفى أو إرادته ، لا بد أن تصرف صرفاً عن الأشياء جميعاً
المرغوب فيها والمراد .

ولا بد كذلك أن تطرد من خياله الواعى ، كل موضوعات العلم
والعرفان ، ولا بد أن توجه أفكاره جميعاً إلى الله لا غير ، وألا يذكر معه
غيره .»

ويقول العلامة ، زين الدين الحافى : «^(٣) العبد إذا تخلق ثم يحقق ،
ثم جذب ، اضمحلت ذاته ، وذهبت صفاته ، وتخلص من السوى ، فعند
ذلك تلوح له بروق الحق بالحق ، فيطلع على كل شيء ، ويرى الله عند كل
شيء ، وهذا أول المقامات .

(١) التعريفات ص ١١٣

(٢) الصوفية فى الإسلام ص ٦٢ و ٦٣

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٢

فإذا ترقى عن هذا المقام ، وأشرف على مقام أعلى منه ، وعضده
التأييد الإلهى ، أى أن الأشياء كلها فيض وجوده تعالى ، لاعين وجوده .

ويقول الدكتور عبدالرحمن عزام : «^(١)الفناء عند الصوفية هو خلاص
الإنسان من نزعانه وأهوائه وإرادته الخاصة ، فيكون كل فكره وعمله
لله وبالله .

وبهذا ينبغي أن يفسر ما يقول الصوفية فى الفناء ، إنه ليس بموت ،
لأن الذى يسمونه فناً يعيش على هذه الأرض ، وليس هو حلول الله
فى الإنسان ، كما فى بعض النحل .

ويقول العلامة المحجوزى : «^(٢)هو درجة كمال يبلغها العارفون ،
الذين انتهى بهم الطلب إلى الكشف ، فأروا كل مرئى ، وسموا كل مسموع .
وأدركوا كل أسرار القلب ، وأعرضوا عن كل شئ . وفنوا فى مقصدهم ،
وفنيت فى هذا المقصد ، كل مقاصدهم .

والصوفية كما يقول المستشرق — جولد زيهـر^(٣) : « يارازهم للبـل
الأعلى لـكـال النفس الإنسانية ، وتحديدـهم للخير الأسمى ، فى هذا المقام ،
يزيدون على الفلاسفة خطوة ، ويسبقونهم درجة .

وكما يقول العلامة ابن سبعين المرسى : « إن الفلاسفة الأقدمين رأوا
أن الغاية المثلى هى التشبه بالله ، بينما الصوفية يدأبون على الفناء فى الله ،
وذلك بأن يكون الصوق قابلاً لأن يدع السنن الإلهية تغمره وتفيض عليه ،
وأن يحو انفعالات الحواس ، ويظهر مشاعر الروح .

(١) فريد الدين الطار والتصوف ص ١١٢ .

(٢) كفف المحجوب

(٣) العقيدة والشرعية فى الاسلام

والحلاج عند صوفية ما وراء النهر جميعاً ، وعند الكثرة من رجال
الإستشراق ، أبرز وأقوى الشخصيات الصوفية ، التي عاشت هذا المقام
وتحققته به ، وتذوقت إلهامه ، وكشفت الأسرار عن أسرارها .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال في حديثه عن تطورات التفكير الديني
في الإسلام : (١) وقد بلغ تطور هذا المقام ذروته في تاريخ الإسلام ،
في عبارة الحلاج المشهورة « أنا الحق ، ولا مجال للشك في أن الولي
الشهيد لم يكن يقصد من عبارته ، أن ينكر على الله صفة التنزيه ، فالحلاج
لم يستهدف بكلمته فناء الذات الإنسانية ، واختفاءها في ذات الله ، ولكنه
إدراك حقيقة النفس الإنسانية ، وتأكيده جزئي لدوامها في شخصية أعمق ،
بعبارة قوية باقية على الدهر :

ثم يقول : وهذه التجربة في تاريخ الرياضة الدينية في الإسلام ، تجعل
الإنسان كما قال الرسول يتخلق بأخلاق الله .

وقد عبر عنها بعبارات مثل — أنا الحق — الحلاج — وأنا الدهر —
النبي محمد — وأنا القرآن الناطق — علي بن أبي طالب .

وفي التصوف الإسلامي الرفيع ، ليس معنى أن إرادة الإنسان هي
عين إرادة الله ، إن النفس الإنسانية تمحو شخصيتها هي ، بنوع من
الإستغراق في الذات غير المتناهية .

بل الأحرى أن الذات غير المتناهية ، تدخل بين أحضان محبها المتناهي
وهي حياة وثقة لا حد لها ولا عائق ، تجعل الإنسان قادراً على إقامة
الصلوات آمناً مطمئناً ، والرصاص يتساقط من حوله ، .

لقد انتهت الرياضة الروحية الرفيعة بالصوفية ، إلى مقام الفناء ، وذائق

(١) تجريد التفكير الديني في الإسلام من ١١٠ - ١١٦ .

الصوفية في هذا المقام ، بروق التجليات وأنوار الهبات ، ثم تظلوا فيه عن إرادتهم ومشيتهم وصفاتهم ، ليفنوا في إرادة الله ومشيتته وصفاته ، ثم ليتخلقوا بأخلاقه .

نفرجوا بذلك من نطاق البشرية الترابية ، إلى أفق الربانبة العلوية ، التي تقوم بالله ، وتتكلم بالله ، وتنحرك بالله ، ولا ترى في الكون سواه . ومن هذا الأفق ، كانت كلماتهم التي عبرت عن الله سبحانه ، بأنه الظاهر في كل شيء ، فلا وجود في الحقيقة لغيره .

ومن هذا المقام ومن أفقه ، انطلقت الإتهامات المجنحة قديماً وحديثاً ، تحاول أن تحيل هذا المقام الروحي الإيماني ، إلى ما أسموه ، بالإنحدار والحلول حيناً ، وإلى ما أسموه بوحدة الوجود أحياناً .

وسر الإتهام ، هو عجز الأقلام المادية ، مع علمها ومكانتها ، عن تذوق فلسفة مقام الفناء .

لأنها فلسفة تنبع من السفر الصوفي الطويل ، في الطريق المضى الصاعد إلى الله .

وهي فلسفة بنيت على تذوق ، وعلى مشاهدة ، وعلى محبة ، فاستعصى فهمها على العقول ، التي لم تتذوق ، ولم تشهد ولم تحب .

يقول المستشرق نيكلسون : « إنه مقام أعلن الذين تمرسوا به أنه فوق التعبير والتصوير ، فهو غاية لطريق تنحدر فيه الروح شيئاً فشيئاً من كل ما هو غير رباني ، طريق يتلاشى فيه الصوفي عن وجوده الحسي » .

ويقول العلامة السكلايازي في التعرف : « مشاهدات القلوب ، ومشاهدات الأسرار ، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال » .

ويقول العلامة القوني في شرحه للتعرف : « إذا كمل انقطاع العبد إلى الله ، وفناؤه عن فعله أصبح متحدثاً بلسان الحقيقة .

ثم يقول : وأكثر ما يقع في كلام هذه الطائفة من الإشارات . محمول على هذا النوع من الاستعارات ومن حملها على ظاهرها ، أشكلت عليه معانيها ، فأساء الظن بهم .

فأحياناً يتكلمون بلسان الحقيقة ، كقول الحلاج : أنا الحق ، وكقول ابن الفارض :

وإن عبد النار المجوس وما انطففت كما جاء في الأخبار في ألف حجة فما عبدوا غيري وما كان قصدهم سوى وإن لم يضرروا عقد نيتي وكقول الرسول صلوات الله عليه في حديث البخاري عن أبي هريرة : « ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه ، إلى الجنة » .

لما قاله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه ، وإن لم يصرح به ، وقال : وما منا إلا له مقام معلوم : فهذا على لسان الملائكة ، وقال : وما ننزل إلا بأسر ربك : فهذا على لسان جبريل ، وهذا نوع لطيف حررت الكلام فيه في الإتيان ، ومثال قول علي وفا .

كمالك طاعنى فى كل حال ونقصك أن تعاندى مرادى
فإن هذا قاله على لسان الحقيقة .

ويقول الشيخ نجا في كتابه — كشف الأسرار — : « ذلك لأنه يشهدك تجلياته بسائر مخلوقاته ، لكن بغير حلول ولا مماسه ، ولا نوع من أنواع التجسيم والتشبيه ، كما وقع لسيدنا موسى في تجليه سبحانه على النار ، التي رآها موسى عليه السلام في جانب الشجرة ، حيث سمع النداء ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فلم يشكر موسى عليه السلام تجليه سبحانه ، في النار . بل آمن وصدق . »

ويقول السهروردي : « (١) فإذا نظر العاشق المسكين إلى نفسه لا يبصر بعد شيئاً ، إذا وجده مملوء بهذا النور ،

(١) شخصيات قلقة في الاسلام ص ١٢٧

هنالك يصيح بأمثال تلك العبارة الوجدانية الإلهية المشهورة التي قالها
الحلاج : أنا الحق .

ويقول الحلاج : « لا يستطيع أحد أن يقول أنا على الحقيقة ،
إلا الله وحده » .

ويقول العلامة الهجوري متحدثاً عن مقام الفناء : « (١) إنه توجه
الفكر إلى المطلوب ، وقصره عليه ، وهكذا كان شأن مجنون ليلي ، وجه
فكره إلى ليلي ، وقصره عاها ، يراها في كل شيء ، ويرى فيها كل شيء .
وقد جاء بعضهم إلى صومعة أبي يزيد البسطامي وسأل : أهنا أبو يزيد ؟
فأجابه : أهنا أحد غير الله :

ثم يقتبس عن الحلاج قوله :

تباركت مشيتك يا ربّي وسيدى

تباركت مشيتك يا قصدي ومراذى

يا ذات وجودى وغاية رغبى

يا حديتى وإيمائى ورمزى

يا جميعى وعنصرى وأجزائى

ويحدثنا حجة الإسلام الإمام الغزالي عن التوحيد ومراتبه في كتابه
الأحياء وبعد شرحه للراتب الأول الثلاث يقول :

« (٢) والرابعة ألا يرى في الوجود إلا واحداً ، هي مشاهدة الصديقين ،
وتسمية للصوفية : الفناء في التوحيد : لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ،
فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد ،
كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، وهذه
هي الغاية القصوى في التوحيد .

(١) الصوفية في الاسلام ١٤٩

(٢) لإحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢١٢ ، ٢٣١

وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الخلاج حيث رأى الخواص يدور
في الأسفار ، فقال : لى ماذا أنت ؟ فقال . أدور في الأسفار ، لأصحح
حالى فى التوكل . فقال الحسين : لقد أفنيت عمرك فى عمران باطنك ،
فأين الفناء فى التوحيد ؟

فكان الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فطالبه بالمقام الرابع ، ثم
يقول الغزالى :

« العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى
الوجود إلا الواحد الحق ، ولكن منهم من كان له هذه الحالة عرفاناً
علمياً ، ومنهم من صار له ذوقاً وحالاً ، وانتفت عنهم الكثرة بالسلبية ،
واستغرقوا بالفرسانية المحضة ، فلم يبق عندهم إلا الله ، فسكروا سكرأ وقع
دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم : أنا الحق ، وقال الآخر : سبجائى
ما أعظم شأنى . وقال الآخر : ما فى الجبة إلا الله ؟ وكلام العشاق فى حال
السكر يطوى ولا يحكى »

ثم يزيد الإمام الغزالى هذه المعانى إيضاحاً ، فيعقد فى كتابه معراج
السالكين فصلاً عن المعراج الرابع عند تفسيره لقوله تعالى : « الله نور
السموات والأرض » فيقول :

« (١) فأثبت أن المراد ليس النور الذى كالشعاع ، ولا النور الذى
هو مادة ، ولا كنور البصر ، ولا نور الشمس ، ولا نور العقل ،
ولا نور العلم ، وإنما هو النور الذى تظهر به الأشياء ، وتقوم به الأشياء ،
وتعرف به الأشياء ، وهو نور لا يوصف بالكثافة والتجسيم ، وقد
وصف الله تعالى ذلك بأن قال : « نور على نور » .

ويفيض الغزالى فى شرح الآية الكريمة ، وفى شرح معنى القيومية ،

(١) معراج السالكين ص ٧١

ثم يقول : فمن حقق من الصوفية . وعلم وقوف الأشياء عليه ، وأن الأمور لا قوام لها دونه نال : ما فى الجية إلى الله ، وقال : أنا الحق ، مبالغة فى التوحيد .

ومن عجب أن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وهما دلبا السنة يتحدثان عن مقام الفناء حديثاً يتفق ويتسق تماماً مع المنهج الصوفى بألحانه ومواجيدته وتعبيراته .

يقول ابن القيم : « (١) الفناء الذى يشير إليه القوم ، ويعملون عليه ، أن تذهب المحدثات فى شهود العبد ، وتغيب فى أفق العدم ، كما كانت قبل ان توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً ، فلا يبقى له صورة ولا رسم ، ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود ، ويصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه ، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات ، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل .

ويقول ابن تيمية : « (٢) وقد يعرض لبعض العارفين فى مقام الفناء والجمع والاصطلام والسكر ، بقوة استيلاء الوجد والذكر عليه ، من الحال ما يغيب فيه عن نفسه وغيره ، فيغيب بمعبوده عن عبادته ، وبمعروفه عن معرفته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبوجوده عن وجوده ، ومثل هذا قد يعرض لبعض المحبين لبعض المخلوقين ، كما يذكرون أن رجلاً كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه فى اليم ، فألقى المحب نفسه خلقه ، فقال له : أنا وقعت فما الذى أوقعك ؟ فقال . غبت بك عني ، فظننت أنك أنى . ويلشدون :

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٨٠

(٢) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ٤٤ — ٤٦

رق الزجاج ورقّت الخمر وتشا كلا فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا الحال تعرض لكثير من السالكين . ثم يقول : وأما قول
الشاعر في شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وقوله :

إذا كنت ليلي وليلى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الإتحاد الوضعي ، كاتحاد أحد المتحابين
بالآخر ، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول
مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهو تشابه وتماثل ، لا اتحاد
العين بالعين ، إذا كان قد استغرق في محبوبة ، حتى فنى به عن رؤية
نفسه كقول الآخر :

غبت بك عفا فظننت أنك أنى

ثم يقول : « (١) فهذه الحال تعترى كثيراً من أهل المحبة والإرادة في
جانب الحق ، فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه ، وعن نفسه ، وبوجوده
عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده ، فقد يقول في هذه
الحال : أنا الحق ؛ أو سبحانه ، أو ما في الجبة إلا الله ، ونحو ذلك ،
وهو سكران بوجد المحبة » .

ولم أجد في الدفاع عن الحلاج وتبرئته من تهمة الحلول والإتحاد أبلغ
من كلام ابن تيمية خصم الصوفية الكبير .

(١) المصدر السابق ص ٦٤

من هذا المقام الذى جلاه لنا ابن تيمية . كانت الحان الحلاج .

ومراجيده التى عبر فيها عن صلته بالله . تعبيرات حارة ملتزمة تصح
بوجوده ، وتنقبض بفناء ذاته ، وتدندن بالقرب الذى يبيح له أن يتكلم
بلسان الحقيقة فيهتف :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
ثم يعود إلى لسان بشريته فيترنم :

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففرق بيننا (١)

سأل الزهروانى الحلاج أن يفيد بكلمة من التوحيد فقال الحلاج :
« أعلم أن العبد إذا وحد ربه تعالى فقد أثبت نفسه ، ومن أثبت نفسه فقد
أتى بالشرك الخفى ، وإنما الله تعالى هو الذى وحد نفسه على لسان من شاء
من خلقه (٢) » ثم ترنم :

يا سرّ سرّ يلقى حتى يخفى على وهم كل حىّ
وظاهراً باطناً تجلى لكل شىء بكل شىء
إن اعتذارى إليك جهل وعظم شكى وفرط عىّ
يا جملة السكل لست غيرى فما اعتذارى إذا إلى ؟

وما أصدق هذا اللعن وأروع .

وظنوا بنى حلولا واتحاداً وقلبي من سوى التوحيد خال

(١) الطواسين ص ١٨٤

(٢) أخبار الحلاج طبع بباريس ص ٥٠

الحلاج والحقيقة المحمدية

ووحدة الأديان

يقول ما سنيون : «^(١) إن الحلاج وقف في مفترق الطرق ، بين عصرين من أهم عصور التصوف ، كان للعصر الأول أثر في تكوين مذهبه ، كما كان لمذهبه أثر في توجيه التصوف في العصر الثاني» .

ولا جدال في أن الحلاج ، قد وجه خطو الحياة الروحية في الإسلام ، إلى معارج وآفاق لم تعرفها من قبله ، وكان في طليعة هذه المعارج والآفاق ، فكرة الحلاج أو نظريته ، عن الحقيقة المحمدية ، أو النور المحمدي .

فلأول مرة في تاريخ التصوف ، نرى الحب الإلهي عند الحلاج يتجاوز ذات الله سبحانه ، إلى أول مخلوقاته ، وهو نور محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وتنادى النظرية الحلاجية ، بأن للرسول عليه السلام صورتين مختلفتين ، صورته نوراً قديماً كان قبل أن تكون الأكوان ، ومنه يستمد كل علم وعرفان .

وصورته نبياً مرسلًا ، وكأننا محدثاً ، تعين وجوده في زمان ومكان محددين .

وتجعل النظرية النور المحمدي ، مصدر الخلق جميعاً ، فنه صدرت الموجودات ، ومن نوره ظهرت أنوار النبوات ، وما سائر الأنبياء

(١) التصوف الاسلامي وتاريخه لنيكلسون

إلا صور من ذلك النور الأزلى ، وقد كانت الصورة الكاملة في سدنا محمد خاتم النبيين ، أول خلق الله أجمعين .

وقد عقد الحلاج شرح هذه النظرية فصلاً في كتابه - الطواسين -
أسماء : طاسين السراج : قال فيه .

« طس سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ،
قر تجلى من بين الأقار ، برجه في فلك الأسرار ، سماه الحق - أميا -
لجمع همته ، و - حرمياً - لعظم نفعه ، و - مكياً - لتمكينه
عند قربه .

شرح صدره ، ورفع قدره . وأوجب أمره ، فأظهر بدره ، طلع
بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسُه من ناحية تهامة ، وأضاء سراجُه
من معدن الكرامة

ما أخبر إلا عن بصيرته . ولا أمر بسنته إلا عن حق سيرته ، حضر
فأحضر ، وأبصر فأخبر ، وأنذر فحدد .

ما أبصره أحد على التحقيق ، سوى الصديق ، لأنه دافعه ، ثم رافعه ،
ما عرفه عارف إلا جهل وصفه (والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما
يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعملون) .

ثم يقول : أنوار النبوة من نوره برزت « وأنوارهم من نوره ظهرت ،
وليس في الأنوار نور أنور وأظهر من نور صاحب الكرم ، همته سبقت
الهمم ، وإسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم .

ثم يقول : العلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ،
الأزمان كلها ساعة من دهره .

فرسول الله إذن في نظرية الحلاج . هو أول تعين من تعينات الذات
الإلهية ، وعنه فاضت المخلوقات الأخرى ، فهو أصل الوجود وعماده ،
ولولاه ما كان شمس ولا قمر ، ولا نجوم ولا أنهار .

ولو لم يبعث محمد صلوات الله عليه كما يقول الحلاج ، لم تكمل الحجة على جميع الخلق ، وكان يرجو الكفار النجاة من النار .

وعن الحلاج تطورت هذه النظرية ، على أيدي الصوفية ، حاملة أسماء مختلفة ، مثل الإنسان الكامل ، أو القطب الباز ، ولكن جوهر النظرية ظل كما وضعه الحلاج في القرن الثالث .

وقد أثرت هذه النظرية في توجيه المذاهب النبوية ، إلى تلك الصور التي تنسق مع هذه النظرية ، فداح الرسول عليه السلام يستقون كما يقول ماسنيون : من معين الحلاج ، وينسجون على منواله .

ومن المعارج والآفاق ، التي ابتكرها الحلاج وأضافها إلى المعرفة الصوفية قوله بوحدة الأديان .

فهو يرى أن الأديان وجهات نظر إلى حقيقة واحدة ، لأن أهل كل دين قد نظروا إلى الله نظرة تخالف نظر الآخرين ، والجميع يندشدون شيئاً واحداً ، وهم في ذلك محقون ، لأن الاختلاف لا بد أن يكون اختلافاً في الأسماء والألقاب ، والمقصود في الجميع لا يختلف .

وقد انبثقت من هذه النظرية ، نظرية علاجية أخرى في الجبر ، لأنه نتيجة طبيعية لهذه الوحدة .

فالحلاج يرى أن الله شغل بكل دين طائفة ، لا اختياراً منهم ، بل اختياراً عليهم ، فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه ، فقد حكم بأنه اختار ذلك لنفسه .

والجبر يقتضى الفرق بين الإرادة والأمر ، والحلاج لهذا لا يقسو على إبليس بل يشفق عليه في رفضه السجود لآدم .

لأن الله سبحانه أراد عدم السجود في الأزل ، رغم الأمر بالسجود ، وإبليس رأى أن هذا الأمر ظاهري فقط ، وهو في حقيقته ابتلاء ! والله وحده سبحانه ، هو الحقيق بالسجود له .

يقول الحلاج : « (١) لما قيل لإبليس أسجد لأدم ، خاطب الحق :
أرفع شرف السجود عن سرى إلالك حتى أسجد له ؟ إن كنت أمرتني ،
فقد نهيته .

قال : فاني أعذبك عذاب الأبدي ١١ فقال : ألسنت تراني في عذابك
لي ؟ قال : بلى ؟ فقال : فرويتك لي تحملني على رؤيه العذاب ، لأفعل
لي ما شئت . . .

وإبليس عند الحلاج من أهل الفتوة لأنه هدد بالعذاب الخالد فلم
يرجع عن دعواه التي آمن بها ١١١ ؟

(١) الطواسين ص ١١

عقيدته التوحيدية

مذهب الحلاج في التوحيد . أن الذات الإلهية وراء الإدراك ، وفوق التصور ، لا بناها البصر ، ولا يدركها الفكر ، وكل ما يصف به الناس ربهم ، فانما يصفون به أنفسهم .

والعقل الإنساني لا يدرك الله سبحانه ، فالوجد وحده هو الذي يدرك الله تعالى ، وجذبة الوجد ، وحرقة الحب ، هما طريق الوصول . والوجود الحقيقي لله سبحانه ، وهو سبحانه غير محدود ، فلا يوجد وجوداً حقيقياً سواه .

وهذا الوجود الظاهر للعالم ، متصل بالله اتصالاً يجعل إدراكه بمنزلة إدراك الله متعذراً ! يقول الحلاج : « ما انفصلت البشرية عنه ، ولا اتصلت به » .

والوحدة التي تأتي في كلمات الحلاج ، ليست من الحلول ، ولا من الإتحاد ولا من وحدة الوجود .

فالحلاج يفرق بين الله والعالم ، ولكنه يرى ، كما يرى الصوفية جميعاً أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقاً ، وإنما الوجود الحق لله ، فليس هو العالم ولا العالم هو ، لأن العالم لا وجود له .

فالله سبحانه ليس في العالم ، ولا العالم خلو منه ، ليس محدوداً فيه ، وليس خارجه ، فما العالم إلا تجليه ، فهو في كل مكان ، وليس في مكان في كل جهة وليس له جهة ، أو كما يقول الحلاج في مواجيدته : « أين أنت ؟ وأين مكان لست فيه ؟ » .

ويقول الحلّاج وهو من أبلغ الكلام في جلاء مذهبه التوحيدى :
(١) الحق تعالى أوجد هذه الميا كل على رسم العلل . منوطة بالآفات ،
فانية فى الحقيقة ، وإنما الأرواح فيها إلى أجل معدود ، وقهرها بالموت .
وربطها فى وقت إتمامها بالعجز .

وصفاته تعالى باينة عن هذه الأوصاف من كل الوجوه ، فكيف يجوز
أن يظهر الحق فيما أوجده بهذا النقص والعلة ؟ كلا وحاشا ، وثبت أن
الحق سبحانه وتعالى ألزم فى كتابه وصف العبودية للخلق أجمع فقال :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وقال : « إن كل ما فى السموات
والأرض إلا آت الرحمن عبداً ، فكيف يجوز أن يحل فيما ألزمه وصف
النقص ، وهو العبودية ، فيكون مستعبداً معبوداً ، أيتهم الحلّاج بعد
ذلك بالحلول ٩٩١١ ؟

قال المزنى : « دخل الحسين بن منصور رحمه الله مكة ، فسئل عن
شهادة الذر للحق بالوحدانية وعن التوحيد ، فتكلم فيه حتى نسينا التوحيد ،
فقلنا : هذا يليق بالحق ؟ فقال : هذا يليق به ، من حيث رضا به نعمنا ،
ولا يليق به وصفاً ولا حقيقة ، كما رضى بشكرنا لنعمه وأنا يليق
شكرنا بنعمه . »

ويقول السلمى فى حقائق التفسير . « سئل الحسين بن منصور هل
ذكره أحد على الحقيقة فقال :

ليس له دراك ، ولا لغيبه هناك ، له من الأسماء معناها ، والحروف
يجراها « إذا الحروف مبدوعة ، والأنفاس مصنوعة ، والحروف قول
القاتل .

رجع الوصف إلى الوصف ، وعمى العقل عن الفهم ، والفهم عن

(١) أصول الملامتية ، وغلطات الصوفية ، للسلمى ص ٩٤

لدرک ، والدرك عن الإستنباط ، وانتهى المخلوق إلى مثله ،

ويقول مسعود الواسطي : (١) سمعت الحسين بن منصور ، يقول
لإبراهيم بن فائق ، وأنا أسمع : يا إبراهيم إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ،
ولا تدركه الأبصار ، ولا تمسكه الأماكن ، ولا تحويه الجهات ، ولا
يتصور في الأوهام ، ولا يتخايل للفكر ، ولا يدخل تحت كيف ، ولا ينعت
بالشرح والوصف ، ولا تتحرك ، ولا تسكن ، ولا تنفس إلا وهو معك ،
فانظر كيف تعيش ،

ويروى الكلاباذي عن الحلّاج قوله : (٢) البادى من المكنونات معروف
بنفسه بهجوم العقل عليه ، والحق أعز من أن تهجم العقول عليه ، وأنه
عرفنا نفسه أنه ربنا فقال : ألسنت بربكم ، ولم يقل من أنا ، فهجم العقول
عليه حين بدا معرفا ، فلذلك انفرد عن العقول ، وتنزه عن التحصيل غير
الإثبات . .

ومن وراء أستار الغيب يقول الحلّاج :

هذا وجودى وتصريحى ومعتقدى	هذا توحيد وتوحيدي وإيماني
هذا عبارة أهل الانفراد به	ذوى المعاني فى سر وإعلان
هذا وجود وجود الواجدين له	بنى التجانس أصحابى وخلانى

(١) أخبار الحلّاج ص ٣٢ .

(٢) التعرف لمذهب أهل النصف ص ٦٥ .

الحلاج بين أنصاره وخصومه

يقول الإمام الشعرائي : « إن الله سبحانه قد ابتلى هذه الطائفة —
الصوفية — بالخلق كما ابتلى الأنبياء من قبل بعداوة الناس وخصومتهم » .
ولقد اختلف الحلاج وحده في الأفق الصوفي ، بأكثر قسط من هذا
الابتلاء ، أو هذا الإقترام .

فلم تختصم الأقلام حول رجل في الحياة الروحية ، كما اختصمت صاخبة
مدوية ، حول الحلاج وسيرته وعقيدته ؟

حتى ليقول الياقسي : « الحلاج ثالث ثلاثة ، أحبهم قوم فكفروا
بهم ، وأبغضهم قوم فكفروا ببغضهم ، والإثنان الآخر ، عيسى بن مريم ،
وعلى بن أبي طالب » .

وروى العارف زورق عن شيخه النوري ، أنه سئل عنه فقال :
« اختلف فيه من الكفر إلى الكفر إلى القطبانية ، ومن لم يذق ماذا القوم .
ويجاهد مجاهداتهم ، لا يسعه إلا الإنكار عليهم » .

وجاء في مطلع كتاب — مفاتيح العيوب ، وتعمير القلوب — :
« أعلم أن الحلاج عند محقق العلماء ، مجمع على ولايته ، ومعرفته بربه عز
وجل ، وما ينسب إليه من غير هذا كذب وبهتان عليه ، فيجب اعتقاد
ولايته وصدقه وأنه ركن من أركان طريق الحق سبحانه ، وإمام من أئمة
المسلمين ، ولكنه كان له أعداء أغراهم إبليس به ، فأذوه واقترؤا عليه ،
ولا تلتفت إلى هذه المخالفات المزورة عليه ، وقد وصفه بالولاية والجمع بين
العلم والعمل ، غير واحد من أكابر الأئمة » .

وعن عيسى القزويني قال : « سألت ابن خفيف ما تعتقد في الحلاج ؟
قال : أعتقد بولايته ، قلت : قد كفره المشايخ . قال : إن كان الذي رأيت
في الحبس لم يكن توحيداً ، فليس في الدنيا توحيد » .

ويقول العلامة السلي : « سمعت إبراهيم بن محمد النضر اباذى قد
عوتب في شيء حكى عن الحلاج في الروح فقال : إن كان بعد النبيين
والصديقين موحد ، فهو الحلاج » .

ويقول الشعراني^(١) : « وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه
يقول : أكره من الفقهاء خصلتين ، قولهم بكفر الحلاج ، وقولهم يموت
الخضر عليه السلام ، أما الحلاج فلم يثبت عنه ما يوجب القتل ، وما نقل
عنه يصح تأويله نحو قوله — على دين الصليب يكون موتى — ومراده أنه
يموت على دين نفسه ، فإنه هو الصليب ، وكأنه قال : أنا أموت على دين
الإسلام ، وأشار إلى أنه يموت مصلوباً وكذلك كان » .

وقيل للقطب الرقاعي : إن أهل بغداد يقولون : مشايخ العراق كانوا
في زمان الحلاج ، لأنه لما احترق وذرى في الماء شربوه فصهروا مشايخ
وأخذوا بقوله :

وما شرب العشاق إلا بقيتي وما وردوا في الحب إلا على وزدى
فقال : لو كان مشايخ العراق مشايخ ، لآخذ السيف جنوبهم ، كما أخذ
الحلاج !! » .

وذكر الكلأباذى في التعرف : « أن الخضر عليه السلام عبر على
الحلاج وهو مصلوب ، فقال له الحلاج : هذا جزاء أولياء الله ، فقال له
الخضر : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لو طارت مني شرارة لآحرت
مالكا وناره ؟ » .

(١) لطائف التنج ج ٢ ص ٨٤ .

ويروى السلمي : أن بعض أهل الكشف زار قبر الحلاج فرأى نورا
ساطماً من قبره إلى السماء ، فقال : يارب ما الفرق بين قوله « أنا الحق »
وبين قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » ، فآلم أن فرعون رأى نفسه وغاب
عنا ، وهذا رأانا وغاب عن نفسه .

ويقول صاحب فصل الخطاب : « الإجماع منعقد عند المشايخ على
كون الحسين بن منصور شهيداً » .

ويقول أبو حيان^(١) : « وكان شيخ الحنابلة في عصره أبو الوفاء بن عقيل
يتعصب للحلاج ويمجده ، وعزلته الخلافة العباسية واضطهدته لذلك » .

ويقول العلامة ابن سبعين عن الحلاج : « إنه ولي وشفيق لا تناقض
عنده ، مؤمن بالتوحيد الأول السكلي الذي يتجاوز نطاق الإسلام » .

ويقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في الفتوحات ، معقباً على
كتاب الحلاج — الصيهور والديهور —

« لم أر متحدّاً أوثق وفتق ، ويربه نطق ، وأقسم بالشفق ، والليل
وما وسق ، والقمر إذا انسق ، وركب طبقاً على طبق مثله ، فإنه نور في
عناق ، منزلة الحق عنده منزلة موسى من التابوت ، ولذلك كان يقول :
باللاهوت والناسوت ، وليس هو بمن يقول — العين واحدة — ويحيل
الصفة الزائدة .

وأين فاران من الطور ، وأين النار من النور ، والعرض محدود ،
والطول ظل محدود ، والفرض والنقل شاهد ومشهود » .

وقد عقد الإمام الغزالي في كتابه — مشكاة الأنوار فصلاً طويلاً
دافع فيه عن الحلاج وشرح ألفاظه وأقواله ، واعتبره من الصفوة الهداة
الداعين إلى الله .

(١) أبو حيان التوحيدى للأستاذ عبد الرزاق عيسى الدين .

ويقول الأستاذ أبو الوفا التفتازاني ، في كتابه عن ابن عطاء الله
السكندري : « إن الشاذلية جميعاً يحلون الحلاج ويعتقدونه إماماً ،
رتقول دائرة المعارف الإسلامية ^(١) : « قل بين المسلمين من ثار حوله
الجدل مثل الحلاج ، وذلك أن الرأي العام ، وضعه موضع التقديس
والولاية ، رغم ما أثار خصومه حوله » .

ثم تضع دائرة المعارف سجلاً شاملاً ، لمن كفره ، ولمن اعتقد بولايته ،
ولمن توقف في أمره ، فتقول :

« فمن عده من الأولياء من الفقهاء : الشوشتری ، والعاملي ، والعبدري ،
والدلتجاي ، والناقلي ، والمقدسي . والياقعي ، والشعراني ، والهيتمي ،
وابن عقيلة ، وسيد مرتضى الزبيدي .

ومن المتكلمين : ابن خفيف ، والغزالي ، ونفح الدين الرازي ،
والمدرستين السالمية ، والماتردية .

ومن الحكماء : ابن طفيل ، والسهروردي ، والحلي ، ومن الصوفية :
الشبلي ، وفارس ، والكلا بازي ، والنصرا بازي ، والسلمي ، والدقاق ،
والقشيري ، والصيدلاني ، والهجویری ، وأبوسعید الهروي ، والفارمزي ،
وعند القادر الجيلاني ، والبقلي ، والعطار ، وابن عربي ، وجلال الدين
الرومي .

وأما الذين تناذوا بتكفيره ، فأبن داود ، وابن حزم ، وابن تيمية ،
والطوسي ، والحلي ، وابن خلدون ، والجبائي ، والباقلاني .

ثم تقول دائرة المعارف : « وقد حاول الحلاج بوصفه من أهل الجدل
والوجد ، أن يوفق بين الدين والفلسفة اليونانية ، على أساس من التجربة
الصوفية ، وهو في هذا يعد رائداً للغزالي ، وقد جعل الصوفية من الحلاج ،
أعظم شهدائهم » .

(١) المجلد الثامن ج ١ ص ١٧ .

الروح الخالدة

ذلك موقف التاريخ من الحلاج وحياته ، وتلك هى المعركة التى دارت حول رسالته .

وقد آن للضمير الإسلامى ، أن يتحرر من سحر التهاويل المفتعلة ، وضجيج الإفتراءات الكاذبة ، التى أحاطت بالحلاج وسيرته ورسالته .
ومن أدب القرآن ، أن من قتل نفساً ظلماً ، فقد قتل الناس جميعاً ، وكذلك من اتهم نفساً ظلماً فكأنما اتهم الناس جميعاً .

إن عرض الإنسانية وشرفها وكرامتها ، كل لا يتجزأ ، والدفاع عن هذه المقدسات للناس كافة ، رسالة وأمانة فى أعناق الأفلام الحرة ، والقلوب المؤمنة .

ومن كلمات النبوة الخالدة : « من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه » .

ونحن نأمل أن نكون قد وفينا حق هذه الأمانة ، وأقننا على الصراط المستقيم المضىء حياة رجل يقف شامخاً على مرقاة مضيئة هادية ، ليرشد الإنسانية ، إلى معراج من الحب الإلهى ، يسمو بالوجود الإنسانى ، إلى سدرة الزجل الربانى ، الذى يرتفع فوق الحياة ، ليتخلق بأخلاق الله ، ويقتات قلبه بنوره ورضاه .

رجل عاش للثنائية الإيمانية ، بكل ما يتسع له أفقها الرحب ، وجاهد فى سبيلها ، وقدم دمه فداء لها .

عاش للبثل العليا ، تملأ نفسه ، وتغمر روحه ، وتضىء قلبه ، وتفتح له آفاقاً فسيحة ، فى عالم الخير والحب والكمال ، عاش ووجهه للسماء أبداً .

عاش ليقدم للإنسانية ، صورة من صور البطولة الروحية الشاخنة ،
تنضام حيا لها ، كافة الصور البطولية ، التي تنبثق من كبرياء النفس وشهواتها .
عاش ليقدم البرهان المضيء على أن النصوص في جوهره ، هو أعلى
صور التسامى ، كما هو أعلى صور الجهاد والفداء .

عاش ليقدم الدليل الحى ، على أن الروح ، إذا ارتفعت إلى الله سبحانه
صغرت الأكوام في نظرها ، وهانت الأحداث في منطقتها ، فخذت بزهداها
وترفعها ، أعظم قوة تهز عروش البغى . وتوجه أحداث التاريخ .

وبعد فعل مرمى السهم من الفرات ، في قلب بغداد ، يقوم ضريح
لا تنطق أنواره ، ولا ينقطع رواده .

وإلى هذا الضريح تتجه قلوب الملايين ، عبر القرون ، وتحت قبابه أنشد
جلال الدين الرومى روائعه ، ورتل فريد الدين العطار أقوى ملاحمه ، وترنم
الجامى بنفحات أنسه ، وفي ردهاته عقد صوفية الفرس والترک حلقاتهم
التاريخية ، وأنشد العابدون على ناي منصور ، أروع ألحان الروحانية
الإسلامية .

ومن عجب أن الضريح لا يضم جسداً ، ولا يحوى رفاتاً ، لقد أقيم رمزاً
وذكرى ، لروح لمع في أفق الحياة ، كما يلتصع الشهاب في أفق السماء ، ثم
احترق كما يحترق كل شهاب ، يطل على الوجود ، بنور لا تختمله العيون .

ذلك هو ضريح الحلاج الشهيد ، الذى لا يضم رفاتاً ، لأن الكون
كله ، هو الذى ضم رفاتة ، واحتضن ذراته .

وتلك آية من آيات الخالدين ؟

طه عبد الباقي سرور نعيم

٢٢ من ربيع الاول عام ١٣٨١ هـ

٢ سبتمبر عام ١٩٦١ م

من مراجع الكتاب

- | | |
|----------------------------|---|
| الطواسين | : الحسين بن منصور الحلاج |
| أخبار الحلاج | : لعلي بن أنجب الساعى |
| البداية والنهاية | : لابن كثير |
| تاريخ بغداد | : للخطيب البغدادي |
| وفيات الأعيان | : لابن خلكان |
| شخصيات قلقة في الإسلام | : لماثيون ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي |
| الفتوحات المكية | : محي الدين بن عربي |
| إحياء علوم الدين | : للغزالي |
| الطبقات الكبرى | : للشعراني |
| الكواكب الدرية | : للنناوي |
| التصوف وفريد الدين العطار | : للدكتور عبد الوهاب عزام |
| التعرف لمذهب أهل التصوف | : للكلاباذي |
| اللمع | : للسراج الطوسي |
| الصوفية في الإسلام | : لنيكلسون - ترجمة شريعة |
| في التصوف الإسلامي وناريخه | : د أبو العلا عفيفي |
| المثنوى | : لجلال الدين الرومي |
| معجم البلدان | : لياقوت |
| دائرة المعارف الإسلامية | : |
| التصوف في الشعر العربي | : لعبد الحكيم حسان |
| مخطوطات صوفية | : لماثيون - نشر باريس |
| طبقات السلي | : لأبي عبد الرحمن السلي |
| ديوان الحلاج | : طبع باريس |

الرسالة القشيرية	: للقشيري
ظهر الإسلام	: لأحمد أمين
مرآة الزمان	: للسبط الجوزي
مجموعة الرسائل	: لابن تيمية
عوارف المعارف	: للسهروردي
كشف المحجوب	: للهجویری

محتويات الكتاب

الصفحة	
٣	بين يدي الكتاب
٧	شعاع على التاريخ
١٩	الفرس والتصوف
٢٢	فجر التصوف وضحاها
٢٧	تطور المعارف الصوفية
٣٢	مولد الحلاج
٣٧	شيوخه في الطريق
٣٨	الحلاج في بغداد
٤٠	الحلاج والأخوة الروحية
٤٢	مجاهداته الروحية
٤٥	الحلاج والمنهج والرسالة
٤٩	الحلاج في بيت الله
٥١	تنقلات الحلاج في العالم الإسلامي
٥٥	الحلاج في عاصمة الخلافة
٥٩	المنهج الحلاجي
٦٠	الحلاج وعلماء الكلام
٦٢	الحلاج وتفسير القرآن
٦٥	الحلاج وآداب السلوك الصوفي
٧٠	الحلاج والتصوف
٧٥	صلة الحلاج بالله
٨٠	صلته القوية بالله
٨٦	الحلاج وأعلام التصوف في عصره

٩٤	الزعيم الثائر
١٠١	ثورة ابن المعتز
١٠٣	.	:	.	:	.	.	.	الحلاج في قصر الخليفة
١١١	محاكمات الحلاج
١١٣	المحاكمة الأولى
١٢٠	:	.	.	المحاكمة الكبرى
١٢٣	قتل ابن عطاء
١٢٥	شهود القضية
١٢٩	:	.	.	بطولة ابن عفيف
١٣٠	عجائب الحلاج في سجنه
١٣٤	اتجاهات هادفة
١٣٨	الكلمة القاتلة
١٤٢	الحلاج ينذر الخليفة
١٤٥	الخليفة يعتمد الحكم
١٤٨	.	.	:	ليلة المصراع
١٥١	مصراع الشهيد
١٥٤	بتر يده
١٥٧	.	:	عذاب الحلاج
١٥٩	قطع قدماء
١٦٢	قصيدة المصلب
١٦٤	عجائب يوم المصراع
١٦٧	مشاهد روحية
١٦٨	بين محي الدين والحلاج
١٧٠	.	.	.	:	.	.	.	في أعقاب المصراع
١٧١	سر المأساة

١٧٦	مغونات الحلاج .
١٩٠	الحلاج والحب الإلهي .
٢٠٤	مقام الفناء والاتحاد والحلول
٢١٦	الحلاج والحقيقة المحمدية
٢٢٠	عقيدته التوحيدية
٢٢٣	الحلاج بين أنصاره وخصومه
٢٢٩	مراجع الكتاب .

من كتب الحلاج الخطية

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| ٢٣ - طامسين الأزل . والجوهر | ١ - بستان المعرفة |
| الأكبر . والشجرة الزيتونة | ٢ - تفسير سورة الإخلاص |
| النورانية | ٣ - كتاب الأبد |
| ٢٤ - الظل الممدود والحياة الباقية | ٤ - كتاب الأحرف المحدث |
| ٢٥ - العدل والتوحيد | والأزلية والأسماء الكلية |
| ٢٦ - علم البقاء والفناء | ٥ - كتاب الأنسال |
| ٢٧ - كتاب إن الذي فرض عليك | ٦ - كتاب التوحيد |
| القرآن لرادك إلى ميعاد | ٧ - الجيم الأصغر |
| ٢٨ - قرآن القرآن والفرقان | ٨ - الجيم الأكبر |
| ٢٩ - القيامة والقيامات | ٩ - جمل النور والحياة والأرواح |
| ٣٠ - الكبر والعظمة | ١٠ - خزائن الخبرات |
| ٣١ - الكبريت الأحمر | ١١ - خلق الإنسان والبيان |
| ٣٢ - كيد الشيطان وأمر السلطان | ١٢ - خلق خلاص القرآن والإعتبار |
| ٣٣ - كيف كان وكيف يكون | ١٣ - الدرة إلى نصر القشوري |
| ٣٤ - لا كيف | ١٤ - الذاريات ذروا |
| ٣٥ - المتجليات | ١٥ - سر العالم والمبعوث |
| ٣٦ - مواجيد العارفين | ١٦ - السمرى وجوابه |
| ٣٧ - والنجم إذا هوى | ١٧ - السياسة إلى حسين بن حمدان |
| ٣٨ - نور النور | ١٨ - السياسة والخلفاء والأمراء |
| ٣٩ - الوجود والأزل | ١٩ - شخص الظلمات |
| ٤٠ - هو هو | ٢٠ - الصدق والإخلاص |
| ٤١ - اليقين | ٢١ - الصلاة والصلوات |
| ٤٢ - اليقظة وبدء الخلق | ٢٢ - الصبيون |

للمؤلف

من مطبوعات دار نهضة مصر للطبع والنشر

١ - التصوف الاسلامى والإمام الشعراوى

٢ - من اعلام التصوف الإسلامى أول

٣ - د د د د ثان

٤ - دولة القرآن

طَبَقَةُ نَخْصَةِ نَصْرٍ
الغجالة . القمامة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٦٥ / ١٩٦٩

